رواية

إيزابيل الليندي

مدينة الوحوش

ترجمة: صالح علماني





عنوان الكتاب: مدينة الوحوش
اسـم المؤلف: إيزابيل الليندي
ترجمـــــة : صـالح علماني
الناشـــــر: دار سـمرقند

دار سمرقند للنشر
سوريا - السويداء
هاتف:
016234737
0988543266
بريد الكتروني :
dar.samarkand@yahoo.com

التوزيع في البلاد العربية :
التكوين للنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني
تلفكس : **0112236468**
taakwen@yahoo.com

إيزابيل الليندي
Isabel Allende

مدينة الوحوش
Bestias de las La Ciudad

ترجمة
صالح علماني



إلى أليخاندرو، آندريا، ونيكول
الذين طلبوا مني هذه القصة

-1 -

الكابوس

استيقظ ألكسندر كولد عند الفجر مفزعاً من كابوس رآه. كان يحلم بأن طائراً أسود ضخماً اصطدم بالنافذة مثيراً جلبة تحطم الزجاج إلى فتات، ودخل البيت وحمل أمه. وكان يراقب بعجز، وهو في الحلم، كيف كان النسر العملاق يحمل ليزا كولد، من ملابسها، بمخالبه الصفراء، ويخرج بها من النافذة المحطمة نفسها ويختفي في السماء الملبدة بغيوم كثيفة. أيقظه دوي العاصفة.. الريح التي تسوط الأشجار، المطر المنهمر على السطح، والبروق والرعود. أضاء النور يراوده إحساس بأنه يمضي في سفينة تنقاد مع التيار على غير هدى، وألصق جسده بكتلة الكلب الضخم الذي ينام إلى جانبه. قدّر أن المحيط الهادي يرغي ويزيد على مسافة كوادرات قليلة من بيته، طافحاً بموجات عاتية على الكورنيش. بقي يستمع إلى العاصفة ويفكر بالطائر الأسود وأمه، منتظراً أن تهدأ دقات الطبل التي يسمعها في صدره. كان ما يزال عالقاً في حبائل صور الحلم الخبيث.

نظر الصبي إلى الساعة: إنها السادسة والنصف، موعد الاستيقاظ. كان ضوء الفجر قد بدأ ينتشر بخفوت في الخارج. وقرر أن هذا اليوم سيكون يوماً مشؤوماً، واحداً من تلك الأيام التي يفضل المرء أن يمضيها في الفراش لأن كل شيء سيكون سيئاً. لقد توالت عليه أيام كثيرة من هذا النوع منذ مرض أمه؛ فهواء البيت يبدو ثقيلاً في بعض الأحيان، كما لو أنه في أعماق البحر. والراحة الوحيدة في مثل هذه الأيام هي الهرب، الخروج للركض على الشاطئ مع بونتشو إلى أن تنقطع أنفاسه. ولكن المطر يهطل ويهطل منذ أسبوع في طوفان حقيقي، أضف إلى ذلك أن غزالاً قد عض بونتشو الذي لم يعد يرغب في التحرك. كان أليكس مقتنعاً بأن لديه أغبى كلب في التاريخ، الكلب الفلاحي الوحيد الذي يزن أربعين كيلو غراماً ويعضه غزال. وقد هاجمت بونتشو، وهو كلب في الرابعة من عمره عدة راكونات،

وقط الجيران، والآن غزال، دون حساب المرات التي مسته فيها الظربان وكان لابد من غسله بصلصة البندورة لتخفيف حدة الرائحة الكريهة. غادر أليكس السرير دون أن يزعج بونتشو وارتدى ملابسه بالتلمس؛ ومع أن تشغيل المدفأة المركزية يبدأ في الساعة السادسة، إلا أن الدفء لم يكن قد بلغ غرفته بعد، وهي الأخيرة في أقصى الممر.

عند موعد الفطور كان أليكس معكر المزاج، ولم يجد ما يكفي من الحماس للاحتفاء بجهود أبيه في صنع معجنات البانكيك. لم يكن جون كولد طاهياً جيداً بالضبط: فهو لا يتقن صنع شيء سوى البانكيك التي تتحول بين يديه إلى ما يشبه عجة مكسيكية من المطاط. وكان أبناؤه، كيلا يغضبوه، يدسونها في أفواههم، ولكنهم ينتهزون أية لحظة سهو ليبصقوها في القمامة. وقد حاولوا، دون جدوى، إغراء بونتشو بأكلها: فقد كان الكلب أحمق، ولكن ليس إلى هذا الحد.

- متى ستشفى أمنا؟ - سألت نيكول، وهي تحاول أن تنفّس قطعة البانكيك الصمغية برأس الشوكة.

- اصمتي أيتها البلهاء! – ردّ أليكس، وقد ملَّ سماع سؤال أخته الصغرى نفسه عدة مرات كل أسبوع.

فعلقت آندريا:

- أمنا ستموت.

- هذا كذب! لن تموت – صرخت نيكول.

- أنتما صغيرتان، لا تعرفان ما تقولانه! – صاح أليكس.

فقاطعهم جون كولد، دون قناعة:

- هيا يا صغار، اهدؤوا. أمكم ستشفى...

أحس أليكس بأنه ضد أبيه، وأختيه، وبانتشو، والحياة عموماً، وحتى ضد أمه نفسها لأنها مرضت. خرج من المطبخ بخطوات واسعة، مستعداً للمغادرة دون فطور، ولكنه التقى بالكلب في الممر فخرّ على ركبتيه.

- ابتعد عن طريقي أيها الأخرق! – صاح به، ولكن باتشو المبتهج لحسه بلسانه في قبلة مدويّة ملأت نظارته باللعاب.

أجل، إنه في نهاية المطاف واحد من أيام النحس تلك. فبعد لحظات من ذلك اكتشف أبوه أن أحد إطارات الشاحنة الصغيرة مثقوب، وكان عليه أن يساعده في استبداله، ولكنهم أضاعوا على أي حال دقائق ثمينة

ووصل الأطفال الثلاثة متأخرين إلى المدرسة. وفي خروجهم المتعجل، نسي أليكس أن يأخذ معه واجب الرياضيات، مما أدى إلى تردي علاقته بالأستاذ. لقد كان يعتبره رجلاً ضئيلاً مثيراً للشفقة يرمي إلى تدمير حياته والأدهى من ذلك أنه نسي الناي كذلك، ولديه هذا المساء تدريب في أوركسترا المدرسة؛ وهو عازف الناي المنفرد ولا يمكنه التغيب عن التمرين.

لقد كان الناي هو السبب الذي اضطر أليكس إلى الخروج من المدرسة خلال استراحة الظهيرة، ليذهب إلى البيت. كانت العاصفة قد انقضت، ولكن البحر مايزال هائجاً، فلم يستطع اختصار الطريق بالذهاب عبر الشاطئ، لأن الأمواج كانت تتلاطم متطايرة فوق الكورنيش، مغرقة الشارع بالماء. اتخذ الطريق الطويل راكضاً، لأن لديه أربعين دقيقة فقط.

في الأسابيع الأخيرة منذ أن مرضت أمه، صارت تأتي امرأة لتنظيف البيت، ولكنها أخبرتهم بأنها لن تستطيع المجيء في هذا اليوم بسبب العاصفة. وهي لم تكن تفيد كثيراً على أي حال، لأن البيت كان وسخاً. بل إن التردي يلمح من الخارج، كما لو أن المسكن في حالة كآبة. فمظهر الهجران يبدأ من الحديقة ويمتد إلى الحجرات حتى آخر ركن فيها. راود أليكس إحساس بأن أسرته تتفكك. فأخته آندريا التي كانت مختلفة على الدوام عن أترابها الأخريات، تمضي الآن متنكرة وتشرد طوال ساعات في عالم أوهامها، حيث توجد ساحرات يترصدن في المرايا ومريخيون يسبحون في الحساء. كانت قد تجاوزت سن التفكير في هذه الأمور، وكان عليها، وهي في الثانية عشرة، أن تبدي اهتماماً بالصبيان وبثقب أذنيها، مثلما افترض هو. أما نيكول، أصغر أفراد الأسرة سناً، فكانت تجمع حديقة حيوانات، كما لو أنها تريد أن تعوّض عن الاهتمام الذي لا تستطيع أمها منحها إياه. فهي تطعم عدداً من حيوانات الراكون والظربان التي تتجول في أنحاء البيت؛ وقد تبنَت ست هريرات يتيمة، تحتفظ بها مخبأة في الكراج؛ وأنقذت حياة طير كبير وقبيح كُسر أحد جناحيه، ولديها أفعى طولها متر في صندوق خشبي. لو أن أمها وجدت تلك الأفعى فجأة فإنها ستموت رعباً على الفور، مع أن حدوث ذلك غير محتمل، لأن ليزا كولد، عندما لا تكون في المستشفى، تمضي اليوم كله في الفراش.

باستثناء معجنات البانكيك التي يعدها أبوه وبعض سندويشات التونا مع المايونيز، وهي اختصاص آندريا، لم يكن هناك من يطهو طعاماً في الأسرة

منذ شهور. ولم يكن في الثلاجة سوى عصير البرتقال، والحليب والمثلجات؛ فكانوا يطلبون بعد الظهر بيتزا جاهزة أو وجبة مأكولات صينية. وقد بدا لهم ذلك في أول الأمر أشبه باحتفال، لأن كل واحد منهم يتناول الطعام في أي وقت يشاء، ولا سيما السكاكر، ولكنهم جميعهم يتشوقون الآن إلى وجبات الأزمنة الطبيعية الصحية. لقد استطاع أليكس أن يقدّر، خلال هذه الشهور، كم كان حضور أمه عظيماً، وكم هو ثقيل غيابها. فهو يشتاق لضحكتها السهلة وحنانها، وكذلك لصرامتها. لقد كانت أكثر صرامة وأشد دهاء من أبيه: فمن الصعب خداعها لأن لها عيناً ثالثة ترى بها ما هو غير مرئي. لم يعد يُسمع صوتها المترنم بالإيطالية، ولم تعد هناك موسيقى، ولا أزهار، ولا تلك الرائحة المميزة للبسكويت المخبوز للتو، كما لم يعد هناك رسم. لقد كانت أمه تقضي فيما مضى عدة ساعات تعمل في مرسمها، وتحافظ على البيت نظيفاً لا تشوبه شائبة، و تنتظر عودة أبنائها وقد أعدت لهم البسكويت؛ أما الآن فتكاد لا تنهض لأكثر من هنيهة تجول خلالها على الغرف بهيئة حائرة، كما لو أنها لا تتعرف على ما يحيط بها، وعيناها غائرتان تحيط بهما الظلال. كانت رسومها فيما مضى أشبه بانفجارات ألوان حقيقية، أما الآن فإن لوحاتها تقبع منسية على مساند حملها بينما الألوان تجف في أنابيبها. وصارت ليزا كولد تبدو كما لو أنها قد تقلصت، وتحولت إلى مجرد شبح صامت.

لم يعد أليكس يجد من يطلب منه أن يحك له ظهره أو يرفع معنوياته عندما يستيقظ وهو يشعر بأنه حيوان صغير. فأبوه ليس من الرجال الذين يميلون إلى التدليل. كانا يخرجان معاً لتسلق الجبال، ولكنهما لا يتبادلان إلا كلمات قليلة؛ أضف إلى ذلك أن جون كولد قد تبدل، مثل كل أفراد الأسرة. لم يعد ذلك الشخص الرزين الذي كانه من قبل، فقد صار يثور ويغضب بكثرة ليس من أبنائه فقط، وإنما من زوجته أيضاً. فهو يؤنب ليزا في بعض الأحيان لأنها لا تأكل ما يكفي أو لأنها لا تتناول أدويتها، و لكنه سرعان ما يندم على غضبه ويطلب منها المعذرة مغموماً. كانت هذه المشاهد تخلّف أليكس مرتجفاً: لم يكن يتحمل رؤية أمه خائرة القوى وأبيه مغرورق العينين بالدموع.

حين وصل في ظهيرة ذلك اليوم إلى البيت، استغرب رؤية شاحنة أبيه الصغيرة في الخارج، فأبوه يكون في عمله في العيادة على الدوام في مثل هذا

الوقت. دخل من باب المطبخ، دون مفتاح كالعادة، وفي نيته أن يأكل شيئاً، ويأخذ نايه، وينطلق عائداً بسرعة إلى المدرسة. ألقى نظرة على ما حوله ولم ير سوى البقايا المتحجرة من بيتزا الليلة السابقة. استسلم لبقائه جائعاً، وتوجه إلى الثلاجة بحثاً عن كأس حليب. وفي هذه اللحظة سمع البكاء. ظن في البدء أنها هررة نيكول في الكراج، ولكنه سرعان ما انتبه إلى أن الصوت يأتي من غرفة نوم أبويه. وبصورة شبه آلية، دون نية في التجسس، اقترب ودفع الباب الموارب برفق. فأصابه ما رآه بالشلل.

كانت أمه في وسط الغرفة بقميص النوم وحافية القدمين، تجلس على مقعد دون مسند، ووجهها بين راحتيها، وهي تبكي. بينما أبوه يقف وراءها ممسكاً موسى حلاقة قديمة، من مخلفات الجد. وكانت هناك خصلات شعر أسود طويلة تغطي الأرض وكتفي أمه الهشين، ورأى رأسها الحليقة تلمع مثل الرخام تحت الضوء الشاحب المتسلل من النافذة.

بقي الصبي بضع ثوان متجمداً من الدهشة، دون أن يفهم ذلك المشهد، ودون أن يدري ما الذي يعنيه الشعر المبعثر على الأرض، ورأس أمه الحليقة أو موسى الحلاقة التي تلمع في يد أبيه على بعد مليمترات قليلة من رقبة أمه المنحنية إلى الأمام. وعندما تمكن من استعادة وعيه، انطلقت صرخة رهيبة خرجت من أسفل قدميه، وهزته موجة جنون بالكامل. اندفع ملقياً بنفسه على جون كولد، طارحاً إياه أرضاً. فطارت موسى الحلاقة راسمة قوساً في الفضاء، ومرت بمحاذاة جبهته ثم انغرست في أرضية الغرفة. بدأت أمه بمناداته، وهي تشده من ثيابه لتفصله عن أبيه، بينما كان هو يوجه الضربات على غير هدى، دون أن يرى أين يوجهها.

- حسن يا بني، اهدأ، لم يحدث أي شيء – توسلت ليزا كولد وهي تثبته بقواها الضئيلة، بينما أبوه يحمي وجهه بذراعيه.

وأخيراً تغلغل صوت أمه في ذهنه ونفس من غضبه في هنيهة، ليفتح المجال للحيرة والرهبة مما أقدم عليه. نهض واقفاً وتراجع مترنحاً؛ ثم انطلق يعدو وأقفل عليه باب حجرته. سحب منضدته وأحكم بها إغلاق الباب، وغطى أذنيه كيلا يسمع أباه يناديه. بقي لوقت طويل مستنداً إلى الجدار، مغمض العينين، محاولاً ضبط إعصار المشاعر الذي يهزه حتى النخاع. ثم بادر على الفور إلى تخريب منهجي لكل ما في الحجرة، انتزع الملصقات عن الجدران ومزقها واحداً واحداً؛ تناول مضرب البيسبول و انهال به على اللوحات

وأشرطة الفيديو؛ وهشم مجموعة سياراته القديمة وطائرات الحرب العالمية الأولى؛ انتزع صفحات كتبه؛ ومزق بسكينه متعددة الاستعمالات الفراش والوسائد؛ وقص بالمقص ملابسه و ملاءات السرير، ثم وجه أخيراً، بهراوة البيسبول، ضربة حولت المصباح إلى فتات. قام بكل ذلك التدمير دون تسرع، بمنهجية، و بصمت، مثل من ينفذ مهمة جوهرية، ولم يتوقف إلا عندما نفذت قواه ولم يعد هناك شيء يحطمه. تغطت الأرض بالريش وحشوة الفراش، بالزجاج، والورق، وخرق القماش، وأجزاء الألعاب والدمى.

وعندما استنفذ قواه من الانفعال والجهد، ألقى بنفسه وسط تلك الفوضى متكوراً مثل حلزون، رأسه بين ركبتيه، وبكى إلى أن غلبه النعاس.

استيقظ ألكسندر كولد بعد ساعات على أصوات شقيقتيه، وتأخر بضع لحظات في تذكر ما حدث. أراد أن يشعل الضوء، ولكن المصباح كان مهشماً. اقترب من الباب على رؤوس أصابعه، تعثر وأطلق لعنة حين أحس بأن يده حطت لدى وقوعه على قطعة زجاج. لم يتذكر أنه كان قد حرك المنضدة، فاضطر إلى أن يدفعها بكل جسده لكي يفتح الباب. أضاء نور الممر ميدان المعركة الذي تحولت إليه غرفته ووجهي شقيقتيه المذهولتين عند العتبة.

- هل تعيد ترتيب ديكور غرفتك يا أليكس؟ - قالت آندريا ساخرة بينما كانت نيكول تغطي وجهها بيدها لتكتم ضحكتها.

أغلق أليكس الباب في وجهيهما وجلس على الأرض مفكراً، ضاغطاً بأصابعه على جرح يده. بدت له فكرة الموت نزفاً مغرية، فسوف يتخلص على الأقل من مواجهة أبويه بعد ما فعله، ولكنه غيّر رأيه في الحال. يجب غسل الجرح قبل أن يلتهب، هكذا قرر. أضف إلى ذلك أن الجرح بدأ يؤلمه، لا بد أنه جرح عميق، يمكن أن يؤدي إلى إصابته بالكزاز. خرج بخطوات مترنحة، متلمساً طريقه لأنه يكاد لا يرى؛ كان قد أضاع نظارته في الكارثة، وكانت عيناه متورمتين من البكاء. أطلّ على المطبخ حيث يجلس بقية أفراد الأسرة، بمن فيهم أمه، وقد ربطت منديلاً قطنياً على رأسها، يضفي عليها مظهر اللاجئة.

- متأسف. – تلعثم أليكس وهو مطرق وبصره موجه إلى الأرض.

كتمت ليزا صرخة حين رأت القميص ملطخاً بدم ابنها، ولكنها أمسكت الابنتين من ذراعيهما، عندما أومأ لها زوجها، واقتادتهما خارجاً دون أن تقول كلمة واحدة. اقترب جون كولد من ألكسندر ليعالج يده الجريحة.

- لا أدري ما الذي حصل لي يا أبي.. – دمدم الصبي، دون أن يتجرأ على رفع بصره.

- وأنا خائف أيضاً يا بني.

- هل ستموت ماما؟ - سأله أليكس بصوت خافت.

- لست أدري يا ألكسندر. ضع يدك تحت صنبور الماء البارد – أمره أبوه.

غسل جون كولد الدم. ثم فحص الجرح، وقرر حقنه بالبنج لينتزع منه فتات الزجاج ويخيطه. أما أليكس الذي كانت رؤية الدم تضايقه، فقد تحمل العلاج دون أن ينبس ببنت شفة، وحمد حسن حظه لأن هناك طبيباً في الأسرة. وضع له أبوه مرهماً مضاداً للالتهاب على الجرح، ثم ضمد يده.

- لقد كان شعر أمي سيسقط من تلقاء نفسه على أي حال، أليس كذلك؟

- أجل، بفعل العلاج الكيماوي. ومن الأفضل قصه دفعة واحدة بدل رؤيته يتساقط في خصلات. هذا هو الأمر الأقل أهمية يا بني، فالشعر سينمو ثانية. اجلس، يجب أن نتكلم.

- اعذرني يا أبي.. سوف أشتغل لأعوض كل ما أتلفته.

- لا بأس أظن أنك كنت بحاجة إلى التفريج عن نفسك. فلننس الحديث في هذا الأمر، هناك شيء آخر أكثر أهمية عليّ أن أخبرك به. يتوجب عليّ أن آخذ ليزا إلى مستشفى في تكساس، حيث سيخضعونها لعلاج طويل ومعقد. إنه المكان الوحيد الذي يمكنهم عمل ذلك فيه.

- وهل ستشفى بهذا؟ - سأله الصبي متلهفاً.

- هذا ما آمل به يا ألكسندر. سأذهب معها بالطبع. وسيكون علينا أن نقفل هذا البيت لبعض الوقت.

- وماذا عن أختيّ وعني؟

- آندريا ونيكول ستذهبان لتعيشا مع الجدة كارلا. أما أنت فستذهب إلى حيث أمي – أوضح له أبوه.

- عند كاتي؟ لا أريد الذهاب إليها يا أبي! لماذا لا يمكنني الذهاب مع أختيّ؟ فالجدة كارلا تحسن الطهو على الأقل..

- ثلاثة أطفال معاً سيكونون عبئاً كبيراً على حماتي.

فاحتج أليكس غاضباً:

- عمري خمس عشرة سنة يا أبي، وهذه سن كافية لأن تسألني رأيي على الأقل. ليس من العدل أن ترسلني إلى كاتي وكأنني صندوق متاع. دائماً يحدث الشيء نفسه، أنت تتخذ القرارات وأنا عليّ أن أتقبلها. لم أعد طفلاً!

- أنت تتصرف أحياناً كطفل – ردّ عليه جون كولد وهو يشير إلى الجرح في يده.

- لقد كان حادثاً، ويمكن أن يحدث ذلك لأي شخص. أعدك بأنني سوف أحسن التصرف في بيت الجدة كارلا.

- أعرف أن نواياك طيبة يا بني، ولكنك تفقد رشدك أحياناً

صرخ ألكسندر وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- قلت لك أنني سأدفع ثمن ما خربته!

- أرأيت كيف تفقد السيطرة على نفسك؟ ليس لهذا على كل حال أي علاقة بتحطيمك غرفتك. لقد رتبنا الأمر مسبقاً مع حماتي وأمك. عليكم أنتم الثلاثة أن تذهبوا إلى جدتيكم، لا يوجد حل آخر. أنت ستسافر إلى نيويورك بعد يومين.

- وحيداً؟

- وحيداً. وأخشى أنك من الآن فصاعداً ستكون مضطراً لعمل أشياء كثيرة بمفردك. ستأخذ جواز سفرك، لأنك ستبدأ خوض مغامرة مع أمي على ما أعتقد.

- أين؟

- في الأمازون..

- الأمازون! – هتف أليكس مذعوراً – لقد رأيت فيلماً وثائقياً عن الأمازون، إنه مكان يغصّ بالبعوض والتماسيح وقطاع الطرق. توجد هناك كل أنواع الأمراض، بما فيها الجذام!

- أعتقد أن أمي تعرف ما الذي تفعله، وهي لن تأخذك إلى مكان تعرض فيه حياتك للخطر يا ألكسندر

فغمغم الصبي متذمراً:

- لن تتورع كاتي عن دفعي إلى نهر يغصّ بسمك " الضاري " يا أبي. فمع جدتي لن أكون بحاجة إلى مزيد من الأعداء

- آسف، ولكن عليك الذهاب في كل الأحوال يا بني.

- وماذا عن المدرسة؟ إننا في فترة الامتحانات. كما أنه لا يمكنني أن أغادر فرقة الأوركسترا بين عشية وضحاها..

- يجب على المرء أن يكون مرناً يا أليكس. أسرتنا تمر في أزمة عصيبة. أتعرف كيف هي الرموز الصينية لكتابة كلمة أزمة؟ إنها مؤلفة من رمزين: خطورة + فرصة. ربما ستوفر لك خطورة مرض ليزا فرصة استثنائية. اذهب الآن لإعداد أمتعتك.

- وماذا سأعد؟ لم يعد لدي شيء كثير – تلعثم أليكس وهو ما يزال غاضباً من أبيه.

- عليك أن تأخذ أشياء قليلة إذن. والآن اذهب لتقبيل أمك، لأنها متأثرة جداً لما حدث. فالأمر أشد وطأة بكثير على ليزا مما هو على أي واحد يا ألكسندر. علينا أن نكون أقوياء، مثلما هي قوية – قال جون كولد ذلك بأسى.

إلى ما قبل حوالي شهرين، كان أليكس يعيش سعيداً، لم يراوده قط أي فضول لاستكشاف ما هو أبعد من حدود حياته الآمنة: وكان يظن بأن كل شيء سيكون على ما يرام إذا هو لم يرتكب أية حماقات. كانت لديه خطط بسيطة من أجل المستقبل، فهو يفكر في أن يصير موسيقياً مشهوراً، مثل جده جوزيف كولد، وأن يتزوج من سيسيليا بارنس، إذا ما وافقت هي على الزواج منه، وأن ينجب ابنين ويعيش قريباً من الجبال. كان راضياً عن حياته، فهو جيد كتلميذ وكرياضي وإن لم يكن ممتازاً، وكان ودوداً لا يتورط في مشاكل خطرة. يعتبر نفسه شخصاً عادياً، على الأقل بالمقارنة مع ذوي الطبيعة الشريرة الذين هم في هذه الدنيا، مثل أولئك الصبية الذين اقتحموا بالرشاشات مدرسة في كولورادو وقتلوا زملاءهم.

ولم تكن هناك حاجة للذهاب بعيداً، ففي مدرسته نفسها يوجد بعض الأولاد المنفرين. لا، هو لم يكن من هؤلاء والشيء الوحيد الذي يتمناه هو العودة إلى حياته التي كان عليها قبل بضعة شهور، عندما كانت أمه سليمة. وهو لا يريد الذهاب إلى الأمازون مع كاتي كولد. فهذه الجدة تبعث فيه شيئاً من الخوف.

بعد يومين من ذلك ودّع أليكس المكان الذي أمضى فيه سنوات حياته الخمس عشرة. حمل معه صورة أمه وهي تقف عند باب البيت، وتضع قبعة تغطي رأسها الحليقة، مبتسمة وقائلة له وداعاً بيدها. بينما الدموع تسيل على خديها. كانت تبدو ضئيلة، حساسة وجميلة على الرغم من كل شيء. صعد الصبي إلى الطائرة مفكراً فيها وباحتمال فقدانها المرعب. لا! لا يمكنني أن أضع نفسي في هذا الموقف، يجب أن أفكر تفكيراً إيجابياً، فأمي سوف تشفى، دمدم بهذه الكلمات مرة بعد أخرى خلال الرحلة الطويلة.

-2-

الجدة غريبة الأطوار

وجد أليكس كولد نفسه في مطار نيويورك، وسط حشود أناس متعجلين يمرون إلى جانبه وهم يجرون حقائب وحزم أمتعة، يتدافعون، يتصادمون. يبدون أشبه ببشر آليين، نصفهم يحملون هواتف خيلوية ملتصقة بآذانهم، ويتكلمون إلى الهواء كمعتوهين. كان وحيداً، يحمل حقيبة على ظهره، وفي يده ورقة نقدية مجعدة. وكانت لديه ثلاث أوراق نقدية أخرى مطوية ومخبأة في جزمته. فقد نصحه أبوه بالحذر، لأن الأمور في هذه المدينة الضخمة ليست كما هي في القرية التي يعيشون فيها على الساحل الكاليفورني، حيث لا يحدث شيء مطلقاً. لقد ترعرع أبناء كولد الثلاثة وهم يلعبون في الشارع مع أطفال آخرين، فكانوا يعرفون الجميع ويدخلون بيوت الجيران مثلما يدخلون بيتهم.

لقد سافر الصبي طوال ست ساعات، مجتازاً القارة من جهة إلى أخرى، جالساً إلى جوار رجل بدين متعرق، يطفح شحمه من مقعده، فيختزل مكان الصبي إلى النصف. وفي كل لحظة كان الرجل ينحني بصعوبة، فيمد يده إلى كيس مؤن ويأخذ بمضغ نوع من الحلوى، دون أن يتيح للفتى إمكانية النوم أو مشاهدة الفيلم بسلام. بقي أليكس متعباً، يعد الساعات المتبقية لانتهاء ذلك العذاب، إلى أن حطت الطائرة أخيراً واستطاع أن يمد ساقيه. نزل من الطائرة وهو يشعر بالراحة، باحثاً بنظره عن جدته، ولكنه لم يجدها عند الباب، مثلما كان ينتظر.

و بعد مرور ساعة من الوقت، لم تكن كاتي كولد قد جاءت بعد، فبدأ أليكس يشعر بقلق جدي. طلب النداء عليها بمكبرات الصوت مرتين، دون أن يحصل على جواب، وصار عليه الآن أن يستبدل الورقة

النقدية التي معه بقطع نقدية معدنية ليستخدمها في الهاتف. هنأ نفسه على ذاكرته الجيدة: يمكنه تذكر الرقم دون تردد، تماماً مثلما يتذكر عنوانها دون أن يكون قد جاء إليها قط من قبل، وإنما من البطاقات التي تكتبها إليه بين حين وآخر. رن جرس هاتف جدته دون طائل، بينما هو يبذل جهداً ذهنياً لكي يرفع أحد السماعة. ماذا سأفعل الآن؟ دمدم بحيرة. خطر له أن يقوم باتصال خارجي مع أبيه ليطلب منه النصح، ولكن يمكن لهذا الاتصال أن يكلفه كل ما لديه من نقود. كما أنه لم يشأ، من جهة أخرى، أن يتصرف كطفل. فما الذي يمكن لأبيه أن يفعله وهو بعيد عنه جداً؟ وقرر لا، لا يمكنه أن يفقد رشده لمجرد أن جدته قد تأخرت قليلاً، ربما هي عالقة في حركة السير، أو أنها تلف وتدور في المطار بحثاً عنه، وربما تواجها عرضاً دون أن يرى أحدهما الآخر.

مرت نصف ساعة أخرى، وبدأ يحس عندئذ بحقد شديد على كاتي كولد التي سيشتمها بكل تأكيد إذا ما ظهرت أمامه. تذكر الدعابات الثقيلة التي كانت تمارسها معه طوال سنوات، مثل علبة الشوكولاته المحشوة بصلصة الفلفل الحار التي أرسلتها إليه في عيد ميلاده. لا وجود لجدة طبيعية مستعدة لأن تسحب محتويات السكاكر بحقنة، لتستبدلها بفلفل مكسيكي، وتلف قطع الشوكولاته بعد ذلك بورق مفضض، ثم تعيد ترتيبها في العلبة، لمجرد أن تسخر من أحفادها.

وقد تذكر كذلك حكايات الرعب التي كانت تخيفهم بها عندما تأتي لزيارتهم، وكيف كانت تصر على إطفاء النور وهي تروي تلك الحكايات. صحيح أنه لم يعد لتلك الحكايات تأثير كبير الآن، ولكنها كانت تميتهم رعباً في الطفولة. وما زالت أختاه تتعرضان لكوابيس مصاصي الدماء الهاربين من قبورهم الذين كانت تلك الجدة الشريرة تتحدث عنهم في الظلام. ومع ذلك، لا يمكنه أن ينكر أنهم كانوا يحبون تلك القصص المخيفة. ولم يكونوا يملون كذلك من سماعها تروي لهم قصص المخاطر، الحقيقية أو المتخيلة، التي تواجهها في رحلاتها عبر العالم. والقصة المفضلة لديهم هي مواجهتها لثعبان ضخم طوله ثمانية أمتار في ماليزيا، ابتلع آلة تصويرها الفوتوغرافية. فكان أليكس يعلق كلما سمع هذه الحكاية: " لسوء الحظ أنه لم يبتلعك أنت يا جدتي "، ولكن ذلك لم يكن يغضبها. هذه المرأة نفسها هي التي علمته السباحة في أقل من خمس دقائق، بدفعه

إلى مسبح عندما كان في الرابعة من عمره. وقد خرج سابحاً من الجهة الأخرى بقدرة اليأس وحدها، إنما كان يمكن له أن يغرق. وقد كانت ليزا كولد محقة وهي تفقد أعصابها كلما حضرت حماتها لزيارتهم: إذ عليها أن تضاعف احتراسها من أجل الحفاظ على سلامة صغارها.

بعد ساعة ونصف من الانتظار في المطار، لم يعد أليكس يعرف ما عليه أن يفعله. تصور كم ستبتهج كاتي كولد لرؤيته مغموماً إلى ذلك الحد، وقرر ألا يمنحها هذه المتعة، عليه أن يتصرف كرجل. ارتدى سترته، وأحكم وضع حقيبة الظهر على كتفيه وخرج إلى الشارع. التناقض بين التدفئة والصخب والضوء الأبيض المنتشر في داخل المبنى، والبرد والصمت وظلام الليل في الخارج، أوشك أن يعيده على أعقابه. لم تكن لديه فكرة عن كون شتاء نيويورك مزعجاً إلى ذلك الحد. لقد كانت هناك رائحة بنزين، وثلج متسخ على الرصيف، وهبات هواء جليدية تصفع الوجه كأنها الإبر. انتبه إلى أنه وسط تأثره لفراق أهله، نسي قفازيه وطاقيته التي لم تتح له قط فرصة استخدامها في كاليفورنيا، وبقي يحتفظ بها في صندوق في الكراج، مع بقية أدوات التزلج التي لديه. أحس بالجرح في يده اليسرى ينبض، ولم يكن قد أزعجه حتى تلك اللحظة، وقدر أنه لا بد من استبدال الضماد فور وصوله إلى بيت جدته. لم يكن يعرف مدى بعد البيت عن المطار، ولا كم سيكلفه المشوار في سيارة أجرة. كان بحاجة إلى خريطة للمدينة، ولكنه لم يعرف من أين يمكنه الحصول عليها. وهكذا مشى باتجاه موقف الحافلات، بأذنيه المتجمدتين ويديه المدسوستين في جيبه.

- مرحباً، هل أنت وحيد؟ - قالت له ذلك فتاة دنت منه.

كانت الفتاة تحمل حقيبة من قماش الخيم على كتفها، وتعتمر قبعة غاطسة في رأسها حتى حاجبيها، بينما كانت أظفارها مطلية بالأزرق، وتخترق أنفها حلقة فضية. بقي أليكس يتأملها مشدوهاً، لقد كانت جميلة مثل سيسليا بارنس، حبه السري، بالرغم من بنطالها الممزق، وجزمتها العسكرية ومظهرها الأقرب إلى الوساخة والجوع. والشيء الوحيد الذي كانت تتقي به البرد هو سترة قصيرة من جلد اصطناعي برتقالية اللون، لا تكاد تغطي خصرها. ولم تكن ترتدي قفازات. تلعثم أليكس بجواب مبهم. كان أبوه قد حذره من التكلم مع غرباء، ولكن لا يمكن لهذه الفتاة أن تمثل أي خطر، فهي تكاد لا تكبره بأكثر من سنتين، وهي

شديدة النحول وقصيرة القامة مثل أمه تقريباً. والحقيقة أن أليكس شعر بالقوة وهو إلى جانبها.

- إلى أين أنت ذاهب؟ - ألحت المجهولة وهي تشعل سيجارة.

- إلى بيت جدتي، إنها تعيش في الشارع الرابع عشر عند تقاطعه مع الجادة الثانية. أتعرفين كيف يمكنني الوصول إلى هناك؟ - استفهم أليكس.

- بالطبع، أنا ذاهبة إلى تلك الناحية بالذات. يمكننا الذهاب في الحافلة -ثم عرفت الفتاة بنفسها: - اسمي مرجانة.

فعلق أليكس:

- لم أسمع هذا الاسم من قبل قط.

- أنا اخترته بنفسي. فأمي البلهاء أطلقت علي اسماً تافهاً مثلها. وأنت، ما اسمك؟ - سألته وهي تطلق الدخان من منخريها.

فرد عليها وهو يشعر بشيء من الاستهجان لسماعها تتكلم بتلك الألفاظ عن أسرتها.

- ألكسندر كولد. ويدعونني أليكس.

انتظرا في الشارع، وظلا يضربان الثلج بأرجلهما ليدفئا أقدامهما، خلال ما يقرب من عشر دقائق، وقد استغلت مرجانة ذلك الوقت لتقدم له موجزاً ملخصاً عن حياتها: منذ سنوات لم تعد تذهب إلى المدرسة – لأنها مكان للحمقى – وقد هربت من بيتها لأنها لم تعد تتحمل زوج أمها، وهو خنزير مقرف.

- سوف أنضم إلى فرقة روك، هذا هو حلمي – أضافت – الشيء الوحيد الذي أحتاج إليه هو جيتار. وما هي هذه العلبة التي تعلقها بحقيبة ظهرك؟

- إنه ناي.

- أهو كهربائي؟

و رد أليكس ساخراً:

- لا، إنه يعمل ببطاريات.

في الوقت الذي بدأت أذناه تتحولان فيه إلى قطعتي جليد بالضبط، ظهرت الحافلة، وصعد كلاهما إليها. دفع الصبي ثمن تذكرته وتلقى بقية النقود، بينما كانت مرجانة تبحث في أحد جيوب سترتها البرتقالية، ثم في

جيب آخر.

- محفظتي! أظن أنها سرقت... - تلعثمت.

فأمرها السائق :

- آسف يا صغيرتي. ولكن عليك النزول.

- ليس ذنبي أنهم سرقوني! - قالت بما يشبه الصراخ، أمام حيرة أليكس الذي يخشى إلى حد الرعب لفت الأنظار إليه.

وأجابها السائق بجفاء :

- وهو ليس ذنبي أيضاً. اذهبي إلى الشرطة.

فتحت الفتاة حقيبتها التي من قماش الخيم وأفرغت كل محتوياتها في ممر الحافلة: ملابس، مستحضرات تجميل، بطاطا مقلية، عدة علب وصناديق مختلفة الأحجام، وحذاء بكعب عال يبدو أنه لشخص آخر، لأنه من الصعب تخيلها تنتعله. فتشت كل قطعة ملابس ببطء مدهش، مقلبة الثياب، وفاتحة كل علبة وكل لفافة، وهي تهز الملابس الداخلية وتنفضها على مرأى من الجميع. حرف أليكس بصره، وكان شعوره بالارتباك يتزايد. لم يرغب في أن يظن الناس أنه يمضي برفقة هذه البنت.

- لا يمكنني الانتظار طوال الليل يا صغيرة. عليك أن تنزلي - كرر السائق، وقالها هذه المرة بنبرة متوعدة.

تجاهلته مرجانة. وكانت في أثناء ذلك قد خلعت سترتها البرتقالية القصيرة وراحت تفتش بطانتها، بينما بدأ ركاب الحافلة الآخرون يحتجون على التأخر في الانطلاق.

- أقرضني بعض المال! – قالت متوجهة بطلبها أخيراً إلى أليكس.

أحس الفتى بذوبان تجمد أذنيه، وتوقع أنهما بدأتا تصطبغان بالحمرة مثلما يحدث له في لحظات الخجل القصوى. لقد كانتا عذابه: فهاتان الأذنان تخوناه على الدوام، ولا سيما حين يجد نفسه أمام سيسيليا بارنس البنت التي أغرم بها منذ روضة الأطفال دون أن يكون هناك أدنى أمل في أن يلقى الاستجابة منها. كان أليكس قد توصل إلى أنه ليس هناك من سبب يجعل سيسيليا تلتفت إليه، طالما بإمكانها الاختيار بين أفضل الرياضيين في المدرسة. ولم يكن هو يتميز بأي شيء خاص، فموهبتاه الوحيدتان هما تسلق الجبال وعزف الناي، ولا يمكن لفتاة لديها قليل من العقل أن تهتم بالجبال والنايات. كان محكوماً عليه بأن يحبها بصمت طوال ما تبقى من

حياته، اللهم إلا إذا حدث معجزة.

- أقرضني ثمن التذكرة - كررت مرجانة.

لو أنه في ظروف مختلفة، لما اهتم لتبديد نقوده، ولكنه في هذه اللحظة في وضع لا يسمح له بإظهار السخاء والتصرف بكرم. ومع ذلك، فقد رأى، من جهة أخرى، أنه لا يمكن لأي رجل أن يتخلى عن امرأة في مثل هذا الظرف. إن لديه ما يكفي بالضبط لمساعدتها دون أن يضطر إلى إخراج الأوراق النقدية المطوية والمخبأة في حذائه. دفع ثمن التذكرة الثانية. أرسلت له مرجانة قبلة ساخرة برؤوس أصابعها، وأخرجت لسانها للسائق الذي كان ينظر إليها بسخط، ثم جمعت أشياءها بسرعة ولحقت بأليكس إلى آخر صف مقاعد في الحافلة، حيث جلسا متجاورين.

- لقد أنقذتني. عندما أحصل على نقود سأعيد إليك الدين فوراً.

لم يجب أليكس. فقد كان لديه مبدأ: إذا ما أقرضت نقوداً لشخص ولم تعد لرؤيته، فإنها نقود قد أنفقت على أحسن وجه. كانت مرجانة تثير فيه إحساساً مختلطاً من الافتتان والاستنكار، فهي مختلفة تماماً عن أي واحدة من فتيات قريته، بمن فيهن أكثرهن جرأة. ولكي يتجنب النظر إليها وهو فاغر الفم، مثل أبله، بقي طوال مقطع كبير من الرحلة الطويلة صامتاً، ونظره مثبت على زجاج النافذة القاتم، حيث كان ينعكس وجه مرجانة، وكذلك وجهه النحيل بنظارته ذات العدستين المدورتين، و شعره الأسود، مثل شعر أمه. متى سيتمكن من حلاقة ذقنه؟ إنه لم يكبر مثل العديد من أصدقائه، فهو ما يزال صبياً أمرد، وأحد أقصر الصبية في فصله. حتى سيسيليا بارنس كانت أطول منه قامة. امتيازه الوحيد الذي يميزه عن مراهقين آخرين في مدرسته هو سلامة بشرته، لأنه ما إن تبدأ أي حبة طفح بالظهور في وجهه حتى يسارع أبوه إلى حقنه بالكورتيزون. كانت أمه تؤكد له بأنه عليه ألا يقلق، فبعض الصبية تطول قامتهم باكراً وبعضهم يتأخرون، وجميع رجال آل كولد طوال القامة، ولكنه كان يعرف أن للوراثة الجينية نزواتها وأنه قد يخرج مثل أسرة أمه. فقد كانت ليزا كولد قصيرة القامة كامرأة، ولدى رؤيتها من الخلف، تبدو وكأنها صبية في الرابعة عشرة، ولا سيما بعد أن اختزلها الداء إلى هيكل عظمي. حين فكر فيها أحس بانقباض في صدره وبانحباس الهواء عنه، كما لو كانت قبضة عملاقة تمسك بخناقه.

كانت مرجانة قد خلعت سترة الجلد البرتقالية. وتبين أنها ترتدي تحتها بلوزة قصيرة ذات تخريمات سوداء تكشف عن بطنها، وتضع حول عنقها طوقاً من الجلد فيه قطع معدنية، مثل طوق كلب ضار.

قالت له:

- إنني أتحرق لهفة لتدخين سيجارة.

فأشار أليكس إلى الإعلان الذي يمنع التدخين في الحافلة. ألقت هي نظرة على ما حولها. لم يكن هناك من يوليهما اهتمامه، وكانت عدة مقاعد حولهما خاوية، كما أن الركاب الآخرين كانوا يقرؤون أو يتناومون. عندما تأكدت من أنه ليس هناك من ينتبه إليهما، دست يدها في بلوزتها وأخرجت من صدرها كيساً صغيراً متسخاً. ثم وكزت أليكس بمرفقها وهي تهز الجراب الصغير أمام أنفه، وهمست:

- حشيش.

هز ألكسندر كولد رأسه رافضاً. لم يكن يعتبر نفسه متزمتاً بأي حال، فقد جرب الماريجوانا والكحول في بعض المرات، مثل جميع رفاقه في المدرسة الثانوية تقريباً، ولكنه لم يتوصل إلى فهم جاذبية تلك الأشياء، باستثناء كونها ممنوعة. لم يكن يروقه أن يفقد السيطرة على نفسه. فقد اكتسب في أثناء تسلقه الجبال، حب السيطرة على جسده وذهنه. كان يعود من تلك الرحلات مع أبيه مستنفد القوى، موجوعاً وجائعاً إنما سعيداً تماماً، ومفعماً بالنشاط، وفخوراً بأنه تمكن مرة أخرى من التغلب على مخاوفه وعلى عوائق الجبل. كان يشعر بأنه مكهرب، وقوي، وعصي على الهزيمة تقريباً. وفي هذه المناسبات كان أبوه يربت بمودة على ظهره، كمكافأة على إقدامه، ولكن دون أن يقول شيئاً كي لا يغذي زهوه. لم يكن جون كولد محباً للمجاملات، ولم يكن سهلاً الحصول على كلمة إطراء منه، ولكن ابنه لم يكن ينتظر سماع تلك الكلمات، وإنما يكتفي بتربيته تربية رجولية.

وتعلم أليكس، محاكياً أباه، القيام بواجباته على أفضل وجه ممكن، دون أي تبجح، ولكنه كان يتباهى سراً بثلاث فضائل يعتبرها من صفاته: الإقدام في تسلق الجبال، والموهبة في عزف الناي، ووضوح الذهن في التفكير. أما الاعتراف بعيوبه فكان أصعب بكثير، على الرغم من ملاحظته وجود عيبين على الأقل يتوجب عليه أن يحاول التخلص منهما،

مثلما لفتت أمه انتباهه في أكثر من مناسبة: ارتيابيته التي تدفعه إلى التشكك بكل شيء تقريباً، وسوء طبعه الذي يجعله ينفجر غضباً في وقت لا يخطر على البال. وهذا أمر جديد، لأنه كان يتمتع بالثقة إلى ما قبل شهور ويمضي دائماً بمزاج رائق. أمه تؤكد أنها من أمور السن التي يمر فيها وأنها ستختفي، أما هو فلم يكن متأكداً من ذلك مثلها. وعلى كل حال، لم يجتذبه عرض مرجانة. ففي المرات التي جرب فيها المخدرات، لم يشعر بأنه يطير إلى الفردوس، مثلما يدعي بعض أصدقائه، وإنما أحس بامتلاء رأسه بالدخان، وبأن ساقيه تتراخيان كالصوف. لم يكن هناك محرض في نظره أكبر من التعلق بحبل في الهواء على ارتفاع مئة متر، وهو يعرف تماماً ما هي الخطوة التالية التي عليه أن يخطوها. لا، المخدرات ليست له. ولا السجائر أيضاً، لأنه بحاجة إلى رئتين سليمتين من أجل تسلق الجبال وعزف الناي. ولم يستطع كبح ابتسامة عابرة حين تذكر الأسلوب الذي اتبعته جدته كاتي لتنتزع منه إغواء التدخين من جذوره. كان عمره آنذاك إحدى عشرة سنة، وبالرغم من أن أبيه كان قد قدم إليه موعظته حول سرطان الرئة ونتائج النيكوتين الأخرى، فقد اعتاد أن يدخن خلسة مع أصدقائه وراء صالة الرياضة. جاءت كاتي كولد لتقضي معهم فترة أعياد الميلاد، وسرعان ما تمكنت بأنفها الكلبي من اكتشاف الرائحة، على الرغم من لبان المضغ والعطر اللذين كان يحاول إخفاء الرائحة بهما.

- أتدخن وأنت في هذه السن يا ألكسندر؟ - سألته بمزاج مرح. فحاول هو الإنكار، ولكنها لم تتح له الوقت لذلك، بل قالت: تعال معي، سنقوم بنزهة معاً.

صعد الصبي إلى السيارة، وضع حزام الأمان مشدوداً جيداً وتمتم بين أسنانه بتعويذة تجلب الحظ الطيب، لأن جدته كانت إرهابية وهي وراء المقود. فبحجة أنه ليس هناك من يملك سيارة في نيويورك، كانت تقود السيارة وكأن هناك من يطاردها. اقتادته وسط اهتزازات وفرامل مفاجئة إلى سوبرماركت، فاشترت أربعة سيجارات تبغ أسود كبيرة، ثم أخذته إلى شارع هادئ، وأوقفت السيارة بعيداً عن النظرات المتطفلة، وبادرت إلى إشعال سيجار لكل واحد منهما. دخنا ودخنا بينما أبواب السيارة ونوافذها مغلقة، إلى أن صار الدخان يمنعهما من الرؤية عبر زجاج النوافذ. أحس أليكس برأسه يدور ومعدته تعلو وتهبط. وسرعان ما لم يعد قادراً على

المزيد، ففتح الباب وانهار مثل كيس في الشارع، مريضاً حتى الروح. انتظرت جدته باسمة إلى أن انتهى من التقيؤ وإفراغ ما في معدته دون أن تتقدم لتسند جبهته أو لمواساته، مثلما كانت ستفعل أمه، ثم أشعلت سيجاراً آخر وقدمته إليه.

- هيا يا ألكسندر، أثبت لي أنك رجل ودخن واحداً آخر – قالت له متحدية، بأقصى ما تستطيع من سخرية.

اضطر الصبي إلى البقاء في الفراش طوال اليومين التاليين، أخضر مثل حرذون ومقتنعاً بأن الغثيان وألم الرأس سيقتلانه. ظن أبوه أنه قد أصيب بفيروس ما، وارتابت أمه على الفور بحماتها، ولكنها لم تتجرأ على اتهامها مباشرة بتسميم حفيدها. ومنذ ذلك الحين صارت عادة التدخين، الشائعة بين رفاقه، تسبب لأليكس غثياناً وتقلباً في أحشائه.

- هذا الحشيش من أفضل الأنواع – ألحت مرجانة وهي تعرض عليه محتويات الجراب، ثم أضافت وهي تخرج قرصي دواء أبيضين وتعرضهما في راحة يدها: - ولدي هذا أيضاً إذا كنت تفضله.

أعاد أليكس تثبيت بصره على نافذة الحافلة، دون أن يرد. كان يعرف من تجربته أنه من الأفضل الصمت أو تغيير الموضوع. فأي كلام يقوله سيكون له وقع بليد وستظن الفتاة أنه مجرد طفل مخاطي لديه أفكار دينية متزمتة. هزت مرجانة كتفيها وخبأت كنزها بانتظار فرصة أكثر ملاءمة وفي أثناء ذلك كانوا على وشك الوصول إلى محطة الحافلات، في مركز المدينة، حيث عليهم النزول.

لم تكن حركة المرور قد خفت في تلك الساعة بعد، ولا حركة الناس في الشوارع، وبالرغم من أن المكاتب والمتاجر قد أُغلقت، إلا أنه كانت هناك بارات ومسارح وكافيتريات ومطاعم مفتوحة. مرّ أليكس بأناس يسيرون مسرعين، لم يميز ملامح وجوههم، وإنما هيئتهم العامة المنحنية والمتدثرة بمعاطف قاتمة. رأى حزماً مطروحة على الأرض إلى جانب شبكات معدنية على الرصيف، تخرج منها أعمدة البخار. فأدرك أنهم متشردون ينامون متكورين على أنفسهم إلى جوار فتحات أجهزة تدفئة العمارات، وهي مصدر الدفء الوحيد لهم في تلك الليلة الشتائية.

كانت أضواء النيون القاسية ومصابيح السيارات تضفي على الشوارع المبللة والقذرة مظهراً غير واقعي. رأى عند النواصي جبالاً من الأكياس

السوداء، بعضها ممزق تتناثر منه القمامة. وكانت هناك امرأة ترتدي معطفاً مهترئاً وتنبش الأكياس بعود، بينما هي تردد ترتيلة أبدية بلغة مخترعة. واضطر أليكس إلى القفز جانباً ليتفادى جرذاً ذيله معضوض ونازف، يقف في منتصف الرصيف دون أن يتحرك من مكانه لدى مرورهما. كانت ضجة حركة المرور، وصفارات سيارات الشرطة، ونعيب سيارات الإسعاف أحياناً تقطع الهواء. مرّ شاب طويل القامة جداً، ذو مشية متخلعة، وهو يصرخ بأن العالم سينتهي ووضع في يد أليكس ورقة مجعدة، تبدو فيها صورة امرأة شقراء ذات شفتين ممتلئتين وشبه عارية، تعرض إجراء مساجات. وصدمه شخص يمضي على زلاجة بعجلات، يضع سماعات على أذنيه، دافعاً إياه ليصطدم بالجدار، فصرخ بالمعتدي: " انظر أين تمضي أيها الأحمق "

أحس ألكسندر بأن جرح يده أخذ ينبض من جديد. وفكر في أنه يمضي غارقاً في كابوس خيال علمي، في مدينة ضخمة رهيبة من الإسمنت والفولاذ والزجاج والتلوث والوحدة. داهمته موجة حنين إلى ذلك المكان المجاور للبحر الذي كثيراً ما فكر في الهرب منه، وبدا له الآن رائعاً. قاطعت مرجانة أفكاره الكئيبة مقترحة:

- إنني أموت جوعاً. ألا يمكننا أن نأكل شيئاً؟

فاعتذر:

- لقد تأخر الوقت، ويجب أن أصل إلى حيث جدتي.

وألحت هي:

- اطمئن يا رجل، سأوصلك إلى حيث جدتك. إننا قريبان، ولكن من المناسب أن نلقي شيئاً في بطننا.

ودون أن تتيح له الوقت للرفض، سحبته من ذراعه إلى داخل محل صاخب تفوح فيه رائحة البيرة والقهوة الزنخة والمقالي. كان هناك، وراء كونتوار طويل من الفورميكا، عاملان آسيويان يقدمان أطباقاً دسمة بالدهون. جلست مرجانة على مقعد بلا مسند قبالة الكونتوار وبادرت إلى تفحص قائمة الأطعمة المكتوبة بالطباشير على الجدار. أدرك أليكس أنه سيكون عليه أن يدفع ثمن الطعام، فتوجه إلى دورة المياه ليُخرج الأوراق النقدية المخبأة في حذائه.

كانت جدران دورة المياه مغطاة بكلمات ورسوم بذيئة، وكانت هناك

على الأرض أوراق مجعدة، وبرك ماء ينز من الأنابيب الصدئة. دخل إحدى المقصورات الضيقة وأغلق الباب بالمزلاج. وضع حقيبة الظهر على الأرض، وكان عليه، بالرغم من قرفه، أن يجلس على كرسي المرحاض لكي يتمكن من خلع جزمته، وهي مهمة ليست سهلة في ذلك الحيز الضيق وبيده المضمدة. فكر في الجراثيم والأمراض الكثيرة التي يمكن للمراحيض العامة أن تنقلها، كما يقول أبوه. عليه أن يحافظ على رأسماله الصغير والمحدود.

عدّ النقود وهو يطلق زفرة؛ لن يأكل شيئاً، ويأمل أن تكتفي مرجانة بطبق رخيص، فهي لا تبدو ممن يأكلون كثيراً. فطالما أنه لم يصل شقة كاتي كولد ويشعر أنه صار بأمان، فإن هذه الأوراق النقدية الثلاث المطوية بحرص هي كل ما يملكه في هذا العالم؛ إنها تمثل الفرق بين النجاة والموت من الجوع والبرد في الشارع، مثل المتسولين الذين رآهم قبل لحظات. فإذا لم يتمكن من الوصول إلى عنوان جدته، يبقى بإمكانه العودة إلى المطار وقضاء الليل في أحد الأركان ليقفل راجعاً إلى بيته في اليوم التالي، ولهذا لديه تذكرة العودة. انتعل جزمته من جديد، وخبأ النقود في أحد جيوب حقيبة الظهر وخرج من المرحاض. لم يكن هناك أحد في دورة المياه. ولدى مروره قبالة المغاسل، وضع الحقيبة على الأرض، وأعاد إحكام ضماد يده اليسرى، ثم غسل يده اليمنى بالصابون بعناية، وألقى كثيراً من الماء على وجهه لكي يتخلص من التعب، ثم جففه بالورق. وعندما انحنى ليحمل الحقيبة انتبه، مذعوراً، إلى أنها اختفت.

خرج مندفعاً من دورة المياه وقلبه يخفق بشدة. لقد حدثت السرقة خلال أقل من دقيقة، لا يمكن للص أن يكون قد ابتعد، وبإمكانه إذا ما أسرع أن يدركه قبل أن يضيع بين الحشود في الشارع. كان كل شيء في المحل على حاله، العاملان المتعرقان نفسهما وراء الكونتوار، والزبائن غير المبالين، والطعام الدسم والمزيت نفسه، وصخب الأطباق، وموسيقى الروك المدوية نفسها. لم يلحظ أحد اضطرابه، ولم يلتفت أحد للنظر إليه عندما صرخ بأنه قد سُرق. الفرق الوحيد هو أن مرجانة لم تكن تجلس قبالة الكونتوار، حيث تركها. ولم يكن هناك من أثر لها.

حدس أليكس في لحظة واحدة من هي التي تبعته خلسة، ومن هي التي انتظرت في الجانب الآخر من باب المرحاض مقدرة الفرصة المناسبة، ومن

التي حملت حقيبته بين إغماضة عين وفتحها. صفع جبهته براحة يده. كيف أمكن له أن يكون ساذجاً إلى ذلك الحد! لقد خدعته مرجانة كطفل وسلبت منه كل ما يملكه باستثناء ملابسه التي يرتديها. لقد فقد نقوده وتذكرة العودة بالطائرة وحتى نايه الثمين. الشيء الوحيد الذي تبقى لديه هو جواز سفره، الذي يحمله مصادفة في جيب سترته. وكان عليه أنّ يبذل جهداً هائلاً لكي يكبح رغبته في الانفجار بالبكاء كطفل صغير.

- 3 -

" رجل الثلج " الغابيّ

"من له فم يستطيع الوصول إلى روما "، كانت هذه واحدة من مسلمات كاتي كولد البديهية. فعملها يضطرها إلى السفر إلى أماكن نائية، وقد وضعت بكل تأكيد، هذا القول موضع الممارسة مرات كثيرة. أما أليكس فكان بطبعه أقرب إلى الخجل، لا يجد سهولة في إيقاف شخص مجهول ليستفسر منه عن شيء ما، ولكن لم يكن أمامه من حل آخر. فما أن تمكن من استعادة هدوئه وقدرته على الكلام، حتى اقترب من رجل يُعمل أسنانه في شطيرة همبرغر وسأله كيف يمكنه الوصول إلى الشارع الرابع عشر عند تقاطعه مع الجادة الثانية. هزّ الرجل كتفيه ولم يرد عليه. اصطبغ وجه الصبي بالحمرة لإحساسه بأنه قد أهين. تردد للحظات ثم توجه أخيراً إلى أحد العاملين في المحل الواقفين وراء منضدة الكونتوار. فأشار الرجل بسكين في يده إلى اتجاه غامض وقدم له بعض الإرشادات بصوت صارخ يعلو على ضجة المطعم، بلكنة مغلقة، لم يفهم منها كلمة واحدة. فقرر عندئذ أن الأمر المنطقي هو السؤال عن موقع الجادة الثانية، ثم البدء من هناك بعدّ الشوارع المتقاطعة معها، وهذا سهل جداً؛ ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة عندما عرف أنه يقف في الشارع الثاني والأربعين عند تقاطعه مع الجادة الثامنة، وقدّر كم عليه أن يمشي في ذلك البرد الجليدي. أثلج صدره تمرنه على تسلق الجبال: فإذا كان قادراً على قضاء ست ساعات في التسلق مثل ذبابة على الصخور، فإنه لن يعجز عن اجتياز بضعة شوارع في أرض منبسطة. أحكم سحّاب سترته، وخبأ رأسه بين كتفيه، ووضع يديه في جيبيه، وانطلق في المسير.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وبدأ الثلج بالهطول عندما وصل الصبي إلى بيت جدته. بدا له الحي هرماً، قذراً وقبيحاً، لم تكن هناك شجرة واحدة في أي مكان، ولم يعد يرى بشراً منذ وقت لا بأس به. وفكر

في أنه لا يمكن إلا لشخص يائس مثله أن يمشي في مثل هذا الوقت في شوارع نيويورك الخطرة، ولم ينقذه من الوقوع ضحية عملية سطو سوى أنه لم يكن هناك لص لديه ما يكفي من الحماس للخروج إلى الشارع في مثل ذلك الجو البارد. كان المبنى برجاً رمادياً وسط أبراج كثيرة أخرى مشابهة، تحيط به أسيجة أمنية. قرع الجرس، وعلى الفور سأله صوت كاتي كولد الأجش والفظ عمن يتجرأ على الإزعاج في مثل هذه الساعة من الليل. حدس أليكس بأنها كانت تنتظره، بالرغم من أنها لن تعترف بذلك مطلقاً بالطبع. كان متجمداً حتى العظام، ولم يشعر بأي يوم من حياته قط بمثل تلك الرغبة في إلقاء نفسه بين ذراعي أحدهم، ولكن عندما فُتح أخيراً باب الدخول إلى الشقة في الطابق الحادي عشر ووجد نفسه أمام جدته، كان قد صمم على عدم السماح لها بأن تراه ضعيفاً.

- مرحباً يا جدتي - حياها بأوضح ما استطاع، لأن أسنانه كانت تصطك بقوة.

فأنبته:

- قلت لك ألا تدعوني جدة!

- مرحباً كاتي.

- لقد تأخرت كثيراً في الوصول يا ألكسندر.

فرد باذلاً جهده كي لا تطفر الدموع من عينيه :

- ألم نتفق على أنك ستذهبين لاستقبالي في المطار؟

- لم نتفق على أي شيء. إذا لم تكن قادراً على المجيء من المطار إلى بيتي، فلن يكون بمقدورك الذهاب معي إلى الأدغال – قالت كاتي كولد ذلك ثم أضافت: - اخلع سترتك وجزمتك، سأقدم لك فنجاناً من الشوكولاته وأعد لك حماماً ساخناً، ولكن عليك أن تعي أنني إنما أفعل هذا لتفادي إصابتك بنزلة صدرية. عليك أن تكون سليماً من أجل الرحلة. ولا تنتظر مني أن أدللك في المستقبل، مفهوم؟

- لم أنتظر منك التدليل قط – ردّ أليكس

- ما الذي حدث ليدك؟ - سألته حين رأت الضماد المبلل.

- إنها قصة طويلة.

كانت شقة كاتي كولد الصغيرة معتمة، مترعة بالأشياء، تعمها الفوضى. تطلّ اثنتان من نوافذها – متسخة الزجاج – على فناء مضاء،

والثالثة على جدار من الآجر فيه سلم النجاة من الحريق. رأى حقائب كبيرة وحقائب ظهر، وحزم أمتعة وصناديق ملقاة في الأركان، وكتباً وجرائد ومجلات مكومة على المناضد. وكانت هناك جمجمتان بشريتان مجلوبتين من التيبت، وأقواس وسهام من قبائل الأقزام الأفريقية، وأباريق فخارية تضم رفات موتى من صحراء آتاكاما، وخنافس متحجرة من مصر، وألف شيء آخر. كما كان هناك جلد ثعبان طويل مبسوط على امتداد جدار بكامله. إنه جلد الأفعوان الذي ابتلع آلة التصوير في ماليزيا.

لم يكن أليكس قد رأى جدته حتى ذلك الحين في جوها الخاص، وكان عليه أن يقر الآن، وهو يراها محاطة بأشيائها، بأنها تبدو أكثر أهميه وتشويقاً مما يظنه. فكاتي كولد التي بلغت الرابعة والستين من عمرها، تحتفظ بقوام نحيل وعضلي، جسدها ألياف عضلات خالصة وبشرتها مدبوغة بتقلب الأجواء والمناخات، عيناها الزرقاوان اللتان رأتا عوالم كثيرة، كانتا حادتين مثل خنجرين. وشعرها الرمادي الذي تقصه هي نفسها بالمقص دون النظر إلى المرآة، ينتصب في كل الاتجاهات، كما لو أنها لم تسرحه قط. وكانت تتفاخر بأسنانها، الكبيرة والقوية، القادرة على كسر الجوز وفتح الزجاجات، كما أنها فخورة بأنها لم تكسر قط أي عظم من عظام جسدها، ولم تستشر طبيباً قط، وأنها قد نجت متغلبة على أمراض وإصابات كثيرة، ابتداءً من إصابة بالملاريا وحتى لدغة عقرب. كانت تشرب الفودكا دون مزجها بأي شيء، وتدخن تبغاً أسود ثقيلاً في غليون بحّار. وهي ترتدي في الصيف والشتاء على السواء بناطيل فضفاضة بجيوب، وسترات دون أكمام وذات جيوب في كل مكان منها، حيث تحمل كل ما لا بد منه للبقاء على قيد الحياة في حال حدوث كارثة. وإذا ما اضطرت، في بعض المناسبات، إلى ارتداء ملابس أنيقة، فإنها تكتفي بخلع السترة ووضع عقد أنياب ذهبية، أهداه إليها أحد زعماء قبائل الآباتشي.

كانت ليزا، أم ألكسندر، ترتعب من كاتي، في حين كان الأطفال ينتظرون زيارتها بفارغ الصبر. فهذه الجدة غريبة الأطوار، وبطلة مغامرات لا تصدق، تحمل إليهم أخباراً عن أماكن مثيرة يصعب تخيلها. وكان الأحفاد الثلاثة يجمعون قصص رحلاتها التي تنشر في مجلات وصحف متعددة، والبطاقات البريدية والصور التي ترسلها هي نفسها إليهم من أربع جهات

المعمورة. وبالرغم من أنهم كانوا يخجلون من تقديمها إلى أصدقائهم، إلا أنهم كانوا يشعرون في أعماقهم بالفخر لكون أحد أفراد الأسرة شخصية مشهورة تقريباً.

بعد نصف ساعة بدأ أليكس يشعر بالدفء بفضل الحمام، وكان متلفعاً بروب، ويلبس جورباً صوفياً، ويلتهم كرات لحم مطبوخة وبوريه بطاطا، وهذا أحد الأطعمة التي يأكلها بشهية، والشيء الوحيد الذي تتقن كاتي طهوه.

- إنها فضلة الطعام المتبقية من يوم أمس - قالت له، ولكن أليكس قدر أنها قد أعدتها في الحقيقة خصيصاً من أجله. لم يشأ أن يخبرها بمغامراته مع مرجانة، كيلا يبدو مغفلاً، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بأنهم قد سرقوا منه كل ما كان معه. وغمغم الصبي وقد تورد لونه خجلاً:

- أعتقد أنك ستقولين لي إنه علي أن أتعلم عدم الثقة بأحد.

- بالعكس، كنت سأقول لك إنه عليك الثقة بنفسك. وها أنتذا ترى يا ألكسندر، فقد تمكنت بالرغم من كل شيء، من الوصول إلى شقتي دون مصاعب.

فرد عليها:

- دون مصاعب؟ كنت على وشك الموت متجمداً في الطريق. وكنتم ستكتشفون جثتي عند ذوبان الثلوج في الربيع.

- رحلة آلاف الأميال تبدأ دوماً بالعثرات. وماذا عن جواز سفرك؟ - استفهمت كاتي.

- لقد نجا لأنني كنت أحمله في جيبي.

- ألصقه بشريط لاصق على صدرك، لأنك سوف تقع في المشاكل إذا ما أضعته.

- أكثر ما آسف عليه هو الناي - علق ألكسندر.

فعرضت عليه كاتي:

- علي أن أعطيك ناي جدك. كنت أفكر في الاحتفاظ به إلى أن تظهر شيئاً من الموهبة، ولكنني أعتقد أن وجوده بين يديك أفضل من بقائه مهملاً هنا.

بحثت في الخزائن التي تغطي جدران شقتها من الأرض حتى السقف وقدمت إليه علبة مغبرة من الجلد الأسود.

- خذ يا ألكسندر. لقد استخدمه جدك طوال أربعين سنة، فحافظ عليه.

كانت العلبة تضم ناي جوزيف كولد، أشهر عازف ناي في القرن، مثلما قال النقاد عند موته. وقد علقت كاتي عندما قرأت ذلك في الصحف " كان من الأفضل أن يقولوا ذلك عندما كان جوزيف المسكين حياً ". لقد كانا مطلقين منذ ثلاثين سنة، ولكن جوزيف كولد أوصى بنصف ممتلكاته لزوجته السابقة، بما في ذلك نايه المفضل، هذا الذي يحمله حفيده الآن بين يديه. فتح أليكس العلبة الجلدية المهترئة باحترام وداعب الناي: لقد كان بديعاً. تناوله برفق ورفعه إلى شفتيه. وحين نفخ فيه، انطلقت الألحان من الآلة بروعة لم يستطع هو نفسه تحملها. لقد كان صوته مختلفاً عن الناي الذي سرقته منه مرجانة.

منحت كاتي كولد حفيدها الوقت الكافي ليتفحص الآلة الموسيقية وليشكرها بعمق، مثلما كانت تنتظر؛ ثم قدمت إليه على الفور كتاباً ضخماً مصفراً ومفلت الغلاف: - الدليل الصحي للرحالة الجريء -. فتحه الصبي كيفما اتفق وقرأ أعراض مرض قاتل يتسبب به أكل أدمغة الأسلاف. فقال:

- لست من أكلة الأعضاء البشرية.

فردت الجدة:

- لا يمكن لأحدنا أن يعرف قط ما الذي يوضع في كرات اللحم.

نظر أليكس المذعور بارتياب إلى بقايا الطبق الذي أكله. لابد من توخي الحذر الشديد في التعامل مع كاتي كولد، فمن الخطر أن يكون للمرء أسلاف مثلها.

- عليك أن تتلقح في الغد ضد نصف دزينة من الأمراض الاستوائية. — ثم أضافت كاتي آمرة: - دعني أرى يدك هذه، لا يمكنك السفر وأنت مصاب بجرح ملتهب.

تفحصت يده بفظاظة، وقررت أن ابنها جون قد قام بعمل جيد، ثم أفرغت على الجرح نصف زجاجة مضاد الالتهابات، تحسباً للعواقب، وأخبرته بأنها هي نفسها ستنزع له قطب الجرح في اليوم التالي. وقالت إنه أمر بسيط، يمكن لأي شخص أن يفعله. اجتاحت أليكس قشعريرة، فقد كان نظر جدته ضعيفاً، وهي تستخدم نظارة مجرحة الزجاج اشترتها من

سوق أشياء مستعملة في غواتيمالا. وبينما هي تضع له ضماداً جديداً أوضحت كاتي أن مجلة انترناشيونال جيوغرافيك قد موّلت حملة استكشافية إلى أعماق غابات الأمازون، بين البرازيل وفنزويلا، للبحث عن مخلوق عملاق، ربما يكون بشرياً بدائياً، شوهد في عدة مناسبات. وقد عُثر على آثار أقدامه الضخمة. ويقول من كانوا على مقربة منه إنه حيوان – أو إنه كائن بشري بدائي – وإنه أطول قامة من الدب، له ذراعان طويلان جداً، وجسمه بكامله مغطى بشعر أسود. إنه يعادل " اليتي " (إنسان الثلج) الذي يقطن أعالي جبال هملايا، ولكن في أعماق الأدغال الأمازونية.

- قد يكون نوعاً من القردة... – ألمح أليكس.

فقاطعته جدته:

- ألا تظن بأن أكثر من شخص قد فكر في هذا الاحتمال؟

وغامر أليكس بالقول:

- ولكن ليست هناك أدلة على وجوده...

- لا توجد لدينا شهادة ميلاد للوحش يا ألكسندر. آه! هناك تفصيل مهم: يقال إنه يطلق رائحة نفاذة جداً تسبب الدوار والإغماء للحيوانات والأشخاص، أو تسبب لهم الشلل حين يقتربون منه.

- إذا كان الناس يصابون بالإغماء، فليس هناك من رآه إذن.

- بالضبط، ولكن من خلال الآثار، عُرف أنه يمشي على قائمتين. وهو لا يستخدم حذاء، إذا كان هذا هو سؤالك التالي.

- لا يا كاتي، فسؤالي التالي هو إذا ما كان يستخدم قبعة! – قال حفيدها منفجراً.

- لا أظن ذلك.

- أهو خطر؟

- لا يا ألكسندر. إنه كائن لطيف. لا يسرق، لا يخطف أطفال ولا يخرب الممتلكات الخاصة. إنه يقتل فقط. ويفعل ذلك بنظافة، دون ضجة يهشم العظام وينزع أحشاء ضحاياه بأناقة حقيقية، كمحترف – قالت الجدة ساخرة.

- كم من الناس قتل؟ - استفسر أليكس وقد ازداد قلقه.

- ليس كثيراً، إذا ما أخذنا في الاعتبار الزيادة السكانية المفرطة في هذا العالم.

- كم يا كاتي!
- عدة باحثين عن الذهب، وجنديين، وبعض التجار... ولكن لا أحد يعرف العدد بالضبط.
- هل قتل هنوداً؟ وكم قتل منهم؟ - سأل أليكس.
- هذا غير معروف في الواقع. فالهنود لا يعرفون العدّ لأكثر من اثنين. ثم أن الموت في نظرهم أمر نسبي. فإذا ظنوا أن أحداً سرق روحهم، أو سار على آثار أقدامهم، أو استولى على أحلامهم، على سبيل المثال، فإن ذلك في نظرهم أسوأ من الموت. أما إذا مات أحدهم بالمقابل، فيمكن له أن يواصل الحياة كروح.

فقال أليكس الذي لم يكن يؤمن بالأرواح:
- هذا معقد.
- ومن قال لك أن الحياة بسيطة؟

أوضحت له كاتي كولد بأن الحملة الاستكشافية ستكون بقيادة بروفيسور أنثروبولوجي، هو البروفيسور لودفيك ليبلانك، الذي أمضى سنوات في تقصي ودراسة آثار " اليتي "، أو إنسان الثلج على الحدود بين الصين والتيبت، دون أن يعثر عليه. وقد عاش أيضاً مع قبيلة هنود في الأمازون، وهو يؤكد أنهم الأكثر توحشاً على الكوكب: فهم يأكلون أسراهم عند أول سهو. وأقرت كاتي بأن هذه المعلومات ليست مطمئنة. وقالت إن الدليل سيكون برازيلياً يدعى سيسر سانتوس، أمضى حياته في تلك المنطقة وله اتصالات جيدة مع الهنود. وهو يملك طائرة صغيرة خربة بعض الشيء، ولكنها ما تزال في حالة مقبولة، ويمكنه التوغل فيها إلى أراضي قبائل السكان الأصليين.

علّق أليكس الذي بدأ النعاس يغمض عينيه:
- لقد درسنا في المدرسة عن منطقة الأمازون في أحد دروس البيئة.
- هذا الدرس يكفيك، فلست بحاجة لمعرفة المزيد – قالت كاتي، ثم أضافت: - أظن أنك متعب. يمكنك أن تنام على الأريكة، ومنذ صباح الغد تبدأ العمل لحسابي.

- وماذا عليّ أن أفعل؟

- ما آمرك به. وفي هذه اللحظة آمرك أن تنام.

- طابت ليلتك يا كاتي... – غمغم أليكس وهو يتكور على نفسه فوق وسائد الأريكة.

- ياه! زمجرت الجدة وانتظرت إلى أن نام وغطته ببطانيتين.

- 4 -

نهر الأمازون

سافرت كاتي ومعها ألكسندر كولد في طائرة تجارية حلقت بهما فوق شمالي البرازيل. وطوال ساعات وساعات كانا يريان من الجو امتداد الغابات المترامية غير النهائي، وكلها باللون الأخضر الكثيف نفسه تخترقها أنهار تنسل متلوية مثل ثعابين لامعة. أما أكبرها فكان بلون القهوة بالحليب.

" نهر الأمازون هو أعرض الأنهار وأطولها على الأرض، فهو يزيد خمس مرات على أي نهر آخر. وروّاد الفضاء وحدهم، في رحلتهم إلى القمر، استطاعوا رؤيته كاملاً عن بعد "، هذا ما قرأه أليكس في الكتيب السياحي الذي اشترته له جدته في ريو دي جانيرو. ولم يقل الكتيب إن هذه المنطقة الشاسعة، الجنة الأخيرة على الأرض، تخضع لتدمير منهجي بسبب جشع رجال الأعمال والمغامرين، مثلما تعلم في المدرسة. إنهم يشقون فيها طريقاً عريضاً، جرحاً مفتوحاً في أعماق الغابة، تأتي عبره حشود المستوطنين وتخرج من خلاله الأخشاب والمعادن بأطنان.

أخبرت كاتي حفيدها بأنهما سيصعدان عبر النهر الأسود حتى أعالي نهر أورينوكو، حيث يشكل التقاء النهرين مثلثاً يكاد يكون عصياً على الارتياد، وفيه تتركز إقامة معظم القبائل. ويعتقد بأن تلك المنطقة هي موطن الوحش. فعلق أليكس :

- هذا الكتاب يقول إن الهنود يعيشون كما في العصر الحجري. وإنهم لم يتوصلوا إلى اختراع العجلة بعد.

- وهم لا يحتاجون إليها. إنها لا تنفع في تلك الأراضي، وليس لديهم ما ينقلونه، كما أنهم ليسوا مستعجلين للذهاب إلى أي مكان – ردّت كاتي

كولد التي لم يكن يروقها أن يقاطعها أحد وهي تكتب. لقد أمضت شطراً لا بأس به من الرحلة وهي تدون الملاحظات في دفترها بحروف صغيرة جداً ومختلطة، مثل آثار ذباب.

وأضاف أليكس :

- وهم لا يعرفون الكتابة.

فقالت كاتي:

- من المؤكد أنهم يتمتعون بذاكرة جيدة.

- ولا وجود لمظاهر فنية لديهم، إنهم يلونون الجسد فقط ويزينون أنفسهم بالريش – أوضح أليكس.

وردت الجدة:

- لأنهم لا يهتمون كثيراً بما بعد الموت أو بالظهور بين الآخرين. يتوجب على معظم من يسمون " فنانين " لديهم أن يقتدوا بهم.

كانا متوجهين إلى ماناوس، المدينة الأكثر كثافة سكانية في المنطقة، والتي ازدهرت في أزمنة استخراج المطاط، في أواخر القرن التاسع عشر.

أوضحت كاتي:

- ستتعرف على أكثر غابات العالم غموضاً يا ألكسندر. هناك توجد أماكن تظهر فيها الأرواح في وضح النهار.

فابتسم حفيدها، وقال ساخراً:

- طبعاً، مثل " رجل الثلج الغابي " الذي نذهب للبحث عنه.

- إنهم يدعونه الوحش. وربما لا توجد منه نسخة واحدة فقط، وإنما أكثر من ذلك، أسرة أو قبيلة من الوحوش.

- أنت سريعة التصديق جداً بالنسبة لسنك يا كاتي – علّق الصبي، دون أن يتمكن من تجنب النبرة الساخرة وهو يرى جدته تصدق تلك القصص.

فردت هي بجفاء:

-مع التقدم في السن يكتسب المرء شيئاً من التواضع يا ألكسندر، فكلما تقدمت في السن، أشعر بأنني أزداد جهلاً. الشبان وحدهم هم الذين لديهم تفسير لكل شيء. في مثل سنك يكون المرء متعجرفاً ولا يهمه أن يبدو مضحكاً.

عندما نزلا من الطائرة في ماناوس، أحسا بالمناخ على بشرتيهما مثل

منشفة مبللة بماء ساخن. وهناك انضما إلى بقية أعضاء حملة الانترناشيونال جيوغرافيك. ففضلاً عن كاتي كولد وحفيدها ألكسندر، كان هناك تيموثي بروس، وهو مصور إنكليزي له وجه حصان متطاول وأسنان صفراء من النيكوتين، ومعه مساعده المكسيكي جويل غونثالث، كما كان هناك الأنثروبولوجي المشهور لودفيك ليبلانك. لقد تصور أليكس أن يكون ليبلانك، باعتباره عالماً، رجلاً ذا لحية بيضاء وشخصية طاغية ولكن تبين له أنه رجل ضئيل في حوالي الخمسين من العمر، قصير القامة ونحيل البنية، وعصبي المزاج، تبدو على شفتيه دوماً إيماءة ازدراء أو قسوة، وله عينا جرذ غائرتان. وكان متنكراً بزي صياد حيوانات ضارية على طريقة الأفلام، ابتداء من الأسلحة التي يعلقها على خصره وحتى الجزمة الثقيلة والقبعة النمساوية المزينة برياش ملونة. وقد علّقت كاتي بصوت خافت بأن ما ينقص ليبلانك هو نمر ميت ليضع قدمه عليه. كان ليبلانك قد أمضى في شبابه فترة قصيرة في منطقة الأمازون، وألّف كتاباً ضخماً حول الهنود، ترك وقعاً كبيراً في الأوساط الأكاديمية. أما الدليل البرازيلي، سيسر سانتوس، الذي كان عليه أن يحضر إليهم في ماناوس، فلم يستطع المجيء لأن طائرته الصغيرة معطلة ولهذا سينتظرهم في سانتا ماريا دي لا ليوبيا التي سيضطر الفريق إلى الذهاب إليها بالسفينة.

تبين لأليكس أن ماناوس تقع عند ملتقى تهر الأمازون بالنهر الأسود، وهي مدينة كبيرة وحديثة، فيها عمارات شاهقة وحركة مرور خانقة، ولكن جدته أخبرته بأن الطبيعة هناك جامحة، ففي أوقات الفيضانات تظهر تماسيح وأفاع في أقنية البيوت وفي فتحات المصاعد. كما أنها مدينة مهربين، القانون فيها هش ويُخرق بسهولة: مخدرات، ماس، ذهب، أخشاب ثمينة، أسلحة. منذ أقل من أسبوعين تم اكتشاف سفينة محملة بالسمك... وكانت كل سمكة منها محشوة بكمية من الكوكائين.

الصبي الأمريكي الذي لم يغادر بلاده إلا من أجل التعرف على إيطاليا، موطن أجداد أمه، فوجئ بالتناقض الكبير بين ثراء البعض وفقر آخرين المدقع، وكل ذلك مختلط بعضه ببعض. الفلاحون الذين لا يملكون أرضاً والعمال الذين بلا عمل يأتون في حشود بحثاً عن أفق جديد، ولكن كثيرين منهم ينتهي بهم المطاف إلى العيش في أكواخ، دون موارد ودون أمل. كان هناك عيد في ذلك اليوم، وكان الأهالي جميعهم يمضون سعداء

كما في كرنفال: فالفرق الموسيقية تذرع الشارع، والناس يرقصون ويشربون، كثيرون منهم يرتدون أزياء تنكرية. نزل فريق المستكشفين في فندق حديث، ولكنهم لم يستطيعوا النوم بسبب صخب الموسيقى ودوي المفرقعات والألعاب النارية. وفي صباح اليوم التالي استيقظ البروفيسور ليبلانك مستاء ومعكر المزاج من تلك الليلة السيئة وطلب أن يبحروا بأسرع ما يمكن، لأنه لا يريد قضاء دقيقة واحدة أكثر مما يجب في هذه المدينة المتهتكة، على حد تعبيره.

ركب فريق انترناشيونال جيوغرافيك النهر الأسود، وهذا هو لونه بسبب الطمي والرواسب التي تجرفها مياهه، ليتوجهوا إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، وهي ضيعة في وسط مناطق السكان الأصليين. كان المركب كبيراً، ويعمل بمحرك قديم، صاخب ومدخن، وللمركب سقف مرتجل من البلاستيك للحماية من الشمس والمطر الذي يهطل ساخناً، مثل ماء الدش، عدة مرات في اليوم. كان المركب مزدحماً بالناس، وبحزم الأمتعة، والأكياس، وقطوف الموز، وبعض الحيوانات الأليفة في أقفاص أو مقيدة القوائم وحسب. وكانت هناك مقصورات، ومقاعد طويلة للجلوس ومجموعة من أراجيح النوم المعلقة بعضها فوق بعض.

طاقم ملاحي السفينة ومعظم المسافرين كانوا من الكابوكلو، فهكذا يسمى أهالي الأمازون الذين هم مزيج من عدة أجناس: بيض وهنود وزنوج. وكان هناك في المركب كذلك بعض الجنود، وشابان أمريكيان - مبشران من الطائفة المورمونية وطبيبة فنزويلية تدعى أومايرا توريس، وهي آتية بهدف تقديم اللقاحات الواقية للهنود. إنها خلاسية جميلة في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريباً، ذات شعر أسود، وبشرة بلون العنبر، ولها عينا هر خضراوان ولوزيتان. كانت تتحرك برشاقة، كما لو أنها ترقص على إيقاع لحن سري. فكان الرجال يلاحقونها بنظراتهم، بينما تبدو هي غير منتبهة إلى التأثير الذي يثيره جمالها.

- يجب أن نكون متأهبين جيداً – قال ليبلانك ذلك وهو يشير إلى أسلحته. كان يتكلم بصورة عامة، إنما بدا واضحاً أنه يتوجه بكلامه إلى الدكتورة توريس وحدها، ثم تابع قائلاً: - العثور على الوحش هو أسهل ما في الأمر. أما الأسوأ فهم الهنود. إنهم محاربون أفظاظ، قساة وغدارون. مثلما أصفهم في كتابي بالضبط، يقتلون من أجل إثبات شجاعتهم، وكلما

قتلوا أكثر، ارتفعت مكانتهم في القبيلة.

فسألته كاتي كولد دون أن تخفي نبرتها الساخرة:

- هل يمكنك أن توضح لي هذا الأمر يا بروفيسور؟

- إنه بسيط جداً يا سيدة... ما هو اسمك الذي قلتيه لي؟

- كاتي كولد – أخبرته باسمها للمرة الثالثة أو الرابعة؛ فقد كانت ذاكرة البروفيسور ليبلانك ضعيفة بصورة ظاهرة في حفظ الأسماء الأنثوية.

- أعود وأكرر: الأمر بسيط جداً. إنها المنافسة القاتلة القائمة في الطبيعة. فالرجال الأشد عنفاً هم الذين يسيطرون في المجتمعات البدائية. أظن أنك سمعت من قبل بمصطلح " الفحل ألفا ". فبين الذئاب، على سبيل المثال، يفرض الذكر الأشد عنفاً وعدوانية سطوته على جميع الذئاب الأخرى ويحظى بأجمل الإناث. والأمر نفسه ينطبق على البشر: فالرجال الأكثر عنفاً يقودون، ويحصلون على نساء أكثر وينقلون مورثاتهم إلى مزيد من الأبناء. أما الآخرون فعليهم القناعة بالفضلات، مفهوم؟ إنه البقاء للأقوى – أوضح ليبلانك.

- هل تعني أن القسوة هي الشيء الطبيعي؟

- بالضبط. والشفقة ما هي إلا بدعة حديثة. فحضارتنا تحمي الضعفاء والفقراء، والمرضى. وهذا خطأ رهيب من الوجهة الوراثية. ولهذا السبب نجد أن الجنس البشري آخذ بالانحطاط.

فسألته هي:

- وما الذي تفعله حضرتك بالضعفاء في المجتمع يا بروفيسور؟

وأجابها ليبلانك:

- ما تفعله الطبيعة: تركهم يفنون. والهنود في هذا المجال أكثر حكمة منا.

لم تستطع الدكتورة أومايرا توريس التي استمعت إلى الحديث باهتمام، إلا أن تبدي رأيها:

- مع كل الاحترام لك يا بروفيسور، إلا أنني لا أرى الهنود متوحشين إلى الحد الذي تصفهم به، بل على العكس، فالحرب بالنسبة إليهم هي أقرب إلى طقس احتفالي: إنها طقس لإثبات الشجاعة. فهم يطلون أجسادهم، ويهيئون أسلحتهم، ويغنون، ويرقصون، وينطلقون لشن غارة على الشابونو الخاص بقبيلة أخرى. ويوجهون التهديدات، ويتبادلون بعض

ضربات الهراوى، ولكن نادراً ما يسقط أكثر من قتيل واحد أو قتيلين. أما في حضارتنا فالحال مختلفة تماماً: لا توجد أية طقوس وإنما مجازر وحسب.

فقاطعها البروفيسور:

- سوف أهدي إليك نسخة من كتابي يا آنسة. وأي عالم جدي سوف يقول لك إن لودفيك ليبلانك مرجع في هذا الموضوع...

- لست عالمة مثل حضرتك - ابتسمت الدكتورة توريس - إنني مجرد طبيبة ريفية عملت أكثر من عشر سنوات في هذه الأنحاء.

فرد ليبلانك:

- صدقيني يا دكتورتي العزيزة. هؤلاء الهنود هم الدليل على أن الرجل ليس سوى قرد قاتل.

- وماذا عن المرأة؟ - قاطعته كاتي كولد.

- يؤسفني أن أقول لك إن النساء لا يدخلن في أي اعتبار في المجتمعات البدائية. إنهن غنائم حرب وحسب.

تبادلت الدكتورة توريس وكاتي كولد النظرات، وابتسمتا بمرح.

تبين أن الجزء الابتدائي من الرحلة في النهر الأسود هي تمرين على الصبر أولاً وقبل أي شيء آخر. كانوا يتقدمون بخطى سلحفاة، وما إن تغيب الشمس حتى يضطرون إلى التوقف لكي يتجنبوا الاصطدام بالجذوع الضخمة التي يجرفها التيار. كان الحر كثيفاً، ولكن الجو ما يلبث أن يبرد عند الغروب، ويكون لا بد من التدثر ببطانية من أجل النوم، وفي بعض الأحيان، حين يظهر النهر نظيفاً وهادئاً، ينتهزون الفرصة لاصطياد السمك أو السباحة قليلاً. كانوا في اليومين الأولين يمرون بمراكب متنوعة، ابتداء من الزوارق السريعة ذات المحركات، والمنازل العائمة، وحتى الزوارق البسيطة المصنوعة من جذع شجرة محفور، ولكنهم ظلوا بعد ذلك وحيدين وسط رحابة ذلك المشهد. إنه كوكب مائي: الحياة تنقضي في الإبحار البطيء، على إيقاع النهر، والمد والجزر، والأمطار، والفيضانات. ماء وماء في كل الأنحاء. هناك مئات الأسر التي تولد وتعيش وتموت في مراكبها العائمة، دون أن تقضي ليلة واحدة على اليابسة، وهناك أسر أخرى تعيش في بيوت مشيدة على دعائم على ضفاف النهر. النقل يتم عبر النهر، والطريقة الوحيدة لبعث رسالة أو تلقيها هو جهاز الراديو. لم يكن الصبي الأمريكي ليصدق بأنه يمكن العيش دون هاتف.

كانت هناك محطة إذاعة في ماناو تبث الرسائل الشخصية دون توقف، وبهذه الطريقة كان الناس يطلعون على الأخبار، فيعرفون أخبار تجارتهم وأسرهم. وهم نادراً ما يتداولون النقود في أعالي النهر، فهناك يسود اقتصاد المقايضة، يبادلون السمك بالسكر، أو البنزين بالدجاج، أو أنهم يقدمون خدمات معينة مقابل صندوق من البيرة.

وعلى ضفتي النهر تتعالى الغابة متوعدة. كانت أوامر القبطان واضحة تماماً: عدم الابتعاد لأي سبب، لأن التوغل في الغابة يفقد المرء القدرة على التوجه. وهناك قصص عن أجانب ماتوا، على بعد أمتار قليلة من النهر، وهم يبحثون عنه بيأس دون أن يجدوه. كانوا يشاهدون عند الفجر دلافين وردية تقفز من الماء، ومئات الطيور تجتاز الفضاء. ورأوا كذلك "خراف النهر"، وهي لبونات مائية ضخمة، إناثها هي الأصل في نشوء أسطورة حوريات البحر. وفي الليل تظهر بين الآجام نقاط ملونة: إنها عيون التماسيح المترصدة في الظلام. أحد الكابوكلو علم أليكس كيفية تقدير حجم التمساح من خلال التباعد بين عينيه. وعندما يكون الحيوان صغيراً، يبهره ذلك الكابوكلو بمصباح يدوي، ثم يقفز إلى الماء ويمسك به، مثبتاً فكيه بإحدى يديه وذيله باليد الأخرى. أما إذا كانت المسافة الفاصلة بين عينيه كبيرة، فإنه يتجنبه مثلما يتجنب الطاعون.

كان الوقت يمضي بطيئاً، فالساعات تتجرجر أبدية، ولكن أليكس لم يشعر بالضجر مع ذلك. كان يجلس في مقدمة المركب ليتأمل الطبيعة، ويقرأ ويعزف ناي جده. فتبدو الطبيعة منتشية، وكأنها تستجيب لألحان آلته الموسيقية، وحتى طاقم السفينة وركابها الصاخبين كانوا يصمتون ليستمعوا إليه، وقد كانت تلك هي اللحظات الوحيدة التي توليه فيها كاتي كولد اهتمامها. لقد كانت الكاتبة قليلة الكلام، تقضي النهار في القراءة أو الكتابة في دفاترها، وتتجاهله عموماً أو تعامله مثلما تعامل أي فرد آخر من أعضاء الحملة. لم تكن هناك جدوى ترجى من اللجوء إليها لطرح مشكلة حياتية محضة، مثل مسألة الطعام، أو الصحة أو الأمن مثلاً. فقد كانت تنظر إليه من أعلى إلى أسفل بازدراء واضح وتجيبه بأن هناك نوعين من المشاكل، تلك التي تحل تلقائياً أو التي لا حل لها، ولهذا عليه ألا يزعجها بالحماقات. ولحسن الحظ أن يده شفيت بسرعة، وإلا لما تورعت عن حل القضية باقتراح بترها. لقد كانت امرأة إجراءات قصوى.

أعارته خرائط وكتباً عن منطقة الأمازون لكي يبحث هو نفسه عن المعلومات التي تهمه. فإذا ما أراد أليكس التعليق على ما قرأه عن الهنود، أو طرح نظرياته حول الوحش، فإنها ترد عليه دون أن ترفع رأسها عن الصفحة التي أمامها: " إياك أن تضيع فرصة مناسبة لإغلاق فمك يا ألكسندر ".

كل شيء في تلك الرحلة كان يبدو مختلفاً جداً عن العالم الذي ترعرع فيه الفتى، فكان يشعر كما لو أنه زائر من كوكب آخر. لم يعد بإمكانه الاعتماد على وسائل الراحة التي اعتاد على استخدامها من قبل دون تفكير، مثل السرير، والحمام، وماء الشفة، والكهرباء. انهمك في التقاط صور بكاميرا جدته لكي يحمل معه أدلة إثبات لدى عودته إلى كاليفورنيا. فأصدقاؤه لن يصدقوا أبداً أنه حمل بين يديه تمساحاً طوله حوالي متر!

أخطر مشكلة كان يواجهها هي التغذية. فقد كان على الدوام متطلباً في المأكل، وهم يقدمون إليه الآن أطعمة لا يعرف حتى اسمها. فالشيء الوحيد الذي كان يميزه على سطح المركب هو الفاصولياء المعلبة، واللحم المجفف المملح والقهوة، ولا شيء من ذلك يروقه. لقد اصطاد بحارة المركب قردين بالرصاص في إحدى الليالي، وعندما توقفت السفينة عند الضفة، شووهما. كان مظهرهما شديد الشبه بالبشر، مما جعله يشعر بالمرض لمجرد رؤيتهما: فقد بديا مثل طفلين محروقين. وفي اليوم التالي اصطادوا بيراكورو، وهذه سمكة ضخمة أعجب الجميع بلحمها، باستثنائه هو، لأنه رفض أن يتذوقها. فقد قرر وهو في الثالثة من عمره أنه لا يحب السمك. وأمه التي تعبت من الصراع لإجباره على الأكل، رضخت لنزوته منذ ذلك الحين وصارت تقدم له المأكولات التي يحبها. ولم تكن تلك الأطعمة كثيرة. فكانت هذه المحدودية تبقيه جائعاً خلال الرحلة، فهو يكتفي بالموز، وعلبة حليب مكثف، وعدو علب بسكويت. ولم تكن جدته تبدو مهتمة بجوعه، ولا الآخرين كذلك. فلا أحد يوليه اهتماماً.

في كل يوم كان يهطل، عدة مرات، مطر قصير وعاصف، فكان عليه أن يعتاد على الرطوبة الدائمة، وعلى واقع أن الملابس لا تجف تماماً قط. وفي الليل تهاجمهم سحب من البعوض، يدفعها الأجانب عن أنفسهم بتضميخ أجسادهم بمضادات الحشرات، ولاسيما لودفيك ليبلانك الذي لم يكن يضيع فرصة إلا ويرتل قائمة الأمراض التي تنقلها الحشرات، ابتداء من

التيفوس وحتى الملاريا. وكان قد ثبت خماراً سميكاً حول قبعته النمساوية ليحمي وجهه، ويقضي شطراً كبيراً من النهار مختبئاً تحت كلة علقها في مقدمة المركب. أما أهالي المنطقة – الكابوكلو– بالمقابل، فكانوا يبدون مستثنين من اللسعات.

في اليوم الثالث، وكان صباحاً مشرقاً، توقفت السفينة بسبب مشكلة في المحرك. وبينما كان القبطان منهمكاً في إصلاح العطل، استلقى بقية الركاب في الظل للراحة. كان الحر شديداً لا يمكن معه التحرك. ولكن أليكس رأى أنه المكان المناسب للتبرد. فقفز إلى الماء الذي كان يبدو ضحلاً وساكناً مثل طبق حساء، وغطس كأنه حجر.

- لا يمكن إلا لأبله أن يقيس عمق الماء بقدميه - علقت جدته عندما أطل برأسه على السطح، وهو يطلق الماء حتى من أذنيه.

سبح الفتى مبتعداً عن المركب – فقد قيل له إن التماسيح تفضل الضفاف - وطفا على ظهره في الماء الدافئ لوقت طويل، فاتحاً ذراعيه وساقيه، وناظراً إلى السماء، مستغرقاً في التفكير في رواد الفضاء الذين يعرفون اتساعاتها. كان يشعر بأنه في أمان، حتى أن رد فعله تأخر لحظات حين لامس يده شيء مر سريعاً. ودون أن تكون لديه فكرة عن نوع الخطر الذي يترصده – ربما لا تكتفي التماسيح، في نهاية المطاف، بالبقاء عند الضفة فقط – بدأ يضرب ذراعيه بكل قوة سابحاً باتجاه المركب، غير أن صوت جدته الآمر بجفاء أوقفه عندما سمعها تصرخ طالبة منه ألا يتحرك. انصاع لأمرها بحكم العادة، على الرغم من أن غريزته كانت تدفعه إلى عكس ذلك. بقي طافياً بأكبر قدر ممكن من الهدوء، وعندئذ رأى إلى جانبه سمكة ضخمة. ظن أنها سمكة قرش فتوقف قلبه عن الخفقان، ولكن السمكة قامت بالتفافة قصيرة ورجعت بفضول لتتوقف على مقربة شديدة منه، حتى أنه تمكن من رؤية ابتسامتها. وعندئذ طفر قلبه من مكانه، وكان عليه أن يكبح نفسه من الصراخ. لقد كان يسبح برفقة دولفين!

أمضى العشرين دقيقة التالية في اللعب معه مثلما يلعب مع كلبه بونتشو، وكانت تلك هي أسعد عشرين دقيقة في حياته. كان الحيوان المهيب يدور حوله بسرعة كبيرة، قافزاً من فوقه، ويتوقف على بعد سنتمترات قليلة من

وجهه، متفحصاً إياه بملامح لطيفة. ويمر أحياناً على مقربة شديدة منه فيتمكن من لمس جلده الذي لم يكن ناعماً مثلما يتصوره، وإنما خشناً. تمنى أليكس ألا تنتهي تلك اللحظات أبداً، وكان مستعداً للبقاء إلى الأبد في النهر، ولكن الدولفين ضرب الماء بذيله مودعاً فجأة، واختفى.

- أرأيت يا جدتي؟ لن يصدقني أحد إذا أخبرته بهذا! - صرخ حين رجع إلى المركب منفعلاً إلى حد يكاد لا يستطيع معه الكلام.

- الأدلة موجودة هنا - ابتسمت وهي تشير إلى الكاميرا. وكان مصورا الحملة، بروس وغونثالث، قد التقطا المشهد أيضاً.

مع توغلهم في النهر الأسود، كانت الخضرة تزداد وفرة وتشابكاً، ويصير الهواء أشد كثافة وعبقاً، والزمن أكثر بطءً، والمسافات أعصى على التقدير. كانوا يتقدمون كما في حلم في تلك الأراضي الهذيانية. وبين كل مقطع وآخر من الرحلة كان ركاب السفينة يتناقصون، فهم ينزلون بحزم أمتعتهم وحيواناتهم في الأكواخ والدساكر الصغيرة على الضفة. لم تعد أجهزة المذياع التي في السفينة قادرة على التقاط الرسائل الشخصية التي تُبث من ماناوس، ولا على صمّ الآذان بالألحان الشعبية، كان البشر يصمتون بينما الطبيعة تصدح مثل أوركسترا طيور وقرود، وكان دوي المحرك وحده هو الذي يشي بالحضور البشري في عزلة الأدغال المترامية. وأخيراً، عندما وصلوا إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، لم يبق على متن السفينة سوى ملاحيها، وفريق الانترناشونال جيوغرافيك، والدكتورة أومايرا توريس وجنديين. وكان هناك أيضاً الشابان المبشران المورمونيان، وقد أصابتهما عدوى جراثيم معوية. وعلى الرغم من المضادات الحيوية التي كانت تقدمها إليهما الدكتورة فقد كانا في حالة إعياء شديدة، يكادان لا يستطيعلن معها فتح عيونهما، ويخلطان أحياناً بين الأدغال الملتهبة حراً وجبال موطنهما الثلجية في يوتا.

- سانتا ماريا دي لاليوبيا هي آخر معاقل الحضارة - قال قبطان السفينة، عندما ظهرت البلدة في أحد منعطفات النهر.

- ابتداء من هنا تبدأ أراضي السحر يا ألكسندر - نبهت الجدة حفيدها.

فسألها:

- أما يزال هناك هنود لم يتصلوا بالحضارة بعد؟

- يقدر بأن هناك ألفين أو ثلاثة آلاف، ولكن لا أحد يعرف العدد على وجه اليقين - أجابته الدكتورة أومايرا توريس.

تنتصب سانتا ماريا دي لا ليوبيا مثل خطأ بشري وسط طبيعة طاغية، تهدد بابتلاعها في أي لحظة. تتألف من حوالي عشرين بيتاً، وعنبر كبير يستخدم في الوقت نفسه كفندق، وآخر أصغر حجماً هو مستشفى تخدم فيه راهبتان، ومتجرين صغيرين، وكنيسة كاثوليكية، ومعسكر للجيش. ويقوم الجنود بمراقبة الحدود والتنقل بين فنزويلا والبرازيل. ويتوجب عليهم أيضاً، حسب القانون، حماية السكان الأصليين من تعسف المستوطنين والمغامرين، ولكنهم لا يفعلون ذلك عملياً. فالغرباء آخذون باحتلال المنطقة دون أن يمنعهم أحد، دافعين الهنود أكثر فأكثر نحو مناطق أشد منعة، أو أنهم يقتلونهم دون أن يتعرضوا لأي عقاب. كان ينتظرهم في مرسى سانتا ماريا دي لا ليوبيا رجل طويل القامة، له بروفيل بارز التقاطيع كأنه بروفيل طائر، وملامح رجولية وتعبير منفتح جلده مدبوغ بعوامل الجو، وله جديلة سوداء معقودة كذيل عند رقبته.

قدم نفسه قائلاً:

- أهلاً بكم أنا سيسر سانتوس، وهذه هي ابنتي ناديا.

قدر أليكس أن الفتاة في مثل سن أخته آندريا، حوالي اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. وكان شعرها مجعداً ومشعثاً بفعل الشمس، وعيناها وبشرتها بلون العسل؛ ترتدي بنطالاً قصيراً وقميص فانيلا، وخفاً من البلاستيك. وكانت تضع عدة شرائط ملونة معقودة حول معصميها، وزهرة صفراء فوق إحدى أذنيها، وريشة طويلة خضراء تخترق صوان الأذن الأخرى. وفكر أليكس في أنه إذا ما رأت أخته آندريا هذه الزينات فسوف تقلدها على الفور، ولو أن أخته الصغرى نيكول رأت القرد الأسود الصغير الذي تحمله الفتاة جالساً على كتفها، فسوف تموت حسداً.

بينما كانت الدكتورة توريس تنقل المبشرين المورمونيين إلى المستشفى، بمساعدة راهبتين حضرتا لاستقبالها، أشرف سيسر سانتوس على إنزال حزم أمتعة الحملة الكثيرة. اعتذر لأنه لم ينتظرهم في ماناوس، مثلما

كانوا قد اتفقوا. وأوضح أن طائرته قد حلقت فوق كل منطقة الأمازون، ولكنها صارت قديمة، وفي الأسابيع الأخيرة بدأت تفلت بعض القطع من محركها. ولأنها كانت على وشك التحطم، فقد قرر التوصية على محرك آخر، سيصله في هذه الأيام، ثم أضاف مبتسماً أنه لا يستطيع ترك ابنته ناديا يتيمة. رافقهم بعد ذلك إلى الفندق، وتبين أنه بناء من الأخشاب فوق أعمدة على ضفة النهر، مشابه لأكواخ القرية الأخرى المخلعة. كانت هناك صناديق من البيرة مكومة في كل مكان، وعلى منضدة الكونتوار تصطف زجاجات الليكور. وقد لاحظ أليكس خلال الرحلة أن الرجال، على الرغم من الحر الشديد، يشربون ليترات وليترات من المشروبات الكحولية في كل الأوقات. هذا البناء البدائي يستخدم قاعدة عمليات للزائرين، ومكان مبيت، ومطعماً، وباراً لهم. خصصوا لكاتي كولد والبروفيسور لودفيك ليبلانك حجرتين منفصلتين عن الآخرين بملاءات معلقة بحبال. أما الآخرون فكانوا ينامون على أراجيح نوم معلقة ومحمية بناموسيات.

كانت سانتا ماريا دي لا ليوبيا قرية صغيرة هاجعة ونائية جداً، تكاد لا تظهر على الخرائط. بعض المستوطنين فيها يربون أبقاراً ذات قرون طويلة، وآخرين يبحثون عن الذهب في قاع النهر أو يستثمرون الأخشاب والمطاط في الغابات، وقلة جزئية منهم يتوغلون وحيدين في الغابة بحثاً عن الماس، ولكن الغالبية يعيشون بخمول منتظرين فرصة للثراء تسقط عليهم بمعجزة من السماء. هذه هي النشاطات المرئية لسكان القرية، أما النشاطات السرية فتتمثل في تهريب الطيور النادرة، والمخدرات والأسلحة. هناك جماعات من الجنود، يعلقون بنادقهم على أكتافهم وقمصانهم مبللة بالعرق، يلعبون الورق أويدخنون جالسين في الظل. ويفقد السكان القليلون همتهم وتخور قواهم وهم شبه ذاهلين من الحر والضجر. رأى أليكس أشخاصاً عديدين بلا شعر ولا أسنان، نصف عميلن تغطي البثور جلودهم، يومئون ويتكلمون بمفردهم، إنهم منجميون أحدث الزئبق اختلالاً في عقولهم، وهم يموتون ببطء. إنهم يغوصون في أعماق النهر لكي يشفطوا في أنابيب كبيرة الرمل المشبع بتبر الذهب. بعضهم يموتون غرقاً، وآخرون يموتون لأن منافسيهم يقطعون لهم خراطيم الأوكسجين، ومن تبقى منهم يموتون ببطء مسممين بالزئبق الذي يستخدمونه لفصل الرمل عن الذهب.

أما أطفال القرية بالمقابل، فيلعبون بسعادة في الوحل، ترافقهم بعض القردة المدجنة والكلاب العجفاء. وكان هناك عدد من الهنود، بعضهم يرتدون قميصاً أو بنطالاً قصيراً، وآخرون يمضون عراة مثل الأطفال. في البدء، لم يكن أليكس المذهول يتجرأ على النظر إلى صدور النساء، ولكن سرعان ما اعتاد نظره عليهن، وبعد خمس دقائق لم يعدن يسترعين انتباهه. لقد أمضى هؤلاء الهنود سنوات عديدة من الاتصال بالحضارة، ففقدوا الكثير من تقاليدهم وعاداتهم، مثلما أوضح لهم سيسر سانتوس. وكانت ناديا ابنة الدليل تتكلم إلأيهم بلغتهم، فيعاملونها كما لو أنها فرد من قبيلتهم.

إذا كان هؤلاء هم السكان الأصليون المتوحشون الذين يصفهم ليبلانك، فإنهم لا يثيرون في النفس أية مشاعر: فهم ضئيلون، لا تزيد قامة الرجال عن متر ونصف المتر، والأطفال يبدون أشبه بدمى بشرية مصغرة. لقد أحس أليكس لأول مرة في حياته بأنه طويل القامة وهو بينهم. رأى أن لهم بشرة برونزية ووجنات عالية، شعور الرجال مقصوصة دائرياً مثل طبق عند مستوى الأذنين، وهذا مما يبرز، بوضوح أكبر، هيئتهم الآسيوية. فهم ينحدرون من سكان شمالي الصين، وقد وصلوا على هذه الأراضي عبر آلاسكا قبل عشرة آلاف أو عشرين ألف سنة. ونجوا من العبودية خلال الغزو الإسباني في القرن السادس عشر لأنهم بقوا معزولين. فالجنود الإسبان والبرتغاليون لم يستطيعوا التغلب على مستنقعات منطقة الأمازون وبعوضها وخضرتها الكثيفة، وأنهارها وشلالاتها الهائلة.

بعد أن استقروا في الفندق، بادر سيسر سانتوس إلى ترتيب معدات الحملة وأجهزتها، والتخطيط لبقية الرحلة مع الكاتبة كاتي كولد والمصورين، لأن البروفيسور ليبلانك قرر أن يستريح إلى أن يبرد الجو قليلاً. لم يكن قادراً على تحمل الحر. وفي أثناء ذلك، دعت ناديا، ابنة الدليل، أليكس للتجول في محيط المكان. فحذرهما سيسر سانتوس :

- لا تغامرا بالتجول خارج حدود الضيعة بعد غروب الشمس، فهذا خطر جداً.

عملاً بنصيحة ليبلانك الذي كان يتكلم كخبير بمخاطر الأدغال، دس أليكس طرف ساقي بنطاله في جوربيه وجزمته، لكي يحول دون أن يمص العلق دمه. فضحكت ناديا التي كانت تمضي شبه حافية، وقالت له:

- سوف تعتاد على الحشرات والحر - كانت تتكلم الإنكليزية على أحسن وجه، لأن أمها كندية، وقد أوضحت له الطفلة: - غادرت أمي هذا المكان قبل ثلاث سنوات.

- ولماذا ذهبت؟

فقالت ناديا:

- لم تستطع التأقلم هنا، كانت معتلة الصحة، وساءت حالتها عندما بدأ الوحش بالظهور. كانت تشم رائحته، وأرادت الذهاب بعيداً، لم يكن بمقدورها البقاء وحيدة، كانت تصرخ... وأخيراً أخذتها الدكتورة توريس في طائرة هيلوكبتر. وهي الآن في كندا.

- ألم يذهب أبوك معها؟

- وما الذي سيفعله أبي في كندا؟

- ولماذا لم تأخذك معها؟ - ألح أليكس الذي لم يكن قد سمع من قبل عن أم تهجر أبناءها.

- لأنها في مصح. ثم أنني لا أرغب في الابتعاد عن أبي.

- ألا تخافين من الوحش؟

- الجميع يخافونه. ولكنه إذا ما جاء، فإن بوروبا سينبهني في الوقت المناسب - ردت الطفلة، وهي تداعب القرد الصغير الأسود الذي لا يتركها أبداً.

أخذت ناديا صديقها الجديد للتعرف على القرية، ولم يستغرق ذلك منهما أكثر من نصف ساعة، فليس هناك أشياء كثيرة تُرى. وفجأة انفجرت عاصفة بروق راحت تجوب السماء في كل الاتجاهات، وبدأ المطر يهطل مدراراً. كان مطراً ساخناً كأنه الحساء، حوّل الأزقة الضيقة إلى موحلة مدخنة. كان الناس عموماً يبحثون عن ملاذ تحت بعض السقوف، أما الأطفال والهنود فيواصلون أعمالهم غير عابئين بوابل المطر. أدرك أليكس أن جدته كانت على حق عندما طلبت منه أن يستبدل بنطال رعاة البقر الذي يرتديه بملابس قطنية خفيفة، فهي أكثر برودة وأسهل جفافاً. ولكي يهربا من المطر، دخل الصبيان إلى الكنيسة، حيث وجدا رجلاً طويل القامة ومتين البنية، له ظهر حمال قوي وشعر أبيض، قدمته إليه ناديا على أنه الأب بالدوميرو. كان يخلو تماماً من أي مظهر وقور يمكن انتظاره من كاهن: فهو يمضي بسروال داخلي، وصدر عار، ويتسلق سلماً ليطلي

الجدران بالكلس. وكانت هناك زجاجة روم على الأرض.

قدمته ناديا:

- الأب بالدوميرو يعيش هنا ما قبل غزوة النمل.

- لقد جئت عندما تأسست القرية، قبل حوالي أربعين سنة، وكنت هنا عندما جاءت النمال. وقد اضطررنا إلى ترك كل شيء والخروج هاربين نحو أسفل النهر. جاءت النمال كلطخة سوداء ضخمة، متقدمة بإصرار لا يلين، مدمرة كل شيء في طريقها - روى الكاهن.

- وماذا حدث عندئذ؟ - سأل أليكس الذي لم يكن قادراً على تصور قرية تقع ضحية الحشرات.

- أضرمنا النار في البيوت قبل أن نغادر. فحولت النيران اتجاه النمل، وبعد شهور من ذلك تمكنا من العودة، ليس هناك بيت واحد من هذه البيوت التي تراها الآن عمره أكثر من خمس عشرة سنة - أوضح الكاهن.

كان لدى القس حيوان غريب، كلب برمائي هو، حسب قوله، من فصيلة أمازونية، ولكن سلالته انقرضت تقريباً. يمضي شطراً لا بأس به من حياته في النهر، ويمكنه البقاء لدقائق ورأسه غاطس في دلو ماء. استقبل الزائرين من مسافة حذرة، بعدم ثقة. كان نباحه أشبه بتغريد الطيور، يبدو معه كما لو أنه يغني.

- لقد اختطف الهنود الأب بالدوميرو. كم سأكون محظوظة إذا ما حدث لي ذلك! - هتفت ناديا بإعجاب.

- لم يختطفوني أيتها الصغيرة. لقد ظللت طريقي في الغابة، وهم الذين أنقذوا حياتي. عشت معهم عدة شهور، إنهم أناس طيبون وأحرار، فالحرية في نظرهم أهم من الحياة نفسها، لا يمكنهم العيش من دونها. فالهندي السجين هو هندي ميت: يندس في نفسه، ويعاف الطعام والشراب إلى أن يموت - علق الأب بالدوميرو.

فقال ألكسندر:

- بعض الروايات تقول إنهم مسالمون، وروايات أخرى تقول إنهم متوحشون تماماً وعنيفون.

- أشد الرجال الذين رأيتهم في هذه الأنحاء خطراً ليسوا الهنود، وإنما هم مهربو الأسلحة والمخدرات والماس، وجامعوا المطاط، والباحثون عن

الذهب، والجنود، وقاطعوا الأخشاب الذين يلوثون هذه المنطقة ويستغلونها – فند الأسقف تلك الأقوال، ثم أضاف بأن الهنود بدائيون في الأمور المادية، ولكنهم متقدمون جداً على المستوى الذهني، وأنهم متعلقون بالطبيعة، كتعلق الابن بأمه.

- حدثنا عن الوحش، هل صحيح أنك رأيته بأم عينك يا أبتِ؟ سألته ناديا.

- أظن أنني رأيته، ولكن الوقت كان ليلاً وعيناي لم تعودا حادتين كما في السابق – أجاب الأب فالدوميرو، وهو يسكب رشفة طويلة من الروم في حلقه.

فسأله أليكس وهو يفكر في أن جدته ستشكره على هذه المعلومات:

- ومتى حدث ذلك؟

- قبل نحو سنتين...

- وما الذي رأيته بالضبط؟

- لقد رويت ذلك مرات كثيرة: مارد طوله يزيد على الثلاثة أمتار، يتحرك بتثاقل شديد ويطلق رائحة رهيبة، لقد تجمدت في مكاني من الرعب.

- ألم يهاجمك يا أبتِ؟

- لا. قال شيئاً ثم دار على عقبيه واختفى في الغابة.

فألحّ أليكس:

- هل قال شيئاً؟ أعتقد أنك تعني أنه أصدر ضجة، زمجرة، أليس كذلك؟

- لا يا بني، لقد تكلم ذلك المخلوق بوضوح. لم أفهم كلمة واحدة.، ولكنها كانت دون شك لغة منطوقة. لقد غبت عن الوعي... وعندما استيقظت لم أكن واثقاً مما حدث، ولكن تلك الرائحة النفاذة كانت ملتصقة بملابسي، بشعري، ببشرتي. وهكذا عرفت أنني لم أكن أحلم.

٠١

- 5 -

التشامان

توقفت العاصفة فجأة مثلما بدأت، وبدت الليلة صافية. رجع أليكس ونادیا إلى الفندق، حيث كان أعضاء الحملة مجتمعين حول سيسر سانتوس والدكتورة أومايرا توريس يدرسون خريطة للمنطقة ويناقشون الإعدادات للرحلة. وكان معهم البروفيسور ليبلانك وقد استعاد بعض نشاطه من الإنهاك. كان قد طلى نفسه من قدميه حتى رأسه بمحلول مضاد للحشرات، وتعاقد مع هندي يدعى كاراكاوي ليهوّي له بورقة شجيرة موز. طلب ليبلانك بأن تبدأ الحملة مسيرها نحو أعالي نهر أورينوكو في اليوم التالي، لأنه لا يستطيع إضاعة الوقت في هذه القرية التافهة. فلديه ثلاثة أسابيع فقط لكي يصطاد مخلوق الغابة الغريب، على حد قوله.

فأوضح سيسر سانتوس :

- لم يتمكن أحد من ذلك خلال عدة سنوات يا بروفيسور...

فرد عليه :

- يجب أن يظهر قريباً ، لأنه عليّ أن أقدم سلسلة محاضرات في أوروبا.

- أرجو أن يتفهم الوحش مسوغاتك – قال الدليل ذلك، ولكن البروفيسور لم يبد ما يدل على أنه فهم السخرية.

كانت كاتي كولد قد أخبرت حفيدها بأن الأمازون مكان خطير على الأنثروبولوجيين، لأنهم يفقدون فيه رشدهم عادة. فهم يبتدعون نظريات متناقضة ويتعاركون فيما بينهم بالرصاص والسكاكين؛ وآخرون منهم يمارسون طغيانهم على القبائل وينتهي بهم الأمر إلى الاعتقاد بأنهم آلهة. وقد اضطروا إلى نقل أحدهم مقيداً إلى بلاده بعد أن أصيب بمس من الجنون.

- أظن أنك على علم بأنني سأكون أيضاً ضمن الحملة يا بروفيسور ليبلانك – قالت الدكتورة أومايرا توريس التي كان الأنثروبولوجي ينظر إليها بطرف عينه بين حين وآخر، معجباً بجمالها الطاغي.

- لا شيء يروقني أكثر من هذا يا آنسة...

فقاطعته الطبيبة :

- أدعى الدكتورة توريس.

فغامر ليبلانك بالمغازلة :

- يمكنك أن تنادين لودوفيك.

فردت هي بجفاء :

- ادعني الدكتورة توريس.

- لا يمكنني أن آخذك معنا، يا دكتورتي العزيزة. يكاد لا يوجد متسع لنا نحن المتعاقدين مع الانترناشيونال جيوغرافيك. صحيح أن الميزانية سخية، ولكنها ليست غير محدودة – رد ليبلانك.

فقالت الدكتورة :

- لن تذهب أنت إذن يا بروفيسور. إنني أنتمي إلى الخدمات الصحية الوطنية. وأنا موجودة هنا لحماية الهنود. لا يمكن لأي غريب أن يتصل بهم دون اتخاذ الإجراءات الاحتياطية الضرورية. فهم حساسون جداً تجاه الأمراض، ولا سيما أمراض البيض.

وأكد سيسر سانتوس قولها مضيفاً :

- يمكن لرشح عادي أن يكون قاتلاً لهم. لقد قضي على قبيلة كاملة بسبب عدوى تنفسية قبل ثلاث سنوات، عندما جاء بعض الصحفيين لتصوير فيلم وثائقي. كان أحدهم مصاباً بالسعال، وقدم مجّة من سيجارته إلى أحد الهنود، فانتقلت العدوى إلى القبيلة كلها.

في هذه اللحظة وصل النقيب آريوستو، قائد الثكنة العسكرية، ومعه ماورو كاريّاس، أثرى رجل أعمال في المنطقة. فهمست ناديا لأليكس موضحة أن كاريّاس متنفّذ جداً، وأنه يعقد صفقات تجارية مع رؤساء وجنرالات عدة بلدان أمريكية جنوبية. وأضافت أنه لا يملك قلبه في جسده، وإنما يحمله في جراب، وأشارت إلى الحقيبة الجلدية الصغيرة التي يحملها كاريّاس في يده. أما لودفيك ليبلانك فكان مبهوراً جداً من جانبه بماورو كاريّاس، لأن الحملة تشكلت بفضل اتصالات هذا الرجل الدولية. فهو

الذي أثار اهتمام مجلة انترناشيونال جيوغرافيك بأسطورة الوحش.

قال كاريّاس :

- لقد بعث هذا المخلوق الغريب الرعب بين أهالي منطقة أعالي أورينوكو الطيبين. لم يعد هناك من يهتم بالتوغل في المثلث الذي يعتقد أنه يسكنه.

فقالت كاتي كولد :

- أفهم من ذلك أن هذه المنطقة لم تستثمر بعد.

- أجل.

فأضافت الكاتبة :

- وأظن أنها غنية جداً بالمعادن والأحجار الثمينة.

وأجاب هو :

- ثراء منطقة الأمازون الأساسي هو الأرض والأخشاب.

وهنا تدخلت الدكتورة أومايرا توريس :

- والنباتات أيضاً. فنحن لا نعرف إلا أقل من عشرة بالمئة من الخلاصات الطبية المتوفرة هنا. ومع انقراض التشامانات والمداوين الشعبيين من السكان الأصليين، سنفقد هذه المعارف إلى الأبد.

- يخيل إلي أن الوحش يعرقل أيضاً أعمالك في هذه الأنحاء يا سيد كاريّاس، مثلما يعرقلها وجود القبائل – واصلت الكلام كاتي كولد التي إذا ما اهتمت بشيء لا ترخي قبضتها.

فأقر ماورو كاريّاس :

- الوحش هو مشكلة للجميع. حتى الجنود يخافونه.

- إذا كان الوحش موجوداً، فسوف أعثر عليه. لم يولد بعد الإنسان، وأقل من ذلك الحيوان، الذي يمكنه أن يسخر من لودفيك ليبلانك – ردّ بذلك البروفيسور، وكان من عادته التكلم عن نفسه بضمير الغائب.

فقال النقيب آريوستو عارضاً خدماته :

- يمكنك الاعتماد على جنودي أيها البروفيسور. فهم رجال شجعان، خلافاً لما يؤكده صديقي الطبيب كاريّاس.

وأضاف ماورو كاريّاس :

- يمكنك الاعتماد أيضاً على كل مواردي يا عزيزي البروفيسور

ليبلانك. لدي زوارق مزودة بمحركات وجهاز اتصال لاسلكي من النوع الجيد.

- ويمكنك الاعتماد عليّ أيضاً في مسائل الصحة والحوادث التي يمكن أن تقع – أضافت الدكتورة أومايرا توريس بعذوبة، وكأنها لا تتذكر رفض ليبلانك ضمها إلى الحملة.

- مثلما قلت لك من قبل يا آنسة...

فصححت له من جديد :

- دكتورة.

- مثلما قلت لك، ميزانية هذه الحملة محدودة، ولا يمكننا أخذ سائحين معنا – قال ليبلانك بتفخيم.

- لست سائحة. ولا يمكن للحملة أن تواصل عملها دون وجود طبيب مخوّل، ودون اللقاحات اللازمة.

فتدخل سيسر سانتوس الذي كان يعرف الدكتورة، ويبدو واضحاً أنه يميل إليها :

- الدكتورة على حق. والنقيب آريوستو سيوضح لك القانون.

- إحم، حسن... صحيح أنه... – تلعثم العسكري وهو ينظر إلى ماورو كارياس مشوشاً.

ابتسم رجل الأعمال ووضع ذراعه على كتفي الطبيبة الشابة قائلاً :

- لن تكون هناك مشكلة في ضم أومايرا إلى الحملة. أنا نفسي سأغطي نفقاتها.

- شكراً يا ماورو، ولكنني لن أحتاج إلى ذلك، فنفقاتي تدفعها الحكومة – قالت له ذلك وهي تبتعد عنه دون فظاظة.

فعلق المصور تيموثي برونس :

- حسن، لم يعد هناك ما يقال إذن في هذه الحالة. آمل أن نعثر على الوحش، وإلا فإن هذه الرحلة ستكون بلا طائل.

- ثق بي أيها الشاب. لدي خبرة بهذا النوع من الحيوانات، وقد أعددت بنفسي مصايد لا يمكن لها أن تخيب. يمكنك رؤية نماذج من مصايدي في أطروحتي حول رجل الثلج الشهير في جبال همالايا – أوضح ذلك البروفيسور

بتصعيرة زهو وإعجاب بنفسه، بينما هو يشير إلى كاراكاوي لكي يهوّي بحيوية أكبر.

- وهل اصطدته؟ - سأله أليكس متصنعاً البراءة، لأنه كان يعرف الجواب جيداً.

- لا وجود له يا فتى. فمخلوق الهمالايا المزعوم ذاك ليس سوى أكذوبة. وربما يكون هذا الوحش الشهير هنا أكذوبة أيضاً.

قالت ناديا :

- هناك أناس رأوه.

فقال البروفيسور :

- أناس جهلة دون ريب أيتها الصغيرة.

وألحت ناديا :

- الأب بالدوميرو ليس جاهلاً.

- ومن هو هذا؟

فتدخل النقيب آريوستو :

- إنه مبشر كاثوليكي، اختطفه المتوحشون وأصابه الجنون منذ ذلك الحين – كان النقيب يتكلم الإنكليزية بلكنة فنزويلية قوية، ولم يكن كثير مما يقوله مفهوماً، لأنه يبقي السيجارة بين أسنانه.

صاحت ناديا :

- لم يختطف، وهو ليس مجنوناً كذلك.

- اهدئي يا صغيرة – ابتسم ماورو كاريّاس مداعباً شعر ناديا التي ابتعدت عنه في الحال.

وقال سيسر سانتوس مضيفاً :

- الحقيقة أن الأب بالدوميرو رجل عالم وحكيم. إنه يتكلم عدداً من لغات الهنود، ويعرف نباتات الأمازون خيراً من أي شخص آخر؛ وهو يعالج كسور العظام، ويقلع الأضراس، وقد أجرى في مناسبتين عمليتي إزالة غشاوة الماء الأزرق من العين بمبضع صنعه بنفسه.

- أجل، ولكنه لم ينجح في مكافحة الرذيلة في سانتا ماريا دي لا ليوبيا ولا في تحويل الهنود إلى المسيحية، وأنتم ترون أنه مازال يتجول عارياً – قال ماورو كاريّاس ساخراً.

فرد عليه سيسر سانتوس :

- أشك في أن الهنود يرغبون في أن يصيروا مسيحيين.

وأوضح أنهم روحانيون جداً، يعتقدون أن لكل شيء روحه: الأشجار، والحيوانات، والأنهار، والغيوم. الروح والمادة عندهم لا تنفصلان. وهم لا يفهمون تبسيط ديانة الغرباء، ويقولون إن هذه الديانة ليست سوى قصة مكرورة وحسب، أما هم فلديهم قصص كثيرة عن الآلهة، والشياطين، وأرواح السماء والأرض. وقد رفض الأب بادوميرو أن يشرح لهم أن المسيح مات على الصليب لكي يفتدي البشرية وينقذها من الخطيئة، لأن فكرة التضحية تثير استهجان الهنود وتشوشهم. إنهم لا يعرفون الشعور بالذنب. ولا يفهمون كذلك ضرورة ارتداء ملابس في هذا المناخ، أو ضرورة جمع الثروات، ما داموا لا يستطيعون أخذ شيء معهم إلى العالم الآخر عندما يموتون.

- من المؤسف أنهم سينقرضون، إنهم حلم أي أنثروبولوجي، أليس كذلك يا بروفيسور ليبلانك؟ - قال ماورو كاريّاس ساخراً.

فرد البروفيسور غير مدرك تماماً لسخرية الآخر :

- بلى. ومن حسن الحظ أنني استطعت الكتابة عنهم قبل فنائهم أمام تقدم الحضارة. وسوف يذكرهم التاريخ بفضل لودفيك ليبلانك.

كان العشاء في ذلك اليوم مكوناً من قطع من لحم التابير المشوي، وفاصولياء، وعجّة المنديوكا، فلم يشأ أليكس تذوق شيء منها، بالرغم من أن جوع ذئب كان يعذبه.

بعد العشاء وبينما كانت جدته تشرب الفودكا وتدخن غليونها برفقة رجال الفريق، خرج أليكس مع ناديا إلى المرسى. كان القمر يلمع مثل مصباح أصفر في السماء. وتحيط بهما ضجة الغابة، كخلفية موسيقية: أصوات طيور، زعيق قرود، نقيق ضفادع، وصرير جداجد. آلاف الحباحب تمر محلقة بسرعة خاطفة بجانبهما، ملامسة وجهيهما. أمسكت ناديا واحدة منها بيدها وشبكتها بين شعرها الأجعد، فبقيت هناك تتلألأ مثل مصباح ضوء صغير. كانت الصبية جالسة على رصيف المرسى وقدماها تتدليان في مياه النهر. سألها أليكس عن سمك الضاري، وكان قد رأى أسماكاً من هذا النوع محنطة في دكاكين السياح في ماناوس، كأنها أسماك قرش مصغرة: فطولها شبر وهي مزودة بأفكاك قوية وأسنان حادة

كأنها السكاكين.

- سمك الضاري له فائدة كبيرة، فهو ينظف الماء من الجثث والقمامة. وأبي يقول إن هذه الأسماك لا تهاجم إلا إذا شمت رائحة الدم. وعندما تكون جائعة – أوضحت هي.

روت له أنها رأت في إحدى المرات كيف أن تمساحاً، أصابه نمر جغوار بجرح بليغ، سحب نفسه بصعوبة إلى الماء، فدخلت أسماك الضاري من الجرح والتهمت التمساح من الداخل خلال دقائق، مخلّفة جلده سليماً.

في هذه اللحظة اتخذت البنت موقف التأهب وأومأت له بيدها بأن يلتزم الصمت. بدأ القرد بوروبا بالقفز والصراخ بهياج شديد، لكن ناديا هدأته في لحظة ببعض الهمسات في أذنه. فأحس أليكس بأن القرد الصغير يفهم تماماً كلمات صاحبته. لم يكن يرى سوى ظلال الخضرة ومرآة الماء السوداء، إنما كان واضحاً أن هناك ما أثار انتباه ناديا، لأنها نهضت واقفة. كان يصله من بعيد صوت جيتار منطفئ يداعب أحدهم أوتاره في الضيعة. ولو أنه التفت، لأمكنه رؤية بعض أنوار البيوت وراء ظهره، أما هناك فكانا وحيدين.

أطلقت ناديا صرخة طويلة وحادة رنت في مسمع الصبي شبيهة بصوت بومة، وبعد لحظة رد عليها صوت مماثل من الضفة الأخرى. أعادت هي النداء مرتين أخريين وتلقت الجواب نفسه في المرتين كلتيهما. عندئذ أمسكت أليكس من ذراعه وأومأت إليه بأن يتبعها. تذكر الفتى تحذير سيسر سانتوس بالبقاء ضمن حدود القرية بعد غروب الشمس، كما تذكر القصص التي سمعها عن الأفاعي، والضواري، وقطاع الطرق والسكارى المسلحين. هذا دون التفكير في الهنود الهمجيين الذين يصفهم ليبلانك، أو في الوحش... ولكنه لم يشأ الظهور بمظهر الجبان أمام عيني الفتاة، فتبعها دون أن يتفوه بكلمة، ممسكاً بسكينه متعددة الاستخدامات مفتوحة.

خلفا وراءهما آخر أكواخ القرية وواصلا قدماً بحذر، دون أي ضوء آخر سوى ضوء القمر. بدت الغابة أقل كثافة مما كان يظنه أليكس: فالخضرة تتشابك بكثافة على ضفتي النهر فقط، ولكنها تتناقص بعد ذلك ويكون بالإمكان التقدم دون صعوبة كبيرة. لم يكونا قد مضيا بعيداً حين تكرر نداء البومة. كانا في مكان مكشوف من الغابة، حيث

يمكن رؤية القمر لامعاً في القبة السماوية. توقفت ناديا منتظرة دون حراك؛ وحتى القرد بوروبا كان هادئاً، كما لو أنه يعرف ما ينتظرهم. وفجأة قفز أليكس إلى الوراء متفاجئاً: فعلى بعد أقل من ثلاثة أمتار تجسدت صورة خارجة من الليل، مباغتة ومتكتمة، مثل شبح. أشهر الفتى سكينه مستعداً للدفاع عن نفسه، ولكن هدوء ناديا أوقف حركته في منتصفها.

دمدمت الفتاة بصوت خافت:

- آيا.

- آيا، آيا... – ردّ صوت بدا لأليكس غير إنساني، وإنما أشبه بصفير الريح.

تقدمت تلك الهيئة خطوة وصارت قريبة جداً من ناديا. وفي أثناء ذلك كانت عينا أليكس قد اعتادتا على العتمة واستطاع أن يرى، على ضوء القمر، رجلاً مسناً بصورة لا تصدق. يبدو وكأنه قد عاش قروناً، على الرغم من وقفته المنتصبة وحركاته الرشيقة. لقد كان ضئيلاً جداً، وقدر أليكس بأن طول قامته أقل من قامة أخته نيكول التي لا يزيد عمرها عن تسع سنوات. كان يستخدم وزرة من ألياف نباتية وتغطي صدره نحو عشرة عقود من الصدف، والبذور، وأسنان الخنازير البرية. أما بشرته فمجعدة مثل جلد فيل ألفي، يترهل جلده في ثنيات فوق هيكله العظمي الهش. وكان يحمل رمحاً قصيراً، وعصا يعلق فيها مجموعة من الأجرية الجلدية الصغيرة، وأنبوباً من حجر الكوارتز يرن مثل جلجل طفل رضيع. رفعت ناديا يدها إلى شعرها، وانتزعت منه الحباحب المضيء وقدمته إليه؛ تقبله العجوز الهرم، ووضعه بين عقوده. جثت هي على ركبتيها وأومأت إلى أليكس ليحذو حذوها، كدليل على الاحترام. وفي الحال انحنى الهندي أيضاً، وهكذا صار الثلاثة عند مستوى واحد.

قفز بوروبا وتعلق بكتفي الشيخ، وراح يشده من أذنيه؛ فأبعدته صاحبته بحركة من يدها بينما انفجر العجوز ضاحكاً بشهية. بدا لأليكس أنه لا وجود ولو لسن واحدة في فمه، ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك لعدم وجود ضوء. انخرط الهندي وناديا في محادثة طويلة بإيماءات وأصوات بلغة ترن كلماتها بعذوبة، كأنها النسيم والماء والطيور. خمّن أنهما يتكلمان عنه، لأنهما كانا يشيران إليه. وفي إحدى اللحظات نهض الرجل واقفاً وهز

رمحه القصير بغضب شديد، ولكنها هدأته بشروحات طويلة. وأخيراً انتزع الرجل تميمة من عنقه، هي قطعة عظم منحوتة، ورفعها إلى شفتيه لينفخ فيها. الصوت الذي انطلق منها هو صوت البومة نفسه الذي سمعه من قبل، وهو صوت تعرف عليه أليكس لأن هذا النوع من الطيور يوجد بكثرة في محيط بيته شمالي كاليفورنيا. علق العجوز الفريد التميمة حول عنق ناديا، ووضع يديه على كتفيها مودعاً ثم اختفى فوراً بالطريقة المتكتمة التي جاء بها. يمكن للصبي أن يقسم بأنه لم يره يتراجع، وإنما تلاشى ببساطة.

قالت له ناديا في أذنه :

- هذا هو واليماي.

- واليماي؟ - سألها أليكس وهو ما يزال متأثراً بذلك اللقاء الغريب.

- هس! لا تقل ذلك بصوت عال! يجب عدم ذكر الاسم الحقيقي لأي هندي بحضوره، إنه تابو. وأسوأ من ذلك ذكر أسماء الموتى، فهذا تابو آخر أقوى بكثير، لأن في ذلك إهانة كبيرة – أوضحت ناديا.

- ومن يكون؟

- إنه تشامان، يعني ساحر يتمتع بقوى خارقة. يتكلم من خلال الأحلام والرؤى. ويمكنه السفر إلى عالم الأرواح متى شاء. وهو الوحيد الذي يعرف الطريق إلى " إلدورادو ".

- إلدورادو؟ مدينة الذهب التي ابتدعها الفاتحون الإسبان؟ إنها أسطورة سخيفة!

وفندت الفتاة قوله :

- لقد كان واليماي هناك مرات كثيرة مع امرأته. وهو يتنقل برفقتها على الدوام.

- ولكنني لم أرها.

- إنها روح. ولا يمكن للجميع أن يروها.

- هل رأيتها أنت؟

- أجل. إنها شابة وجميلة جداً.

- ومالذي أعطاك إياه الساحر؟ وعم تحدثتما؟ - سألها أليكس.

- أعطاني طلسم. وبه سأكون دائماً في أمان؛ لن يكون بإمكان أحد،

سواء من البشر أو الحيوانات أو الأشباح، أن يلحق بي الأذى. وهو ينفعني أيضاً في استدعائه، يكفي أن أصفر به لكي يحضر. لم يكن بمقدوري استدعاؤه قبل الآن، كان عليّ أن أنتظر مجيئه فقط. يقول واليماي إنني سأحتاج إليه لأن هناك أخطاراً كثيرة، ولأن راهاكاناريوا، روح الطائر آكل اللحم البشري، تمضي طليقة. وعندما تظهر يكون هناك موت ودمار، ولكنني سأكون محمية بهذا الطلسم.

- أنت بنت غريبة جداً... – تنهد أليكس، دون أن يصدق نصف ما قالته.

- يقول واليماي إنه يجب على الغرباء ألا يذهبوا للبحث عن الوحش. ويقول إن عديدين سيموتون. أما أنت وأنا فعلينا الذهاب، لأننا مستدعون، ولأن روحنا بيضاء.

- ومن الذي استدعانا؟

- لا أدري، ولكن إذا ما كان واليماي قد قال ذلك، فهو صحيح.

- هل تصدقين حقاً هذه الأشياء يا ناديا؟ هل تؤمنين بالسحرة، وبوجود طيور آكلة لحم بشري، وإلدورادو، وزوجات غير مرئيات، والوحش؟

استدارت البنت دون أن تجيب، وبدأت المسير نحو القرية، فتبعها هو عن قرب، لكي لا يضيع عنها.

- 6 -

الخطة

نام ألكسندر كولد تلك الليلة مروّعاً، كان يشعر أنه مكشوف في العراء، كما لو أن الجدران الهشة التي تفصله عن الغابة قد تحللت وصار معرضاً لكل أخطار ذلك العالم المجهول. فالفندق المشيد من ألواح خشبية تستند إلى دعائم، وبسقف من التوتياء، ونوافذ بلا زجاج، يكاد لا ينفع للاحتماء من المطر. وكان الضجيج الذي تثيره الضفادع والحيوانات الأخرى في الخارج ينضم إلى شخير زملائه في الحجرة. زد على ذلك أن أرجوحة النوم قد انقلبت به مرتين، ملقية إياه أرضاً على وجهه، قبل أن يتذكر طريقة استخدامها بالاستلقاء فيها محورياً للحفاظ على التوازن. لم يكن الجو حاراً، ولكنه كان يتعرق مع ذلك. بقي مؤرقاً في العتمة لوقت طويل، تحت كلّته المضمخة بمحلول مضاد للحشرات، مفكراً في الوحش، والعناكب السامة، والعقارب، والحيات، والمخاطر الأخرى التي تترصد في الظلام. استعاد في ذهنه المشهد الغريب الذي شهده بين الهندي وناديا. لقد تنبأ التشامان بأن عدداً من أعضاء الحملة سيموتون.

لم يكن أليكس قادراً على تصديق هذا الانقلاب الكبير الذي شهدته حياته خلال أيام قليلة، فهو يجد نفسه فجأة في مكان خيالي، حيث الأرواح تتجول بين الأحياء، مثلما قالت له جدته. لقد انقلب الواقع، ولم يعد يعرف ماذا يمكنه أن يصدق. أحس بحنين شديد إلى بيته وأسرته، وحتى إلى كلبه بونتشو. لقد كان وحيداً وبعيداً جداً عن كل ما هو معروف له.

لو أنه يستطيع أن يعرف فقط كيف هي حال أمه! ولكن الاتصال هاتفياً من هذه القرية إلى مستشفى في تكساس هو أشبه بمحاولة الاتصال بكوكب المريخ. لم تكن كاتي بالرفيقة الجيدة ولا بالعزاء المناسب. فهي تفتقد، كجدة، أشياء كثيرة مرغوبة، ولا تكلف نفسها مشقة الرد على أسئلته، لأنها ترى أن الشيء الوحيد الذي يمكن للمرء أن يتعلمه هو ما يتقصاه وحيداً. وتؤكد أن التجربة هي ما يمكن الحصول عليه عندما يحتاج أحدنا إليها.

كان يتقلب في الأرجوحة، دون أن يتمكن من النوم، عندما بدا له أنه يسمع تمتمة أصوات. يمكن لها أن تكون ضوضاء الغابة فقط، ولكنه قرر تقصي ذلك. اقترب باحتراس، حافياً وبملابسه الداخلية، من الأرجوحة التي تنام فيها ناديا إلى جوار أبيها، في الجهة الأخرى من القاعة المشتركة. ووضع يده على فم الفتاة وهمس باسمها في أذنها، محاولاً عدم إيقاظ الآخرين. فتحت هي عينيها مذعورة، ولكنها اطمأنت حين عرفته ونزلت من أرجوحة نومها بخفة هر، مشيرة بحركة حاسمة لقردها بوروبا كي يبقى هادئاً. انصاع لها القرد الصغير فوراً، وبقي متكوراً على نفسه في أرجوحة النوم، فقارنه أليكس بكلبه بونتشو الذي لم يتوصل قط إلى جعله يفهم أبسط الأوامر. خرجا بخفة، متسللين بجوار الفندق إلى الشرفة، وهي المكان الذي سمع أليكس الأصوات تأتي منه. اختبآ في مثلث الباب، ملتصقين بالجدار، ومن هناك لمحا النقيب آريوستو وماورو كاريّاس جالسين إلى منضدة صغيرة، يدخنان ويشربان، ويتكلمان بصوت خافت، كان وجهاهما مرئيين بوضوح على ضوء السجائر ومادة مضادة للحشرات لها شكل حلزوني تحترق على المنضدة. هنأ أليكس نفسه على استدعائه ناديا، لأن الرجلين يتكلمان بالإسبانية.

- أنت تعرف ما الذي عليك عمله يا آريوستو – قال كاريّاس.

- لن يكون ذلك سهلاً.

فأكد ماورو كاريّاس :

- لو أنه كان سهلاً، لما احتجت إليك، ولما دفعت لك أيضاً يا رجل.

وقال النقيب :

- لا أحب المصورين، لأنهم قد يورطوننا في مشاكل. أما بالنسبة للكاتبة، فدعني أقول لك إن هذه العجوز تبدو لي ماكرة جداً.

فردّ كاريّاس :

- لا غنى لنا عن الأنثروبولوجي، والكاتبة، والمصورين من أجل تنفيذ خطتنا. سيخرجون من هنا ليرووا القصة التي تناسبنا، وسيحول ذلك دون أن تدور أي شبهات حولنا. ونتجنب بذلك أن يرسل الكونغرس لجنة تحقيق في الأحداث، مثلما حدث من قبل. في هذه المرة سيكون هناك فريق من الانترناشيونال جيوغرافيك كشهود.

- لست أفهم لماذا تحمي الحكومة هذه الحفنة من المتوحشين. إنهم يشغلون آلاف الكيلومترات المربعة التي يجب توزيعها على المستوطنين، وهكذا يصل التقدم إلى هذا الجحيم – علق النقيب.

- كل شيء في وقته يا آريوستو. في هذه الأراضي يوجد عقيق وماس. وقبل أن يأتي المستوطنون لقطع الأشجار وتربية الأبقار، سنكون أنا وأنت قد صرنا ثريين. لا أريد مغامرين في هذه الأنحاء حالياً .

- لن يسمح لهم بالمجيء إذن. فمن أجل هذا وجد الجيش يا صديقي كاريّاس، من أجل السهر على القانون. أوليس من واجبنا حماية الهنود؟ - قال النقيب آريوستو ذلك وضحكا معاً بشهية.

- لقد خططت لكل شيء، وسيذهب شخص أثق به مع الحملة.

- من هو؟

فقال رجل الأعمال :

- أفضل عدم ذكر اسمه الآن. الوحش هو الذريعة التي ستجعل الأبله ليبلانك والصحفيين يذهبون إلى المكان الذي نريدهم أن يكونوا فيه بالضبط، وسوف يغطون الخبر. سيتصلون بالهنود، فهذا لا مفر منه. لا يمكنهم التوغل في مثلث أعالي نهر أورينوكو للبحث عن الوحش دون أن يلتقوا بالهنود.

- خطتك تبدو لي معقدة جداً. لدي أناس متكتمون، ويمكننا القيام بالعمل دون أن يعلم به أحد – أكد النقيب آريوستو، وهو يرفع الكأس إلى شفتيه.

فقال كاريّاس :

- لا يا رجل! ألم أوضح لك بأنه علينا الاعتصام بالصبر؟

وطلب منه آريوستو:

- اشرح لي الخطة من جديد.

- لا تقلق، فأنا نفسي سوف أهتم بأمر الخطة. وفي أقل من ثلاثة أشهر سنكون قد أفرغنا المنطقة.

في هذه اللحظة أحس أليكس بشيء ينسل على قدمه، وخنق صرخته: إنها حية تزحف على قدمه العارية. رفعت ناديا إصبعاً إلى شفتيها، مشيرة إليه بألا يتحرك. نهض كاريّاس وآريوستو واقفين، متنبهين، وأخرج كل منهما سلاحه في الوقت نفسه. أضاء النقيب مصباحه اليدوي وكنس به المنطقة المحيطة، ماراً بحزمة الضوء على بعد سنتمترات قليلة من المكان الذي يختبئ فيه الصغيران. كان ذعر أليكس كبيراً إلى حد كان مستعداً معه إلى مواجهة المسدسات بطيب خاطر إذا ما تمكن من إبعاد الأفعى التي أخذت تلتف الآن على كاحله، ولكن يد ناديا ثبتته من ذراعه، وأدرك أنه لا يستطيع أن يجازف كذلك بحياتها.

- من هناك؟ - دمدم النقيب دون أن يرفع صوته كيلا ينبه النائمين داخل الفندق.

صمت.

- هيا بنا يا آريوستو – أمره كاريّاس.

عاد العسكري إلى كنس المكان بمصباحه اليدوي، ثم تراجع الاثنان حتى السلم المؤدي إلى الشارع، وهما ما يزالان يحملان مسدسيهما في يديهما. مرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يشعر الصبيان بأنه يمكنهما التحرك دون لفت الانتباه. وفي أثناء ذلك كانت الأفعى تلتف على ساق أليكس، وصار رأسها عند مستوى ركبته، وكان العرق يسيل مدراراً من جسد الصبي. خلعت ناديا قميصها، ولفته على يدها اليمنى، ثم أمسكت الأفعى بحذر قريباً جداً من رأسها. أحس هو في الحال بأن الأفعى أخذت تضغط على ساقه بشدة أكبر وهي تهز ذيلها بنزق، ولكن الفتاة أمسكت بها بقوة وراحت تفصلها دون خشونة عن ساق صديقها الجديد، إلى أن صارت تتدلى في يدها. هزت ذراعها في حركة دورانية، لتستجمع قوة دفع، ورمت الأفعى من فوق حاجز الشرفة، باتجاه الظلام. ثم أعادت على الفور ارتداء قميصها، بأكثر ما يمكن من الهدوء.

- أهي من النوع السام؟ - سأل الفتى المرتعش عندما تمكن من النطق.

- أجل، أظن أنها من فصيلة السوروكوكو، ولكنها ليست كبيرة جداً. ففمها صغير ولا يمكنها فتح فكيها كثيراً، يمكن لها أن تعض إصبعاً فقط، وليس ساقاً – ردت ناديا بذلك، ثم بادرت إلى ترجمة ما دار من حوار بين كاريّاس وآريوستو. وسألته أخيراً :

- ما هي خطة هذين الشريرين؟ وما الذي يمكننا عمله؟

فأجابها الصبي :

- لست أدري. الشيء الوحيد الذي يخطر لي هو أن نستشير جدتي في الأمر، ولكنني لا أعرف إن كانت ستصدقني؛ إنها تقول إنني مصاب بالبارانويا، وإنني أرى أعداءً وأخطاراً في كل مكان.

فاقترحت هي :

- يمكننا في الوقت الحاضر أن ننتظر ونراقب الأمور يا أليكس...

عاد الصغيران إلى أرجوحتي نومهما. وقد غفا أليكس على الفور، مستنفداً، واستيقظ عند الفجر على صخب القرود الذي يصم الآذان. كان يشعر بجوع نهم لا يتورع معه عن أكل معجنات أبيه بشهية، ولكن لم يكن هناك شيء يلقيه في فمه، ولا بد له من الانتظار ساعتين حتى يكون رفاقه في الرحلة جاهزين لتناول الفطور. قدموا له قهوة قوية، وبيرة ساخنة وبقايا لحم التابير المقلي المتبقية من الليلة السابقة. رفض كل ذلك بقرف. فهو لم يكن قد رأى تابيراً من قبل، وكان يتصور أنه حيوان يشبه جرذاً كبيراً؛ ولكنه سيفاجأ بعد أيام قليلة حين يتأكد بأم عينه من أنه حيوان يزن أكثر من مئة كيلوغرام، ويشبه الخنزير، وأن لحمه لذيذ جداً. مد يده إلى موزة، ولكنها كانت مرة المذاق وخلفت خشونة في لسانه، وقد عرف بعد ذلك أن هذا النوع من الموز يجب طهوه قبل أن يؤكل. رجعت ناديا التي كانت قد خرجت باكراً للاستحمام في النهر مع فتيات أخريات، وكانت تضع زهرة ندية على إحدى أذنيها، والريشة الخضراء نفسها في الأذن الأخرى، بينما بوروبا متعلق بعنقها، وتحمل في يدها نصف ثمرة أناناس. كان أليكس قد قرأ يوماً أن الثمرة الوحيدة المضمونة في المناطق الاستوائية هي التي يقشرها المرء بنفسه، ولكنه رأى أن خطر الإصابة بعدوى التيفوس أهون عليه من سوء التغذية. فالتهم ثمرة الأناناس التي قدمتها إليه شاكراً.

بعد دقائق من ذلك ظهر الدليل سيسر سانتوس، وقد اغتسل جيداً مثل ابنته، ودعا بقية أعضاء الحملة المتعرقين إلى الذهاب للغطس عدة مرات في ماء النهر. لحق به الجميع، باستثناء البروفيسور ليبلانك الذي أرسل كاراكاوي لإحضار عدة دلاء من الماء ليستحم على الشرفة، لأن فكرة السباحة برفقة أسماك المنتاريّا المسطحة لم تكن تستهويه. كان بعضها بحجم سجادة، ولم تكن أذيالها القوية قاطعة كمنشار وحسب، وإنما هي تنفث سماً كذلك. وقدر أليكس أنه بعد تجربته مع حية الليلة السابقة، لم يعد يفكر في التراجع حيال خطر اللقاء بسمكة، مهما كان سوء سمعتها. فألقى بنفسه في الماء بادئاً برأسه.

وقد وجهه سيسر سانتوس :

- أسماك المنتاريّا رعديدة وتعيش على فرشة النهر. وهي تهرب عادة عندما تشعر بحركة في الماء، ولكن من الملائم على كل حال أن تسير في الماء ساحباً قدميك كيلا تدوس عليها.

لقد كان الحمام ممتعاً ووفر له الانتعاش والنظافة.

- 7 -

الجغوار الأسود

قبل الانطلاق، دعي أعضاء الحملة الاستكشافية إلى معسكر ماورو كاريّاس. اعتذرت الدكتورة أومايرا توريس، قائلة أنها ستشرف على إعادة المبشّرين المورمونيين الشابين إلى ماناوس في طائرة هيلوكبتر تابعة للجيش، لأن حالتهما بدأت تسوء. كان المعسكر مؤلفاً من عدة مقطورات، نقلت بواسطة طائرة هيلوكبتر ووضعت على شكل دائري في مكان منبسط وأجرد من الغابة، على بعد حوالي كيلومترين من سانتا ماريا دي لا ليوبيا. وكانت منشآت المعسكر فاخرة بالمقارنة بأكواخ القرية ذات السقوف الصفيحية. ففيه مولد كهربائي، وهوائي جهاز إرسال لاسلكي، وألواح طاقة شمسية.

و كانت لدى كاريّاس مواقع أخرى مماثلة في عدة نقاط استراتيجية من الأمازون، يشرف منها على أعماله وصفقاته المتنوعة، ابتداء من استغلال الأخشاب وحتى مناجم الذهب، ولكنه يعيش بعيداً عن كل ذلك. يقال إنه يملك قصوراً تليق بالأمراء في كل من كاراكاس، وريو دي جانيرو، وميامي، وله زوجة في كل واحد منها. وهو يتنقل في طائرته الفخمة أو طائرته الصغيرة الخاصة، كما أنه يستخدم وسائل نقل الجيش التي يضعها بعض أصدقائه الجنرالات تحت تصرفه. ولأنه لا يوجد في سانتا ماريا دي لا ليوبيا مطار يمكن لطائرته " الجت " أن تحط فيه، فإنه يستخدم طائرته الصغيرة ذات المحركين التي تبدو باهرة إذا ما قورنت بطائرة سيسر سانتوس الشبيهة بطائر هرم من حديد صدئ. وقد لفت انتباه كاتي كولد أن المعسكر محاط بأسلاك شائكة مكهربة ويحرسه خفراء مسلحون. فعلقت قائلة لحفيدها :

- ما الذي يملكه هذا الرجل هنا ويتطلب كل هذه الحراسة؟

لقد كان ماورو كاريّاس أحد المغامرين القلائل الذين تحولوا إلى الثراء في الأمازون. فهناك آلاف وآلاف الباحثين عن الذهب الذين يتوغلون، مشياً على الأقدام أو في زوارق صغيرة منحوتة من الجذوع، عبر الغابة والأنهار بحثاً عن مناجم ذهب أو مكامن ماس، يشقون طريقهم بضربات مناجل المتشيتي وسط الخضرة الكثيفة، يأكلهم النمل، والعلق، والبعوض. كثيرون منهم يموتون بالملاريا، وآخرون بالرصاص، وغيرهم من الجوع والوحدة؛ فتتعفن جثثهم في قبور مجهولة أو تأكلها الضواري.

يقال إن كاريّاس بدأ ثروته بالدجاج: كان يطلق الدجاج في الغابة ثم يشق صدوره بعد ذلك ليحصد منها حبيبات الذهب التي تكون الدجاجات التعسة قد ابتلعتها. ولكن هذه الأقوال، مثل تقولات كثيرة عن ماضي الرجل، لابد أن تكون مبالغات، لأن الذهب ليس مزروعاً مثل الذرة في أراضي الأمازون. ولكن كاريّاس لم يكن، على أي حال، مضطراً قط إلى المجازفة بصحته مثلما يفعل الباحثون عن الذهب التعساء، لأنه يرتبط بعلاقات طيبة، ولديه عين جيدة للصفقات التجارية، وهو يعرف كيف يأمر ويفرض احترامه؛ وما لا يحصل عليه بالحسنى، يناله بالقوة. كثيرون يهمسون من وراء ظهره بأنه مجرم، ولكن ليس هناك من يتجرأ على قول ذلك في وجهه؛ إذ لا يمكن إثبات أن يديه ملوثتان بالدم. لم يكن في مظهره ما يشير إلى التهديد أو يبعث على الريبة، فهو رجل لطيف، وسيم، برونزي البشرة، له يدان مشذبتان بعناية وأسنان ناصعة البياض، يرتدي ملابس رياضية فاخرة. وهو يتكلم بصوت مترنم، وينظر مباشرة إلى عيني محدثه، كما لو أنه يريد التأكد من صدقه في كل جملة يقولها.

استقبل رجل الأعمال أعضاء فريق الانترناشيونال جيوغرافيك في إحدى المقطورات المكيفة كصالون، وفيها كل وسائل الراحة المتوفرة في القرية. وكانت ترافقه امرأتان شابتان وجذابتان، تقومان بتقديم المشروبات وتشعلان السجائر، ولكنهما لا تتفوهان بنصف كلمة. وفكر أليكس في أنهما لا تتكلمان الإنكليزية. قارنهما بمرجانة. الفتاة التي سرقت حقيبته في نيويورك، لأن لهما السلوك الوقح نفسه. احمر خجلاً حين فكر في مرجانة، وعاد يتساءل كيف أمكن له أن يكون ساذجاً إلى ذلك الحد ويسمح لها بخداعه بتلك الطريقة. لم تكن تظهر في المعسكر نساء

أخريات باستثناء هاتين المرأتين، أما الآخرون، فهم جميعهم رجال مسلحون حتى الأسنان. قدم لهم المضيف غداءً شهياً من الأجبان، واللحوم الباردة، والمحار، والفواكه، والمثلجات ومأكولات فاخرة أخرى مجلوبة من كاراكاس. وهكذا أمكن للصبي الأمريكي أن يأكل بشهية لأول مرة منذ مغادرته بلاده.

توجه ماورو كاريّاس إلى الدليل سائلاً :

- يبدو أنك تعرف هذه المنطقة جيداً يا سانتوس. منذ متى تعيش هنا؟

فرد الآخر:

- طوال حياتي. لا يمكنني العيش في مكان آخر.

- لقد قيل لي أن امرأتك مرضت هنا. يؤسفني ذلك جداً... ولكنني لا أستغرب الأمر، فقلة هم الأجانب الذين يستطيعون البقاء في هذه العزلة وهذا المناخ. وصغيرتك هذه، ألا تذهب إلى المدرسة؟ - ومدّ كاريّاس يده ليلمس ناديا، ولكن بوروبا كشّر له عن أسنانه.

وقالت ناديا باعتزاز :

- لست مضطرة إلى الذهاب إلى المدرسة. فأنا أعرف القراءة والكتابة.

فابتسم كاريّاس :

- بهذا لن تحتاجي إلى المزيد يا جميلتي.

وأضاف أبوها:

- وناديا تعرف الطبيعة أيضاً، وتتكلم الإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية وعدة لغات هندية.

- وما هذا الذي تعلقينه في عنقك يا جميلتي؟ - سألها كاريّاس بنبرته الحانية.

فقالت له :

- اسمي ناديا.

- أرني عقدك يا ناديا – ابتسم رجل الأعمال مظهراً أسنانه المنتظمة.

- إنه مسحور، لا يمكنني خلعه من عنقي.

- هل تريدين بيعه؟ أنا سأشتريه منك – قال ماورو كاريّاس ساخراً.

فصرخت وهي تبتعد عنه :

- لا!

تـدخل سيسـر سـانتوس للاعتـذار عـن طبـاع ابنتـه المشاكسـة. وكـان يستغرب كيف يضيع الرجل المهم وقته في المزاح مع بنت صغيرة. لم يكن هناك من ينتبه إلى ناديا من قبل، ولكن ابنته بدأت تلفت الأنظار في الشهور الأخيرة، وهذا ما لا يروقه بأي حال. وعلّق كاريّاس بأنه إذا ما بقيت الفتاة تعيش طوال الوقت في الأمازون، فإنها لن تكون مهيأة للمجتمع. وقال: أي مستقبل ينتظرها؟ إنها تبدو ذكية وإذا ما توفرت لها تربية جيدة سيكون بمقدورها الوصول بعيداً. بل إنه عرض أن يأخذها معه إلى المدينة، حيث يستطيع إرسالها إلى مدرسة وتحويلها إلى آنسة مهذبة، كما هو مفروض.

فرد عليه سانتوس :

- لا يمكنني الابتعاد عن ابنتي، ولكنني أشكرك على أي حال.

وأضاف رجل الأعمال :

- فكر في الأمر يا رجل. وسوف أكون بمقام عرّابها...

وهنا قاطعته ناديا :

- وأنا أستطيع التحدث مع الحيوانات أيضاً.

قوبلت كلمات ناديا بقهقهة عامة. والوحيدون الذين لم يضحكوا هم أبوها، وأليكس وكاتي كولد.

- إذا كنت قادرة على التكلم مع الحيوانات، فربما استطعت أن تنفعيني كمترجمة مع واحد من مجموعة حيواناتي. تفضلوا معي – دعاهم رجل الأعمال بنبرة مهذبة.

لحقوا بماورو كاريّاس إلى فناء تشكله المقطورات المصفوفة بشكل دائري، وكان هناك في منتصفه قفص مرتجل مصنوع من أغصان و شباك قن دجاج. وفي داخله كان يتمشى نمر أسود ضخم بحركات الجنون التي تميز الضواري الحبيسة. كان جغواراً أسود، أحد أجمل الجغوارات التي يمكن مشاهدتها في هذه الأنحاء، جلده لامع وعيناه بلون الياقوت الأصفر. وعند رؤيته أطلق بوروبا صرخة حادة، وقفز عن كتف ناديا هارباً بأقصى سرعة، فلحقت به الصغيرة وهي تناديه دون جدوى. فوجئ أليكس لأنه لم يكن قد رأى حتى ذلك الحين القرد يبتعد بإرادته عن صاحبته. وعلى الفور وجه المصورون عدساتهم نحو الحيوان الضاري وأخرجت كاتي كولد أيضاً آلة تصويرها الأوتوماتيكية الصغيرة من حقيبتها. أما البروفيسور ليبلانك فبقي على مسافة حذرة.

قال كاريّاس :

- الجغوارات السوداء هي أكثر الحيوانات رهبة في أميركا الجنوبية. فهي لا تتراجع أمام شيء. إنها باسلة.

فقال سيسر سانتوس :

- إذا كنت تقدره فلماذا لا تطلق سراحه؟ فهذا القط يفضل الموت على البقاء أسيراً.

- أطلق سراحه؟ ولا بأي حال يا رجل! لدي حديقة حيوان صغيرة في بيتي في ريو دي جانيرو. وأنا أنتظر وصول قفص مناسب لكي أرسله إلى هناك.

كان أليكس قد تقدم في خطوات واسعة، مفتوناً برؤية هذا الحيوان الهري الضخم. صاحت جدته بصرخة تحذير لم يسمعها، وواصل التقدم إلى أن لمس بكلتا يديه شبكة الأسلاك التي تفصله عن الحيوان. توقف الجغوار، وأطلق زمجرة رهيبة ثم صوب نظرته الصفراء إلى أليكس؛ كان ثابتاً دون حراك، عضلاته مشدودة وجلده بلون كهرمان نابض. خلع الفتى نظارته التي يستخدمها منذ السابعة من عمره، وأفلتها لتسقط على الأرض. كان قريباً إلى حد تمكن معه من تمييز كل لطخة ذهبية في حدقتي الحيوان الضاري، بينما عيونهما تلتقي في حوار صامت. لقد اختفى كل شيء: وجد نفسه وحيداً في مواجهة الحيوان وسط سهل ذهبي، محاطاً بأبراج سوداء شاهقة، تحت سماء بيضاء تطفو فيها ست أقمار لامعة، كأنها رؤوس ميدوزات. رأى الحيوان الهري يفتح شدقيه، حيث تلمع أسنانه الكبيرة اللؤلؤية، وبصوت بشري، ولكنه يبدو آتياً من أعماق مغارة، نطق باسمه: " ألكسندر ". فرد هو بصوته نفسه، ولكنه بدا كهفياً أيضاً: " جغوار ". كرر الحيوان والفتى هاتين الكلمتين ثلاث مرات، ألكسندر، جغوار، ألكسندر، جغوار، ألكسندر، جغوار، وعندئذ تحول رمل الساحة إلى فوسفوري، وانقلبت السماء سوداء وبدأت الأقمار الستة تنفلت من أفلاكها وتهوي مثل مذنبات.

في هذه الأثناء كان ماورو كاريّاس قد أصدر أمراً، فأحضر أحد رجاله قرداً يجره بحبل. وما إن رأى القرد الجغوار حتى انتابته ردة فعل مشابهة لما أصاب بوروبا، فبدأ يزعق ويقفز ويضرب بيديه، ولكنه لم يستطع الإفلات. أمسك به كاريّاس من عنقه، وقبل أن يتمكن أحد من إدراك نواياه، فتح باب القفص بحركة سريعة ودقيقة ورمى القرد المرعوب داخلاً.

استولت المفاجأة على المصورين، وكان لابد لهما من بذل جهد لكي يتذكرا أنهما يحملان آلات تصوير بين أيديهما. تابع ليبلانك مبهوراً كل حركة من حركات القرد التعس الذي كان يتسلق الأسلاك باحثاً عن مخرج، والحيوان الضاري الذي يلاحقه بعينيه مترصداً، ومتأهباً للقفز. اندفع أليكس راكضاً، دون أن يفكر في ما يفعله، فداس نظارته التي ما زالت على الأرض، محولاً عدستيها إلى فتات. ألقى بنفسه باتجاه باب القفص مستعداً لإنقاذ الحيوانين كليهما، القرد من الموت المحقق والجغوار من الأسر. ركضت كاتي أيضاً حين رأت حفيدها يفتح المزلاج، ولكن قبل أن تصل إليه كان اثنان من رجال كاريّاس قد أمسكا بالصبي من ذراعيه ودخلا في صراع معه. كل شيء حدث في وقت واحد وبسرعة كبيرة إلى حد لم يستطع معه أليكس أن يتذكر توالي الأحداث فيما بعد. وبضربة واحدة من براثنه، أوقع الجغوار القرد أرضاً ثم مزقه بعضة واحدة من فكيه الرهيبين. تطاير الدم في كل الاتجاهات. وفي هذه اللحظة أخرج سيسر سانتوس مسدسه من حزامه وأطلق رصاصة صائبة على جبهة الحيوان المفترس. أحس أليكس كما لو أن الرصاصة قد أصابته بين عينيه، وكان سيسقط أرضاً على ظهره لو لم يكن حراس كاريّاس يثبتونه من ذراعيه ويحملونه معلقاً في الهواء عملياً.

- ما الذي فعلته أيها التعس! – صرخ رجل الأعمال، وهو يخرج مسدسه أيضاً، متوجهاً إلى سيسر سانتوس.

أفلت الحراس أليكس الذي فقد توازنه وسقط أرضاً، ليواجهوا الدليل، ولكنهم لم يجرؤوا على لمسه لأنه كان ما يزال يمسك بمسدسه المدخن.

- لقد منحته حريته – أجاب سيسر سانتوس بهدوء مذهل.

بذل ماورو كاريّاس جهداً لكبح نفسه. فقد أدرك أنه لا يمكنه خوض مواجهة معه بالرصاص أمام الصحفيين وليبلانك. ثم أمر حراسه :

- اهدؤوا!

- لقد قتله! لقد قتله! – كررها ليبلانك وقد اصطبغ بحمرة الإثارة. فقد أصابه موت القرد ثم موت الحيوان الهري بالجنون، فراح يتصرف كمخمور.

فقال كاريّاس :

- لا تقلق يا بروفيسور ليبلانك، يمكنني الحصول على ما أريده من الحيوانات. أرجو معذرتكم، وأخشى أنه كان مشهداً غير ملائم للقلوب اللينة.

ساعدت كاتي كولد حفيدها على النهوض، ثم أمسكت سيسر سانتوس من ذراعه واقتادته نحو المخرج، دون أن تسمح بمزيد من التوتر في الموقف. استسلم الدليل للكاتبة التي اقتادته، وتبعهما أليكس. وفي الخارج وجدوا ناديا ومعها بوروبا المذعور متعلقاً بخاصرتها.

حاول أليكس أن يشرح لناديا ما جرى له مع الجغوار قبل أن يدخل ماورو كاريّاس القرد إلى القفص، ولكن كل شيء اختلط في ذهنه. لقد كانت تجربة شديدة الواقعية إلى حد يمكن للفتى أن يقسم معه إنه كان لبضع لحظات في عالم آخر، عالم رمال مشعة وستة أقمار تدور في القبة السماوية، عالم انصهر فيه هو والجغوار في صوت واحد. وبالرغم من أنه لم يجد الكلمات ليخبر صديقته بالمشاعر التي انتابته، إلا أنها بدت متفهمة لما أراد قوله دون أن تحتاج إلى سماع التفاصيل، فقالت :

- لقد تعرف الجغوار عليك لأنه حيوانك الطوطمي، فلكل واحد منا روح حيوان ترافقه. إنها مثل روحنا. ولكن، لا يتمكن الجميع من العثور على حيوانهم، اللهم إلا المحاربين الأشداء والتشامانات، أما أنت فقد اكتشفته دون أن تبحث عنه. اسمك جغوار.

- جغوار؟

- ألكسندر هو الاسم الذي أطلقه عليك أبواك، أما جغوار فهو اسمك الحقيقي، ولكي تستخدمه لا بد لك من امتلاك طبيعة الجغوار.

- وكيف هي طبيعته؟ هل هو قاس ودموي؟ - سألها أليكس مفكراً بفكي الحيوان المفترس يمزقان القرد في قفص كاريّاس.

- الحيوانات ليست قاسية، مثلما هم البشر، فهي لا تقتل إلا للدفاع عن نفسها أو عندما تجوع.

- وهل لك أنت أيضاً حيوان طوطمي يا ناديا؟

- أجل، ولكنه لم ينكشف لي بعد. وعثور المرأة على حيوانها ليس مهماً جداً، لأننا نحن النساء نتلقى قوتنا من الأرض. ولأننا نحن الطبيعة.

- وكيف تعرفين كل هذا؟ - سألها أليكس الذي صار أقل ارتياباً بكلام صديقته الجديدة.

- علمني إياه واليماي.
- وهل التشامان صديقك؟
- أجل يا جغوار، ولكني لم أخبر أحداً بأنني أتكلم مع واليماي، لم أخبر حتى أبي.
- لماذا؟
- لأن واليماي يفضل الوحدة. الرفقة الوحيدة التي يتحملها هي روح زوجته. وهو لا يظهر إلا في بعض الأحيان في أحد الشابونات [بيوت الهنود الجماعية] لكي يعالج مريضاً أو ليشارك في طقس من طقوس الموتى، ولكنه لا يظهر قط أمام الناهاب.
- الناهاب؟
- أي، الغرباء.
- أنت غريبة أيضاً يا ناديا.
- يقول واليماي أنني لا أنتمي إلى أي طرف، فأنا لست هندية ولا أجنبية، ولست امرأة ولا روحاً.
- ما أنت إذن؟ - سألها جغوار.
فردت عليه:
- إنني أنا وحسب.
أوضح سيسر سانتوس لأعضاء الحملة بأنهم سيركبون النهر في زوارق بمحركات، ليتوغلوا في أراضي الهنود حتى شلالات أعالي الأورينوكو. وهناك سينصبون مخيمهم، وإذا ما كان ممكناً فسوف ينظفون قطاعاً من الغابة ليستخدموه كمدرج صغير لهبوط الطائرة. لأنه سيرجع إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا للبحث عن طائرته، فهي ستنفع كوسيلة اتصال سريع مع القرية. وقال إن المحرك الجديد سيكون قد وصل في أثناء ذلك، ولن يكون عليه سوى أن يركبه. ويمكن لهم أن يذهبوا بالطائرة إلى مناطق غير مستكشفة في الجبال، حيث يمكن أن تكون مغارة الوحش الأسطوري، على حد شهادة بعض الهنود والمغامرين.
فسألته كاتي كولد :

- وكيف يستطيع مخلوق عملاق صعود ونزول تلك الأراضي التي يفترض أننا لا نستطيع تسلقها؟

- سوف نستقصي هذا الأمر – أجابها سيسر سانتوس.

فألحت هي :

- وكيف يتنقل الهنود هناك دون طائرة؟

- إنهم يعرفون الأرض. الهنود قادرون على تسلق شجرة نخيل شاهقة جذعها مليء بالأشواك. ويستطيعون أيضاً تسلق جدران الشلال الصخرية، مع أنها ملساء مثل المرايا – قال الدليل.

أمضوا شطراً لا بأس به من الصباح وهم يحملون أمتعتهم في الزورقين. وكانت لدى البروفيسور ليبلانك أمتعة أكثر من المصورين، بما في ذلك مؤونة صناديق من المياه المعبأة في قوارير، يستخدمها حتى في حلاقة ذقنه، لأنه يخشى المياه الملوثة بالزئبق. ولم يفد في شيء تكرار سيسر سانتوس له بأنهم سيقيمون مخيمهم عند أعالي الماء، بعيداً عن مناجم الذهب. وباقتراح من الدليل، عين ليبلانك مساعداً شخصياً له هو الهندي كاراكاوي الذي كان يهوي له في الليلة السابقة، لكي يخدمه خلال بقية الرحلة. فقد قال إنه يعاني آلاماً في ظهره ولا يستطيع أن يحمل أدنى ثقل.

منذ بداية المغامرة، تحمل أليكس مسؤولية العناية بأمتعة جدته. كان هذا هو عمله، وهي ستعطيه مقابل ذلك تعويضاً ضئيلاً، تدفعه إليه لدى العودة، إذا ما قام بعمله على أحسن وجه. وفي كل يوم كانت كاتي كولد تسجل في دفترها ساعات عمل حفيدها وتطلب منه التوقيع على الصفحة، وهكذا كانا يضبطان الحساب. لقد أخبرها في لحظة صراحة، كيف حطم كل ما في غرفته قبل بدء الرحلة. ولم يبد ذلك لها خطيراً، لأنها كانت ترى أن المرء ليس بحاجة إلا لأشياء قليلة في هذه الدنيا، ولكنها عرضت عليه أجراً إذا ما كان يفكر في إصلاح ما خربه. كان متاع الجدة يتألف من ثلاث غيارات من الملابس القطنية، وفودكا، وتبغ، وشامبو، وصابون وطارد للحشرات، وكلّة، وبطانية، وورق، وعلبة أقلام رصاص، كل ذلك في حقيبة من قماش الخيم. وكانت تحمل معها كذلك آلة تصوير أوتوماتيكية، من أكثر الأنواع عادية، مما جعل المصورين المحترفين، تيموثي بروس وجويل غونثالث، ينفجران في قهقهات استخفاف.

فتركتهما كاتي يضحكان دون أن تعلق بشيء. أما أليكس فكان لديه من الملابس أقل مما لدى جدته، إضافة إلى خريطة وكتابين. وقد علق في حزامه سكينه العسكرية السويسرية متعددة الاستخدامات، ونايه، وبوصلة. حين رأى سيسر سانتوس البوصلة أوضح له بأنها لا تنفع في الغابة، حيث لا يمكن التقدم في خط مستقيم. ونصحه قائلاً :

- انس البوصلة هنا يا فتى. ومن الأفضل لك أن تتبعني دون أن تضيعني عن نظرك أبداً.

ولكن أليكس كان مولعاً بفكرة تمكنه من تحديد الشمال في أي مكان يكون فيه. أما ساعته بالمقابل، فلن تفيد في شيء، لأن الزمن في الأمازون ليس كالزمن في بقية أنحاء الكوكب الأرضي، ولا يمكن قياسه بالساعات، وإنما بالشروق، والمدّ، والفصول، والأمطار.

الجنود الخمسة الذين قدمهم النقيب آريوستو، والدليل الهندي ماتووي الذي استخدمه سيسر سانتوس، كانوا مسلحين. لقد اتخذ الهنديان ماتووي وكاراكاوي هذين الاسمين لكي يتفاهما مع الغرباء؛ أما اسماهما الحقيقيان فلا يمكن أن يناديهما أحد بهما سوى ذويهما وأصدقائهما المقربين. وكان كلاهما قد هجر قبيلته منذ الصغر، ليتعلما في مدارس المبشرين، حيث جرى تنصيرهما، ولكنهما حافظا على اتصالهما بالهنود. ولم يكن هناك من هو قادر على معرفة التوجه في المنطقة خيراً من ماتووي الذي لم يستعن قط بخريطة ليعرف أين هو. أما كاراكاوي فيعتبر " رجل مدينة " لأنه كثيراً ما يسافر إلى ماناو وكاراكاس، ولأن لديه، مثل كثيرين من أهالي المدن، طبيعة متشككة.

وكان سيسر سانتوس يحمل ما لا بد منه من أجل نصب المخيم: خيام، طعام، أدوات مطبخ، أجهزة إنارة ومذياع ببطاريات، أدوات عدة، شباك من أجل صنع الأفخاخ، مناجل متشيتي، وسكاكين وبعض الأواني الزجاجية والبلاستيكية الرخيصة من أجل تبادل الهدايا مع الهنود. وفي اللحظة الأخيرة ظهرت ابنته مع قردها الصغير الأسود معلقاً على وركها، وتميمة واليماي في عنقها، ودون أي أمتعة أخرى سوى سترة قطنية بلا أكمام تعقدها حول عنقها، وأعلنت أنها جاهزة للإبحار. لقد حذرت أباها من أنها لا تفكر في البقاء في سانتا ماريا دي لا ليوبيا مع راهبتي المستشفى، مثلما فعلت في مرات أخرى، لأن ماورو كاريّاس موجود هنا، وهي خائفة من

الطريقة التي ينظر بها إليها ومحاولته لمسها. إنها خائفة من الرجل الذي " يحمل قلبه في جراب ". استشاط البروفيسور ليبلانك غضباً. كان قد عارض بصرامة من قبل حضور حفيد كاتي كولد، ولكن اضطر إلى التسامح لأن إعادة الفتى إلى الولايات المتحدة كانت مستحيلة؛ ولكنه غير مستعد الآن بالسماح، مهما كانت الأسباب، لابنة الدليل أن تأتي أيضاً. وتذرع متبجحاً بغضب :

- هذه ليست روضة أطفال، إنها بعثة علمية عالية المستوى، عيون العالم بأسره موجهة الآن إلى لودفيك ليبلانك.

وبما أن أحداً لم يهتم بما قاله، فقد رفض الصعود إلى الزورق. وقال لهم إنهم لا يستطيعون الانطلاق من دونه؛ لأن سمعة اسمه الهائلة هي وحدها التي توفر الضمانة لدى الانترناشيونال جيوغرافيك. حاول سيسر سانتوس أن يقنعه بأن ابنته ترافقه دوماً وأنها لا تسبب إزعاجاً لأحد، بل على العكس تماماً، فهي تستطيع تقديم مساعدة كبيرة لأنها تتكلم عدة لهجات هندية. فواصل ليبلانك تشدده. بعد نصف ساعة كانت حرارة الجو قد ارتفعت إلى أربعين درجة، وصارت الرطوبة تقطر من كل السطوح الملساء، وكانت معنويات أعضاء الحملة لا تقل حدة عن حرارة الجو. عندئذ تدخلت كاتي كولد :

- أنا أيضاً يؤلمني ظهري يا بروفيسور. وأحتاج إلى مساعدة شخصية. وقد عينت ناديا سانتوس لكي تتولى حمل دفاتري وتهوّي لي بورقة موز.

انفجر الجميع مقهقهين. وصعدت البنت بوقار إلى المركب وجلست إلى جانب الكاتبة. واستقر القرد الصغير في حضنها، ومن هناك راح يخرج لسانه ويقوم بحركات استهزاء بالبروفيسور ليبلانك الذي صعد إلى المركب أيضاً، محمراً من الغضب.

- 8 -

الحملة

وجد الفريق نفسه يبحر من جديد إلى أعالي النهر، كانوا في هذه المرة ثلاثة عشر بالغاً وطفلين في زورقين مزودين بمحركات، وكان الزورقان كلاهما من ممتلكات ماورو كاريّاس الذي وضعهما تحت تصرف ليبلانك.

انتظر أليكس الفرصة المناسبة ليخبر جدته على الانفراد بالحوار الغريب الذي دار بين ماورو كاريّاس والنقيب آريوستو، وترجمته ناديا له. استمعت إليه كاتي باهتمام ولم تظهر ما يشير إلى عدم تصديقها، مثلما كان حفيدها يخشى؛ بل على العكس، بدت مهتمة جداً. وسألته :

- لم يعجبني كاريّاس. ما هي خطته يا ترى لإبادة الهنود؟
- لا أدري.

فقررت الكاتبة :

- الشيء الوحيد الذي يمكننا عمله هو الانتظار والمراقبة.
- وهذا ما قالته ناديا أيضاً.
- كان يجب أن تكون هذه الطفلة حفيدتي يا ألكسندر.

بدت الرحلة في النهر مماثلة للرحلة السابقة التي قاموا بها من ماناوس إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، بالرغم من أن المشهد قد تغير. وقد قرر الفتى في هذه الأثناء أن يفعل مثل ناديا، فبدلاً من مكافحة البعوض بتضميخ جسمه بمضاد للحشرات، ترك الحشرات تهاجمه، متغلباً على إغواء الحك. ثم خلع جزمته كذلك عندما تبين له أنها تبقى مبللة على الدوام، وأن العلق يقرصه كما لو أنه لا ينتعل حذاءً. ولم يلحظ شيئاً في المرة الأولى إلا عندما أشارت له جدته إلى قدميه: كان جورباه داميان. خلعهما ورأى الحشرات المقرفة متعلقة بجلده، وهي متخمة بالدم.

أوضح له سيسر سانتوس :

- إنها لا تسبب الألم لأنها تفرز مخدراً قبل أن تمتص الدم.

ثم علمه كيف يتخلص من العلق بحرقه بسيجارة، كي يحول دون بقاء أسنانها مغروسة في قدمه، مع ما يرافق ذلك من خطر الإصابة بالتهاب. بدا هذا الأسلوب لأليكس معقداً بعض الشيء، لأنه لا يدخن، ولكن قليلاً من تبغ غليون جدته الساخن أدى المفعول نفسه. وقد كان انتزاعها من قدميه أسهل عليه من العيش وهو يحاول تجنبها.

منذ البدء راود أليكس الإحساس بأن هناك توتراً بين أفراد الحملة البالغين: فلا أحد منهم يثق بالآخر. ولم يكن بإمكانه كذلك التخلص من الإحساس بأن ثمة من يراقبه، وبأن هناك آلاف العيون ترصد تحركات الزورقين. فكان ينظر في كل لحظة من فوق كتفه، ولكنه لا يجد أثراً لمن يلاحقهم عبر النهر.

كان الجنود الخمسة الذين يرافقونهم من الكابوكلو، أي ممن ولدوا في المنطقة؛ أما ماتووي، الدليل الذي استخدمه سيسر سانتوس فكان هندياً من السكان الأصليين، ويفيدهم كمترجم مع القبائل. والهندي النقي الآخر هو كاراكاوي، مساعد ليبلانك. ولم يكن كاراكاوي، حسب رأي الدكتورة أومايرا توريس، يتصرف مثل الهنود الآخرين، وربما ليس بإمكانه العودة للعيش مع قبيلته أبداً.

فكل شيء بين الهنود مشترك يتقاسمونه فيما بينهم، والممتلكات الخاصة الوحيدة هي الأسلحة والأدوات البدائية التي يمكن لكل واحد منهم حملها معه. ولكل قبيلة تشابونو خاص بها، وهو كوخ كبير مشترك له شكل دائري، وسقف من القش، مفتوح على فناء داخلي. يعيش فيه الجميع معاً، متقاسمين كل شيء، ابتداء من الطعام وحتى تربية الأطفال. ومع ذلك، فقد كان الاتصال بالغرباء يقضي شيئاً فشيئاً على القبائل: فأولئك الغرباء لا ينقلون إليهم عدوى الأمراض الجسدية وحسب، وإنما أمراضاً أخرى في الروح. فما أن يجرب الهنود منجل متشيتي أو سكيناً أو أي أداة معدنية أخرى، حتى تتبدل حياتهم إلى الأبد. فباستخدام متشيتي واحد يمكن لهم أن يضاعفوا ألف ضعف إنتاج حديقتهم الصغيرة التي يزرعون فيها درنات المنديوكا والذرة. وبالحصول على أي نوع من السكاكين، يشعر المحارب منهم أنه إله. فالهنود مهووسون بالفولاذ بقدر هوس الغرباء بالذهب. وكان كاراكاوي قد تجاوز مرحلة منجل المتشيتي

وبلغ مرحلة حمل سلاح ناري: فهو لا يترك مسدسه العتيق لحظة واحدة. وشخص مثله يفكر في نفسه أكثر مما يفكر في الجماعة، لا مكان له في القبيلة. فالفردية في نظرهم هي أحد أشكال الجنون، مثلها مثل الإصابة بمس من الشيطان.

كان كاراكاوي رجلاً متجهماً وقليل الكلام، لا يرد إلا بكلمة أو اثنتين عندما يوجه أحدهم إليه سؤالاً لا مناص من الرد عليه؛ وعلاقته غير طيبة مع الغرباء، والكابوكلو، والهنود. فهو يخدم لودفيك ليبلانك دون رغبة، ويلمح الحقد في عينيه عندما يتوجب عليه التوجه بالكلام إلى الأنثروبولوجي. لم يكن يأكل مع الآخرين، ولا يشرب قطرة واحدة من الكحول، وينفصل عن الجماعة عندما يخيمون ليلاً. وفي إحدى المرات فاجأه أليكس وناديا وهو ينبش أمتعة الدكتورة أومايرا توريس. وقد قال على سبيل التفسير:

- هناك رتيلاء سامة.

فقرر ألكس وناديا مراقبته.

كلما تقدموا كان الإبحار يصبح أكثر مشقة، لأن النهر يضيق أحياناً، ويتسارع التيار بشدة تهدد بقلب الزورقين. وتبدو المياه في أماكن أخرى راكدة تطفو فيها جثث حيوانات، وجذوع أشجار متعفنة، وأغصان تعيق التقدم. فيكون عليهم أن يطفئوا المحرك ويواصلوا التقدم بالتجديف، مستخدمين عصوات من البامبو لإزاحة الأنقاض من طريقهم. وفي أحيان كثيرة تكون تلك الأنقاض تماسيح، يحسبونها جذوعاً عند النظر إليها من أعلى. وقد أوضح سيسر سانتوس أنه عندما تكون المياه ضحلة تظهر الجغوارات، وعندما تكون عميقة تأتي الأفاعي. رأوا زوجاً من السلاحف الضخمة، وسمكة حنكليس طولها متر ونصف، قال لهم سيسر سانتوس إنها تطلق شحنة كهربائية قوية عندما تهاجم. كانت الخضرة كثيفة جداً وتطلق رائحة مادة عضوية آخذة في التحلل، ولكن أزهاراً كبيرة كانت تتفتح عند الغروب أحياناً في نباتات متسلقة على الأشجار، فيمتلئ الهواء عندئذ بشذى فانيليا وعسل. وكانت هناك طيور مالك الحزين تراقبهم دون حراك من بين الأعشاب الطويلة التي تنمو على ضفتي النهر. وفي كل الأنحاء تتطاير فراشات براقة الألوان.

كان سيسر سانتوس يوقف الزورقين أمام أشجار تنحني أغصانها فوق الماء ويكفي أن يمد المرء يده لكي يلتقط ثمارها. لم يكن أليكس قد رأى تلك الثمار من قبل، فلم يشأ أن يتذوقها، أما الآخرون فكانوا يأكلونها بتلذذ وفي إحدى المناسبات حرف الدليل مسار الزورق ليحصد نبتة هي، حسب قوله، ذات مفعول رائع في التئام الجروح. وقد أكدت الدكتورة أومايرا توريس ذلك، وطلبت من الصبي الأمريكي أن يفرك جرح يده بعصارة النبتة، ومع أن ذلك لم يكن ضرورياً في الواقع، لأن الجرح كان قد شفي. ولم يبق منه سوى خط أحمر لا يزعجه في شيء. وعلقت كاتي كولد قائلة إن رجالاً كثيرين بحثوا في هذه المنطقة عن مدينة إلدورادو الخرافية، التي تقول الأسطورة إن شوارعها مرصوفة بالذهب، والأطفال فيها يلعبون بأحجار نفيسة. وقد توغل كثيرون في الأدغال، ومخروا نهري الأمازون وأورينوكو، دون أن يتمكنوا من الوصول إلى قلب هذه الأراضي المسحورة، حيث يحافظ العالم على براءته، مثلما في بدء استيقاظ الحياة البشرية على الكوكب. وقد مات أولئك الرجال أو تراجعوا مهزومين على يد الهنود، أو بفعل البعوض، والضواري، والأمراض الاستوائية، والمناخ، ووعورة الأرض.

لقد كانوا في الأراضي الفنزويلية، ولكن الحدود لا تعني شيئاً هناك، فكل ما يحيط بهم هو فردوس خرافي. وعلى خلاف النهر الأسود، كانت مياه هذا النهر مقفرة. لم يلتقوا فيها بمراكب، ولم يروا زوارق هنود، ولا بيوتاً على دعائم، ولا كائناً بشرياً واحداً. أما النباتات والحيوانات بالمقابل فكانت رائعة، وبدا المصوران كما لو أنهما في عيد، فهما لم يريا في متناول عدساتهما من قبل قط مثل هذه الأنواع من الأشجار، والنباتات والأزهار، والحشرات، والطيور، والحيوانات. رأوا ببغاوات خضراء وحمراء، وعصافير فلامنكو أنيقة، وطيور توكان ذات مناقير كبيرة جداً وثقيلة تكاد رؤوسها الضعيفة تعجز عن حملها، ومئات طيور الكناري وببغاوات الكوتورّا. وكان كثير من تلك الطيور مهدداً بالانقراض، لأن المهربين يصطادونها دون رحمة لتهريبها وبيعها في بلدان أخرى. أما القردة مختلفة الأنواع، شبه البشرية في ملامحها وألعابها، فتبدو كما لو أنها تحييهم من فوق الأشجار. كانت هناك غزلان، ودببة آكلة نمل، وسناجب، وثدييات أخرى. لحق بهم عدد من الببغاوات – أو غواكامايا،

مثلما يدعونها أيضاً – خلال مقطع طويل من الرحلة. وكانت تلك الطيور الكبيرة متعددة الألوان تحلق برشاقة لا تصدق فوق الزورقين، وكأنها تشعر بالفضول لمرأى المخلوقات الغريبة التي تسافر فيهما. أطلق ليبلانك عليها النار من مسدسه، لكن سيسر سانتوس تمكن من توجيه ضربة قوية إلى ذراعه في الوقت المناسب، فانحرفت الرصاصة بعيداً. ولكن الطلقة أفزعت القردة والطيور الأخرى، فامتلأت السماء بالريش، ثم ما لبثت الببغاوات أن رجعت بعد قليل غير مبالية.

أنّب سيسر سانتوس الأنثروبولوجي :

- إنها لا تؤكل يا بروفيسور، لحمها مر. ولا مسوغ لقتلها.

فقال ليبلانك منزعجاً من تدخل الدليل :

- لقد أعجبني ريشها.

- اشتره من ماناوس – قال سيسر سانتوس بجفاء.

وردت الدكتورة أومايرا توريس :

- فصيلة ببغاوات الغوكامايا يمكن تدجينها. لقد كان لدى أمي واحدة منها في بوا بيستا. ترافقها إلى كل مكان محلقة على علو مترين فوق رأسها. وعندما تذهب أمي إلى السوق، تلحق الببغاء بالحافلة إلى أن تنزل أمي منها، وتنتظرها على شجرة ريثما تنهي مشترياتها ثم تعود معها بعد ذلك، مثل كلب مدلل.

تأكد أليكس مرة أخرى من أن نايه يستثير اهتمام القرود والطيور. وبدا أن القرد بوروبا بصورة خاصة منجذب إلى أنغام الناي. فعندما يعزف عليه، يبقى القرد الصغير ساكناً يصغي بوقار وفضول؛ وكان في بعض الأحيان يقفز عليه ويشد منه الآلة الموسيقية، مطالباً بالموسيقى. فكان أليكس يستجيب له، سعيداً لأنه وجد في نهاية المطاف جمهور مستمعين مهتمين، بعد أن تشاجر مع شقيقتيه طوال سنوات لتسمحا له بالتدرب على الناي بسلام. كان أعضاء الحملة يشعرون بالانتعاش وهم يسمعون الموسيقى التي ترافقهم في توغلهم في ذلك المشهد الذي يزداد عدائية وغموضاً. وكان الفتى يعزف دون جهد، كما لو أن الآلة النحيلة تملك ذاكرة وتتذكر مهارة صاحبها السابق، جوزيف كولد الشهير.

استولى على الجميع إحساس بأنهم مطاردون. ودون أن يفصح أحد منهم عن ذلك، لأن ما لا يسمى يعتبر غير موجود، كانوا يرصدون الطبيعة من حولهم. البروفيسور ليبلانك يمضي النهار متفحصاً ضفاف النهر بمنظاره ذي العينين؛ لقد حوله التوتر إلى شخص أشد إثارة للنفور. والوحيدان اللذان لم تصبهما عدوى التوتر العصبي الجماعي هما كاتي كولد والإنكليزي تيموثي بروس. كان الاثنان قد عملا معاً في مناسبات كثيرة، فقد جابا نصف العالم من أجل مقالاتهما عن الرحلات، وشهدا عدة حروب وثورات، وتسلقا جبالاً ونزلا إلى أعماق البحر، ولهذا كانت قليلة هي الأشياء التي يمكن لها أن تقلق نومهما. أضف إلى ذلك أنهما كانا يحبان التفاخر بعدم مبالاتهما.

- ألا يبدو لك أن هناك من يترصدنا يا كاتي؟ - سألها حفيدها.

- بلى.

- ألا تخافين؟

فردت عليه :

- هناك طرق عديدة لتجاوز الخوف يا ألكسندر. ولكن لا مفعول لأي منها.

ما إن انتهت من النطق بهذه الكلمات حتى سقط أحد الجنود الذين في زورقها على قدميها دون أن يطلق صرخة. انحنت كاتي كولد عليه دون أن تفهم في البدء ما الذي حدث، إلى أن رأت ما يشبه شوكة طويلة مغروسة في صدر الرجل. تأكدت من أنه قد مات على الفور: فقد انغرست الشوكة بين الضلوع واخترقت قلبه. نبه أليكس وكاتي ركاب الزورق الآخرين الذين لم يلحظوا ما جرى، فقد تم الهجوم بصمت تام. بعد لحظة من ذلك كانت نصف دزينة من الأسلحة النارية تنطلق باتجاه الآجام الكثيفة. وعندما هدأ الدوي والبارود وذعر الطيور التي تملأ السماء، رأوا أنه ليس هناك ما يتحرك في الغابة. من أطلقوا النشابات القاتلة بقوا كامنين بصمت ودون حراك. سحب سيسر سانتوس الشوكة من الجثة بقوة، ورأوا أن طولها يصل إلى حوالي قدم، وأنها متينة ومرنة مثل الفولاذ.

أصدر الدليل أمراً بمواصلة التقدم بأقصى سرعة، لأن النهر ضيق في ذلك المكان مما يجعل الزورقين هدفاً سهلاً لسهام المهاجمين. ولم يتوقفوا عن التقدم إلا بعد ساعتين من ذلك، عندما قدر أنهم صاروا بمأمن. وعندئذ

تمكنوا من فحص النشابة، فكانت مزينة بطريقة غريبة بطلاء أحمر وأسود، لم يستطع أحد فك رموزها. وقد أكد كاراكاوي وماتووي بأنهما لم يريا هذه الرموز من قبل قط، فهي لا تنتمي إلى قبيلتيهما ولا إلى أي قبيلة أخرى معروفة، ولكنهما أكدا أن كل هنود المنطقة يستخدمون السرياتانا. وأوضحت الدكتورة أومايرا توريس بأنه لو لم تصب الشوكة القلب بتلك الدقة المذهلة، فإنها ستقتل الرجل على أي حال بعد عدة دقائق، وبطريقة أشد إيلاماً، لأن رأسها مضمخ بمادة الكوراري، وهو سم زعاف، يستخدمه الهنود في الصيد والحرب، وليس هناك ترياق معروف ضد هذا السم.

احتج ليبلانك :

- هذا أمر غير مقبول! فقد كان يمكن لهذا السهم أن يصيبني أنا!

- أجل – وافقه سيسر سانتوس.

فأضاف البروفيسور :

- الذنب ذنبك أنت.

- ذنبي أنا؟ - كررها سيسر سانتوس، مذهولاً من التحول غير المعقول الذي اتخذته القضية.

- أنت الدليل! وأنت مسؤول بالتالي عن أمننا، ولهذا ندفع لك أجرك.

- لسنا في رحلة سياحية يا بروفيسور – رد عليه سيسر سانتوس.

فصاح البروفيسور :

- فلنستدر ونرجع فوراً. هل تعي حجم الخسارة التي ستلحق بدنيا العلم إذا ما أصاب لودفيك ليبلانك أذى؟

احتفظ أعضاء الحملة بالصمت مذهولين. لم يدر أحد ما يمكنه قوله، إلى أن تدخلت كاتي كولد :

- هناك من تعاقد معي من أجل كتابة تحقيق صحفي حول الوحش وأنا أريد إنجاز ذلك، أما أنت فيمكنك العودة ماشياً أو سباحة يا دكتور. نحن سنواصل الرحلة مثلما هو مخطط لها.

- عجوز وقحة، كيف تتجرئين على... – بدأ البروفيسور يصرخ. فقاطعته الكاتبة بهدوء، وهي تمسك به بقوة من قميصه وتشله بحدقتي عينيها الزرقاوين :

- إياك أن تسيء احترامي أيها الرجل الصغير.

فكر أليكس في أنه يمكن للأنثروبولوجي أن يوجه صفعة إلى جدته، فتقدم متأهباً للحيلولة دون حدوث ذلك، ولكن عمله كان دون جدوى. فقد استطاعت نظرة كاتي كولد أن تهدئ هياج ليبلانك الغاضب، كما السحر.

تساءلت الدكتورة مشيرة إلى الجثة :

- وماذا سنفعل بجسد هذا الرجل المسكين؟

- لا يمكننا حمله معنا في هذا المناخ يا أومايرا، فأنت تعرفين أن التفسخ يتم بسرعة كبيرة جداً. أعتقد أنه علينا رميه إلى النهر... – اقترح ذلك سيسر سانتوس.

فتدخل الدليل الهندي ماتووي مرعوباً :

- ستغضب روحه وتلاحقنا لتقتلنا.

فقرر سيسر سانتوس :

- فلنفعل إذاً مثلما يفعل الهنود عندما يريدون تأجيل طقس ما؛ فلنتركه مكشوفاً لكي تستفيد الطيور والحيوانات من بقاياه.

وألح ماتووي:

- ألن تكون هناك طقوس، كما هو متوجب؟

- ليس لدينا متسع من الوقت. فالمأتم اللائق يتطلب عدة أيام. أضف إلى ذلك أن الرجل مسيحي وليس هندياً – أوضح سيسر سانتوس.

وأخيراً اتفقوا على لفه في قطعة من الخيش ووضعه على منصة صغيرة من لحاء الأشجار وتركه في أعلى شجرة. أما كاتي كولد التي لم تكن متدينة جيدة، ولكنها تتذكر بعض الصلوات من طفولتها، فقد ارتجلت صلاة مسيحية مقتضبة. وصور تيموثي بروس وجويل غونثالث الجثمان والمأتم، كدليل وتوثيق لما جرى. حفر سيسر سانتوس صلباناً على أشجار الضفة وعلّم المكان على أفضل وجه ممكن على الخريطة، لكي يعرفوه عندما يرجعون في ما بعد للبحث عن عظام الميت لتسليمها إلى أسرته في سانتا ماريا دي لا ليوبيا.

ابتداء من هذه اللحظة تحولت الرحلة من سيء إلى الأسوأ، فقد صارت الخضرة أشد كثافة، ولم يعد ضوء الشمس يصلهم إلا عندما يبحرون في منصف النهر. كانوا يمضون متضايقين مكدرين، لا يستطيعون النوم في الزورقين؛ فعلى الرغم من الخطر الذي يمثله الهنود والحيوانات المفترسة،

كان لا بد لهم من نصب مخيمهم على الضفة. فكان سيسر سانتوس يتولى توزيع الأطعمة، وينظم الخروج للصيد البري وصيد الأسماك، ويوزع نوبات الحراسة التي يقوم بها الرجال في الليل. وقد استثنى من ذلك البروفيسور ليبلانك، إذ كان واضحاً أنه سيفقد أعصابه لدى سماع أدنى ضجة. وطالبت كاتي كولد والدكتورة أومايرا توريس بالمشاركة في الحراسة، فقد أحستا بأن استثناءهما لكونهما امرأتين ينطوي على إهانة. وعندئذ أصر الصبيان على قبول مشاركتهما أيضاً، فقد كانا يرغبان من جهة أخرى في مراقبة تحركات كاراكاوي، لا سيما وأنهما رأياه وهو يضع حفنات من الرصاص في جيوبه ويحوم حول جهاز اللاسلكي الذي كان سيسر سانتوس يتمكن بين حين وآخر، يتمكن من استخدامه في الاتصال بصعوبة كبيرة ليحدد موقعه على الخريطة لعامل المقسم في سانتا ماريا دي لا ليوبيا. فقد كانت قبة خضرة الأدغال تشكل مظلة تحول دون مرور ذبذبات تردد جهاز الاتصال.

توجه أليكس إلى لودفيك ليبلانك ليسأله مازحاً :

- من هو الأسوأ برأيك، الهنود أم الوحش؟

فرد البروفيسور بتفخيم:

- الهنود يا فتى. إنهم آكلة لحوم البشر. وهم لا يأكلون أعداءهم وحسب وإنما الموتى من قبيلتهم نفسها.

- هل أنت متأكد؟ أنا لم أسمع بمثل هذا من قبل – عقبت الدكتورة أومايرا توريس بسخرية.

- عليك أن تقرئي كتابي يا آنسة.

- دكتورة – صححت له للمرة الألف.

وأكد ليبلانك :

- هؤلاء الهنود يقتلون من أجل الحصول على نساء.

فردت الدكتورة :

- ربما تقتل أنت لهذا السبب يا بروفيسور، أما الهنود فلا، لأنهم لا يفتقرون إلى النساء، بل الأصح أنهن يفضن عن حاجتهم.

- لقد رأيت ذلك بأم عيني: إنهم يهاجمون تشابونو آخر من أجل سبي الفتيات.

فقاطعه سيسر سانتوس :

- ما أعرفه هو أنهم لا يستطيعون إجبار النساء على البقاء معهم رغم إرادتهن. فهن يذهبن إذا أردن ذلك بمشيئتهن. وإذا وقعت حرب بين قبيلتين، فلأن إحداهما لجأت إلى استخدام السحر لإلحاق الضرر بالأخرى، من أجل الانتقام، وربما هي أحياناً حروب طقوسية يتبادلون خلالها بعض الضربات بالهراوى، ولكن دون نية في قتل أحد.

وأكد ليبلانك :

- أنت مخطئ يا سانتوس، شاهد فيلم لودفيك ليبلانك الوثائقي وستفهم نظريتي.

فألمح الدليل :

- لقد نما إلي أنك وزعت مناجل متشيتي وسكاكين على إحدى القبائل ووعدت الهنود بأنك ستقدم إليهم مزيداً من الهدايا إذا ما تصرفوا أمام الكاميرات وفقاً لتعليماتك...

- هذه افتراءات! فوفق نظريتي...

ولكن سيسر سانتوس أضاف :

- لقد جاء أنثروبولوجيون وصحفيون آخرون إلى الأمازون يحملون أفكارك نفسها عن الهنود، وصور أحدهم فيلماً وثائقياً يظهر فيه الشبان بملامح النساء، ويتمكيجون ويستخدمون مزيلاً للعرق.

فأكد البروفيسور ذلك :

- آه! هذا الزميل يخرج بأفكار غريبة بعض الشيء على الدوام...

علم الدليل كلاً من أليكس ونادیا كيفية حشو المسدس واستخدامه. لم تظهر الفتاة أي مهارة أو اهتمام؛ وبدت عاجزة عن إصابة الهدف عن بعد ثلاث خطوات، أما أليكس بالمقابل، فكان مفتوناً. لأن المسدس في يده يمنحه إحساساً بأنه يملك قدرة عصية على الهزيمة؛ وفهم لأول مرة هوس أناس كثيرين بالأسلحة. وعلق :

- أبواي لا يتسامحان بشأن الأسلحة النارية. إذا ما رأياني أحمل هذا المسدس، فأظن أنه سيغمى عليهما.

فأكدت جدته وهي تلتقط له صورة :

- لن يروك.

انحنى أليكس وقام بحركة كمن سيطلق النار، مثلما كان يفعل وهو طفل. فقالت له كاتي :

- التقنية المؤكدة لإخطاء الهدف هي في التسديد وإطلاق النار أثناء ذلك. إذا ما هاجمونا، سيكون هذا هو ما ستفعله بالضبط يا ألكسندر، ولكن لا تقلق، لأنه لن يكون هناك من يراك. سوف نكون جميعنا قد متنا في الغالب.

- أنت لا تثقين بأني قادر على الدفاع عنك، أليس كذلك؟

- لا، ولكنني أفضل أن أموت مقتولة على أيدي الهنود في الأمازون، على أن أموت من الشيخوخة في نيويورك – ردت عليه جدته.

فابتسم الصبي :

- أنت فريدة يا كاتي!

فأوقفته هي :

- كلنا فريدون يا ألكسندر.

في اليوم الثالث من الإبحار شاهدوا أسرة غزلان في بقعة جرداء من الضفة. لم يبد على الحيوانات، المعتادة على أمان الغابة، أنها اضطربت لحضور الزورقين. أصدر سيسر سانتوس الأمر بالتوقف، وقتل واحداً منها ببندقيته، بينما هربت الغزلان الأخرى مذعورة. وفي تلك الليلة تناول أفراد الحملة عشاءً جيداً، فقد كان لحم الغزال لذيذاً جداً، على الرغم من نسيجه الليفي، وتحول العشاء إلى ما يشبه الحفلة بعد عدة أيام اقتصر فيها طعامهم على السمك. كان لدى ماتووي سماً يلقيه هنود قبيلته في النهر، وعندما ينحل السم في الماء، تصاب الأسماك بالشلل ويصير بالإمكان اصطيادها بحرية أو بسهم مربوط بحبل مصنوع من نبتة متسلقة. ذلك السم لا يخلف أثراً في لحم السمك ولا في الماء، فبقية الأسماك التي أصابها الشلل لا تلبث أن تستعيد قواها بعد وقت قصير.

مروا في مكان هادئ، يشكل النهر فيه ما يشبه بحيرة صغيرة، وهو مكان مناسب تماماً للتوقف نحو ساعتين من أجل تناول الطعام واستعادة القوى. نبههم سيسر سانتوس إلى ضرورة توخي الحذر لأن الماء عكر، ولأنهم رأوا تماسيح قبل بضع ساعات، ولكن الجميع كانوا عطشى ومتضايقين من الحر. حرك الحراس الماء بالعصي، وعندما لم يجدوا أثراً للتماسيح، قرر الجميع الاستحمام، باستثناء البروفيسور لودفيك ليبلانك الذي لم يشأ النزول إلى النهر مهما كانت الأسباب. أما القرد بوروبا فكان معادياً للاستحمام، لكن ناديا كانت تجبره على أن يبلل نفسه بين حين

وآخر لكي يتخلص من القمل. فكان الحيوان الصغير يمتطي رأس صاحبته ويطلق أعلى صرخات الرعب كلما بللته قطرة ماء. وفي أثناء ذلك انهمك سيسر سانتوس مع رجاله في إعداد الغزال وإشعال النار لشيه.

رأى أليكس جدته تخلع بنطالها وقميصها لتسبح بملابسها الداخلية، دون أن يبدو عليها الخجل، بالرغم من أنها ظهرت، بعد أن تبللت، وكأنها عارية. حاول ألا ينظر إليها، ولكنه سرعان ما أدرك أنه لم يكن هناك، وسط الطبيعة وبعيداً عن العالم المعروف، متسع للخجل من الجسد. لقد ترعرع على اتصال حميم مع أمه وأختيه، وقد اعتاد في المدرسة على رفقة الجنس الآخر، ولكنه بدأ يشعر في الآونة الأخيرة بأن كل ما هو أنثوي يجتذبه مثل سر ناء ومحظور. لقد كان يعرف الأسباب: إنهما شقيقتاه اللتان تثيران الصخب دائماً ولا تتركاه يفكر بهدوء. وقرر أن المراهقة مشكلة، وأنها أسوأ من أسوأ شيء. لا بد لهم من أن يخترعوا جهازاً يعمل بأشعة الليزر، يدخل فيه المرء دقيقة، باف! ويخرج وقد تحول إلى رجل بالغ. لقد كان يحمل إعصار في داخله، فهو يشعر في بعض الأحيان بأنه مغتبط، وملك العالم، مستعد لأن يصارع أسداً بيديه العزلاوين؛ وفي أحيان أخرى يشعر بأنه مجرد فرخ ضفدع. ولكنه منذ أن بدأ هذه الرحلة، لم يعد يتذكر الهرمونات، ولم يجد متسعاً من الوقت كذلك ليتساءل إذا ما كانت الحياة تستحق أن تعاش، وهو شك كان يداهمه من قبل مرة في اليوم على الأقل. إنه يقارن الآن جسد جدته - اليابس، والممتلئ بالعقد، وبشرته المشققة – بتكورات جسد الدكتورة أومايرا توريس المرهفة، وهي ترتدي ملابس استحمام سوداء وقورة، وبظرف ناديا شبه الطفولي. قدر كيف يتغير الجسد في مختلف الأعمار، وتوصل إلى أن النساء الثلاث جميلات، كل على طريقتها. احمر خجلاً حيال هذه الفكرة. فما كان ليخطر له قبل أسبوعين أن يعتبر جدته جذابة. أتكون الهرمونات هي التي تطهو دماغه؟

تعالت صرخة تبعث القشعريرة في النفس، أخرجت أليكس من تأملاته المهمة. كانت الصرخة صادرة عن جويل غونثالث، أحد المصورين، الذي كان يتخبط بيأس في وحل الضفة. لم يدر أحد في البدء ما الذي يجري، فقد رأوا ذراعي الرجل تتحركان بهياج في الهواء وهو يغطس و يعود للظهور. كان أليكس الذي يشارك في فريق السباحة في مدرسته،

هو من وصل إليه بضربتين أو ثلاث ضربات من ذراعيه في الماء. وعندما اقترب رأى، بهلع مطلق، أفعى ثخينة مثل خرطوم إطفاء حرائق منتفخ، تلتف على جسد المصور. أمسك أليكس بأحد ذراعي غونثالث وحاول سحبه إلى البر، ولكن ثقل الرجل والأفعى كان كبيراً بالنسبة إليه. حاول فصل الحيوان بكلتا يديه، وراح يشد بكل قواه، ولكن حلقات الأفعى ضغطت أكثر على الضحية. تذكر تجربته المخيفة مع حية السوروكوكو التي التفت على ساقه قبل بضع ليال. ولكن الوضع الآن أسوأ ألف مرة. توقف المصور عن التخبط والصراخ، لأن قد فقد الوعي.

صاحت ناديا منضمة إلى صرخات أليكس :

- بابا، بابا! إنها أفعى أنكندة!

وفي أثناء ذلك كانت كاتي كولد، وتيموثي بروس، واثنان من الجنود قد اقتربوا، وتعاونوا جميعهم في الصراع ضد الأفعى القوية لإبعادها عن جسد غونثالث التعس. حركت المعمعة الوحل في قاع البحيرة، فصار الماء قاتماً وكثيفاً كأنه الشوكولاتة. ولم يعد يظهر ما يجري في تلك الفوضى، فكل واحد يتكلم ويصرخ بتعليمات دون التوصل إلى أي نتيجة. بدت كل تلك الجهود غير مجدية إلى أن جاء سيسر سانتوس حاملاً السكين التي كان يقطع بها الغزال. لم يتجرأ الدليل على استخدام السكين دون تروٍ خوفاً من أن يجرح بها جويل غونثالث أو أي واحد آخر ممن كانوا يشدون الأفعى؛ فكان عليه أن ينتظر اللحظة التي يظهر فيها رأس الثعبان من الوحل لكي يقطعه بضربة صائبة. امتلأ الماء بالدم، وتحول إلى لون الصدأ. وقد احتاجوا إلى خمس دقائق من أجل تخليص المصور، لأن الحلقات العاصرة واصلت ضغطها الانعكاسي.

سحبوا جويل غونثالث إلى الضفة، حيث بقي ممدداً كالميت. كان التوتر العصبي قد سيطر على البروفيسور ليبلانك، فراح يطلق النار في الهواء من مكانه الآمن، مساهماً بذلك في الاضطراب والتشوش العامين، إلى أن انتزعت منه كاتي كولد المسدس وهددته بأن يصمت. وفي الوقت الذي كان فيه الآخرون يصارعون في الماء، رجعت الدكتورة أومايرا توريس إلى الزورق لتأتي بحقيبتها، وها هي الآن تجثو على ركبتيها بجوار الرجل الغائب عن الوعي وفي يدها حقنة. كانت تعمل بصمت وهدوء، كما لو أن التعرض لهجوم أفعى أنكندة هو حدث عادي جداً في الحياة. حقنت

غونثالث بالأدرنالين، وعندما تأكدت من أنه مازال يتنفس، بادرت إلى فحصه. ثم قالت :

- هناك عدة أضلاع مكسورة، وهو مصاب بالصدمة. نأمل ألا تكون الأضلاع المكسورة قد أحدثت ثقوباً في الرئتين، وألا يكون هناك كسر في الرقبة. يجب تثبيته وإبقاؤه دون حراك.

- وكيف سنفعل ذلك؟ - سألها سيسر سانتوس.

فقالت ناديا وهي ما تزال ترتجف لما شهدته لتوها :

- الهنود يستخدمون لحاء الشجر والطين ونباتات متسلقة.

- هذا جيد يا ناديا – وافقت الدكتورة.

أصدر الدليل التعليمات اللازمة، وسرعان ما لفت الدكتورة المصاب، بمساعدة كاتي كولد، من حوضه حتى رقبته، بخرق مبللة بطين طازج، ووضعت فوقها شرائح طويلة من لحاء الشجر، ثم ربطت كل ذلك بسوق نباتات متسلقة. ذلك التجبير البدائي يصير، عندما يجف الطين بمفعول مشدات تجبير العظام الحديثة. كان جويل غونثالث الذاهل والمتألم ما يزال غير قادر على تصديق ما جرى، ولكنه استعاد وعيه وصار بإمكانه النطق ببعض الكلمات.

- يجب علينا أن نأخذ جويل إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا فوراً. ومن هناك يمكنهم حمله في طائرة ماورو كاريّاس إلى أحد المستشفيات – قررت الدكتورة.

فرد عليها البروفيسور ليبلانك :

- هذه عرقلة رهيبة! لدينا زورقين فقط. ولا يمكننا التخلي عن أحدهما لإعادته.

- ماذا؟ يوم أمس أردت أنت نفسك أن تأخذ زورقاً لتهرب، وترفض الآن إرسالٍ واحد لحملِ صديقي الجريح؟ - سأله تيموثي بروس وهو يسعى جاهداً للبقاء هادئاً.

وأوضحت الدكتورة :

- يمكن لجويل أن يموت إذا هو لم يتلق الرعاية المناسبة.

فقال ليبلانك :

- لا تبالغي أيتها المرأة الطيبة. هذا الرجل ليس في حالة خطرة، إنه مرعوب وحسب. بعد راحة قصيرة سيسترد عافيته خلال يومين.

فدمدم تيموثي بروس وهو يطبق قبضتيه :

- هذا تقدير لائق من جانبك يا بروفيسور.

وحسم سيسر سانتوس الأمر :

- يكفي أيها السادة! غداً سنتخذ قرارنا. الوقت متأخر الآن ولا يمكن الإبحار، فعما قريب سيحل الظلام. يجب علينا أن نخيم الليلة هنا.

أمرت الدكتورة أومايرا توريس بإشعال نار قرب المصاب لإبقائه جافاً ودافئاً خلال الليل، وهو ليل بارد دائماً. وحقنته بالمورفين لتساعده على تحمل الألم، وبدأت بإعطائه مضادات حيوية للحيلولة دون إصابته بالالتهابات. ثم مزجت بضع ملاعق من الماء بقليل من الملح في زجاجة ماء وطلبت من تيموثي بروس أن يقدم السائل لصديقه في ملاعق صغيرة، لتجنب إصابته بالتجفاف، لا سيما وأنه لن يتمكن، دون شك، من تناول الأطعمة الصلبة خلال الأيام التالية. أما المصور الإنكليزي الذي نادراً ما يبدل ملامحه التي هي أشبه بملامح حصان سلس القياد، فكان قلقاً حقاً، وانصاع للأوامر كما لو أنها طلب من أمه. وحتى البروفيسور ليبلانك المستاء، اضطر إلى الاعتراف بينه وبين نفسه بأن وجود الدكتورة كان ضرورياً في مثل هذه المغامرة.

وفي أثناء ذلك كان ثلاثة من الجنود وكاراكاوي قد سحبوا جثة حية الأنكندة حتى الضفة. وعندما قاسوها وجدوا أن طولها يصل إلى ستة أمتار تقريباً. أصر البروفيسور ليبلانك على أن تلتقط له صورة مع الأنكندة وهي ملفوفة حول جسده بحيث لا يظهر غياب رأسها المقطوع. سلخ الجنود بعد ذلك جلد الحية، وثبتوه على جذع ليجف؛ فبهذه الطريقة يمكنهم مط الجلد حوالي عشرين بالمئة من طوله، وسيدفع السياح مقابله ثمناً جيداً ولكنهم لم يضطروا إلى حمله إلى المدينة، لأن البروفيسور ليبلانك عرض عليهم شراءه منهم هناك بالذات، بعد أن أيقن من أنهم لن يعطوه إياه مجاناً. وقد همست كاتي كولد لحفيدها بأن الأنثروبولوجي سوف يعرض الأنكندة بعد أسابيع في محاضراته على أنها واحدة من غنائم مغامراته، وسيروي كيف اصطادها بيديه. فبهذه الطريقة اكتسب شهرته كبطل بين طلاب الأنثروبولوجيا في العالم بأسره، المفتونين بفكرة أن المتوحشين القتلة لديهم ضعف ما لدى الرجال المسالمين من النساء، وثلاثة أضعاف ما لديهم من أبناء. فنظرية ليبلانك حول فضائل الذكر المسيطر، الذي لا يتورع عن

ارتكاب أية فظائع مقابل نقل مورثاته، كانت تجتذب كثيراً أولئك الطلاب الضجرين المحكوم عليهم بالعيش مدجنين في مركز الحضارة.

بحث الجنود في البحيرة عن رأس الأنكندة، ولكنهم لم يعثروا عليها، لابد أنه قد غرق في وحل القاع أو أن التيار حمله بعيداً. ولم يجرؤوا على النبش كثيراً، فمن الشائع أن هذا النوع من الحيات يمضي عادة مثنى مثنى، ولم يكن أي منهم مستعداً لمواجهة واحدة أخرى من تلك الأفاعي. وأوضحت الدكتورة أومايرا توريس بأن الهنود والكابوكلو على السواء، ينسبون إلى هذه الحيات قدرات علاجية وتنبؤية. فهم يجففونها، ثم يطحنونها ويستخدمون مسحوقها لعلاج السرطان، والصلع، وأمراض العظام، كما أنهم يستخدمونه كوسيلة مساعدة في تفسير الأحلام. وأكدت أن رأس أفعى بهذا الحجم تجد رواجاً كبيراً، ومن المؤسف أنه فقد.

قطع الرجال لحم الأفعى وملحوه، ثم بادروا إلى شيه مغروساً في عيدان. وأليكس الذي رفض حتى الآن أن يتذوق شيئاً من لحم الدب آكل النمل، والتوكان، والقرد، والتابير، أحس بفضول مفاجئ لمعرفة كيف هو لحم أفعى الماء الضخمة تلك. وكان يأخذ في الاعتبار، قبل أي شيء آخر، المدى الذي سترتفع إليه سمعته أمام سيسليا بارنس وأصدقائه في كاليفورنيا عندما يعلمون أنه تعشى حية أنكندة في وسط غابات الأمازون. وقف أمام جلد الثعبان الضخم وهو يمسك قطعة من لحمه في يده، وطلب من جدته أن تثبت المشهد في دليل فوتوغرافي. ولكن لحم الحية الذي تفحم كثيراً، لأن أي من أعضاء الحملة لم يكن طاهياً جيداً، بدا أشبه بلحم سمك التونا، مع مذاق غامض أقرب إلى طعم الدجاج. وهو مذاق تافه بالمقارنة مع لحم الغزال، ولكن أليكس قرر أنه أفضل على أي حال من معجنات البانكيك الصمغية التي يعدها أبوه. كان تذكر أسرته المفاجئ أشبه بصفعة. وبقيت قطعة الأنكندة مغروسة في العود بينما هو ينظر إلى الليل مفكراً.

سألته ناديا هامسة :

- بم تفكر؟
- إنني أرى أمي — أجابها الفتى وأفلتت إجهاشة من بين شفتيه.
- وكيف حالها؟

فرد عليها :

- إنها مريضة، مريضة جداً.

- مرض أمك في جسدها، أما مرض أمي ففي روحها.

- وهل تستطيعين رؤيتها؟ - استفهم أليكس.

- أحياناً – ردت هي.

- هذه هي المرة الأولى التي أستطيع فيها رؤية أحد بهذه الطريقة – أوضح أليكس، ثم أضاف: - لقد راودني إحساس غريب جداً، كما لو أنني أرى أمي بكل وضوح على شاشة. دون أن أتمكن من لمسها أو التكلم إليها.

فقالت ناديا :

- المسألة هي قضية ممارسة يا جغوار. بإنكان المرء أن يتعلم الرؤية بقلبه. التشامانات من أمثال واليماي يستطيعون اللمس والتكلم عن بعد أيضاً، من خلال القلب.

- 9 -

شعب الضباب

علقوا في تلك الليلة أراجيح النوم بين الأشجار، وحدد سيسر سانتوس ساعتين لكل واحد منهم، يقوم خلالها بالحراسة ويبقي النار مشتعلة. فبعد موت الرجل ضحية السهم، وحادث جويل غونثالث، لم يبق من أجل تغطية الحراسة خلال ثماني ساعات الظلام، سوى عشرة بالغين والصبيين، لأن ليبلانك لا يحسب. فقد كان لودفيك ليبلانك يعتبر نفسه قائد الحملة، ولا بد له على هذا الأساس من أن " يبقى منتعشاً "؛ وهو لن يشعر بصفاء الذهن لاتخاذ القرارات، كما يدعي، دون أن ينام جيداً في الليل. وقد أسعد ذلك الجميع، لأن أياً منهم لم يكن يرغب في الواقع، في تقاسم نوبة الحراسة مع رجل يفقد أعصابه بمجرد رؤيته سنجاباً. خصصت نوبة الحراسة الأولى، وهي الأسهل عادة، إذ يكون الجميع ما يزالون متأهبين ولا يكون البرد قد اشتد بعد، للدكتورة أومايرا توريس، وجندي كابوكلو وتيموثي بروس الذي لم يعد يجد عزاءً بعد ما جرى لصديقه. فقد عمل المصوران بروس وغونثالث معاً خلال عدة سنوات وكانا متحابين كأخوين. أما النوبة الثانية فمن نصيب جندي آخر ومعه أليكس وكاتي كولد؛ والنوبة الثالثة يقوم بها ماتووي، وسيسر سانتوس وابنته ناديا. بينما توكل نوبة الحراسة الأخيرة في الفجر إلى الجنديين المتبقيين وكاركاوي.

كان صعباً على الجميع التمكن من النوم، لأن رائحة غريبة ولجوجة تعبق في الغابة كانت تضاف إلى تأوهات عاثر الحظ جويل غونثالث وكانوا قد سمعوا ما يؤكده البعض عن النتانة التي تميز الوحش. ولكن سيسر سانتوس قال إنهم ربما يكونون قد أقاموا مخيمهم بالقرب من عائلة من الإرارا، وهي نوع من بنات عرس، لها وجه عذب، ولكن رائحتها تشبه رائحة جراء الثعالب. إلا أن هذا التفسير لم يطمئن أحداً. وقد علّق أليكس بشحوب :

- إنني دائخ وأشعر بالغثيان.

فقالت له كاتي، وهي الوحيدة التي لم تبد اهتماماً برائحة النتانة :

- إذا لم تقتلك هذه الرائحة، فإنها ستقويك.

- إنها مرعبة!

- فلنقل إنها مختلفة. فالحواس تتصف بالذاتية يا ألكسندر. وما يقرفك يمكن له أن يكون جذاباً لآخرين. ربما يطلق الوحش هذه الرائحة كأنشودة حب، كي يجتذب أنثاه – قالت الجدة باسمة.

- ياه! إنها رائحة جثة فأر ممزوج ببول فيل، وطعام فاسد و...

فقاطعته الجدة :

- هذا يعني أنها مثل رائحة جوربيك.

كان يلح على أعضاء الحملة إحساس بأن هناك مئات العيون تراقبهم من الخضرة الكثيفة. يشعرون بأنهم مكشوفون، مضاؤون مثلما هم بفعل الضوء المرتعش الذي ينشره الموقد ومصباحان بتروليان. انقضى الشطر الأول من الليل دون مفاجآت تذكر، إلى أن حلت نوبة أليكس وكاتي وأحد الجنود. أمضى الفتى الساعة الأولى وهو يتأمل الليل وانعكاس الماء راعياً نوم الآخرين. كان يفكر في مقدار التغير الذي طرأ عليه خلال أيام قليلة. وهو يستطيع الآن قضاء وقت طويل ساكناً وصامتاً، مستغرقاً في أفكاره، دون حاجة إلى ألعاب الفيديو، أو إلى دراجته، أو إلى التلفاز، كما كانت حاله من قبل. اكتشف أنه قادر على الانتقال إلى مكان الهدوء والصمت الحميم هذا الذي كان يتوجب عليه بلوغه وهو يتسلق الجبال. فأول درس أعطاه أبوه إياه في تسلق الجبال هو أن نصف جهده يتبدد هباء إذا ما كان متوتراً أو جزعاً أو متعجلاً. وإنه يحتاج إلى الهدوء لكي يتغلب على الجبل. وكان بإمكانه تطبيق هذا الدرس وهو يتسلق، ولكنه لم يفده قبل الآن في مظاهر أخرى من حياته. انتبه إلى أن هناك أموراً كثيرة يمكنه التأمل والتفكير فيها، ولكن الصورة الأكثر تواتراً هي صورة أمه إذا ما ماتت... ودائماً يتوقف عند هذا الحد. لقد صمم ألا يضع نفسه في هذا الموقف لأنه أشبه باستدعاء المصيبة. فكان يركز تفكيره في المقابل على إرسال طاقة إيجابية إليها؛ وكانت هذه هي طريقته في مساعدتها.

وفجأة قطعت ضجةٌ أفكاره. سمع بكل وضوح وقع أقدام مارد يحطم الشجيرات القريبة. أحس بانقباض في قلبه، وكأنه يختنق. ولأول مرة منذ

فقد نظارته في فناء ماورو كارياس، أحس بالشوق إليها، لأن نظره كان أسوأ حالاً في الليل. انتظر دون أن يدري ما يفعل، وهو يمسك المسدس بكلتا يديه، مثلما كان يرى في الأفلام، لكي يسيطر على ارتجافه. وعندما لحظ أن النباتات تتحرك على مقربة منه، كما لو أن هناك سرية من الأعداء ترصده، أطلق صرخة طويلة مزلزلة، دوت مثل صفير سفينة تشرف على الغرق، وأيقظت الجميع. وخلال لحظة كانت جدته إلى جواره ممسكة ببندقيتها. ووجد الاثنان نفسيهما وجهاً لوجه مع رأس حيوان لم يتمكنا للوهلة الأولى من تحديد نوعه. كان خنزيراً برياً ضخماً. لم يتحركا لأن المفاجأة شلتهما، وقد أنقذهما ذلك، لأن الحيوان، مثله مثل أليكس، لا يرى جيداً في الظلام. ولحسن الحظ أن اتجاه الهواء كان معاكساً لاتجاههما، وهكذا لم يستطع شمّ رائحتهما. كان سيسر سانتوس هو أول من تسلل من أرجوحة نومه بحذر وقدر الوضع، على الرغم من الرؤية السيئة.

- لا يتحركنّ أحد... – أصدر الأمر بصوت هامس، كيلا يجتذب الخنزير البري.

إن لحمه لذيذ، ولو أنهم اصطادوه فإنه سيكفي للاحتفال عدة أيام، ولكن لم يكن هناك ضوء كاف لإطلاق النار، ولم يتجرأ أحد على حمل متشيتي والهجوم على ذلك الحيوان الخطر. مرّ الخنزير مطمئناً بين أراجيح النوم، متشمماً المؤن المعلقة بحبال لإنقاذها من الفئران والنمل، ودسّ أنفه أخيراً في خيمة البروفيسور لودفيك ليبلانك الذي أوشك أن يصاب بسكتة قلبية من الذعر. ولم يبق مهرب سوى الانتظار إلى أن يمل الضيف الثقيل من التجول في المخيم وينصرف، وقد مرّ قريباً جداً من أليكس، بحيث كان بإمكان هذا أن يمد يده ويلمس وبره الخشن. بعد أن زال التوتر وتمكنوا من المزاح، أحس الفتى أنه تصرف بهستيرية حين أطلق صرخته بتلك الطريقة، لكن سيسر سانتوس أكد له أنه تصرف التصرف الصحيح. وكرر الدليل تعليماته حول ما يجب عمله في حالات الإنذار: الانحناء وإطلاق صرخة في البداية، وبعد ذلك إطلاق النار. ولم ينتهي من قول ذلك حتى دوى صوت رصاصة: إنه لودفيك ليبلانك يطلق النار في الهواء بعد عشر دقائق من انقضاء الخطر. لقد كان البروفيسور رخو الزناد، مثلما قالت كاتي كولد.

نوبة الحراسة الثالثة، عندما صار الليل أشد حلكة وبرودة، كانت من نصيب سيسر سانتوس وناديا وأحد الجنود. تردد الدليل في إيقاظ ابنته التي كانت تنام بعمق، محتضنة بوروبا، ولكنه أدرك أنها لن تغفر له إذا ما فعل ذلك. أزاحت الطفلة النعاس عنها بتناول رشفتين من القهوة مع ما يكفي من السكر، وتدثرت بأفضل ما أمكنها بارتداء قميصين، وسترتها وسترة أبيها. كان أليكس قد نام ساعتين فقط، وكان متعباً جداً، ولكنه حين لمح ناديا على ضوء الموقد الخافت وهي تتهيأ لأداء نوبة حراستها نهض هو أيضاً، مستعداً لمرافقتها. فهمست لتطمئنه:

- إنني في أمان، لا تقلق. لدي الطلسم الذي يحميني.

وأمره سيسر سانتوس :

- عد إلى أرجوحة نومك. كلنا بحاجة إلى النوم، ولهذا تنظم الحراسة في ورديّات.

انصاع أليكس دون رغبة، مصمماً على البقاء مستيقظاً، ولكن النعاس غلبه بعد دقائق قليلة. لم يستطع أن يقدر كم من الوقت استغرق في النوم، ولكن لا بد أنه نام أكثر من ساعتين، لأنه عندما استيقظ، مفزعاً من الضجة التي ثارت حوله، كانت نوبة حراسة ناديا قد انتهت منذ بعض الوقت. لقد بدأ الفجر بالبزوغ، وكان هناك ضباب حليبي وبرودة شديدة، ولكن الجميع كانوا مستيقظين. وكانت تنتشر في الهواء رائحة كثيفة جداً إلى حد يمكن معه قطعها بسكين.

- ماذا جرى؟ - سأل وهو يتدحرج خارجاً من أرجوحة نومه، وما يزال مشوشاً من النعاس.

- يجب ألا يخرج أحد من المخيم لأي سبب! ألقوا مزيداً من الحطب في الموقد! – أمرهم سيسر سانتوس الذي كان يربط منديلاً على وجهه ويحمل بندقية في يده، ومصباحاً في اليد الأخرى، متفحصاً الضباب الرمادي الرجراج الذي يداهم الغابة مع بزوغ الفجر.

أسرع كل من كاتي وناديا وأليكس إلى تغذية الموقد بمزيد من الحطب فازداد الضياء قليلاً. كان كاراكاوي هو الذي أطلق صوت الإنذار: فأحد الجنديين اللذين يشاركانه نوبة الحراسة قد اختفى. أطلق سيسر سانتوس طلقتين في الهواء، مستدعياً إياه، وعندما لم يأته جواب، قرر الذهاب مع تيموثي بروس وجنديين للبحث في المنطقة المحيطة، تاركين الآخرين

مسلحين بالمسدسات حول الموقد. وكان على الجميع أن يحذوا حذو الدليل ويكمموا وجوههم بمناديل لكي يستطيعوا التنفس.

مرت بضع دقائق بدت أبدية، دون أن ينطق أحد بكلمة. في هذا الوقت تبدأ القردة عادة بالاستيقاظ على قمم الأشجار، وتعلن بصرخاتها التي ترن مثل نباح الكلاب، عن اليوم الجديد، ولكن صمتاً مروعاً كان يخيم هذا الصباح. فالحيوانات، وحتى الطيور، قد هربت. وفجأة دوى صوت رصاصة، تلاه صوت سيسر سانتوس، ثم بعد ذلك صرخات الرجال الآخرين. وبعد دقيقة من ذلك جاء تيموثي بروس منقطع الأنفاس: لقد وجدوا الكابوكلو.

كان الرجل مطروحاً على وجهه بين الأعشاب. ولكن رأسه مع ذلك كان متوجهاً إلى الأعلى، كما لو أن يداً شديدة القوة قد أدارته تسعين درجة نحو ظهره، مهشّمة عظام الرقبة. كانت عيناه مفتوحتين وملامح رعب مطلق تشوه وجهه. وعندما قلبوه وجدوا صدره وبطنه ممزقين بجراح عميقة. وكانت هناك مئات الحشرات الغريبة، والقرادات، والجداجد على الجسد. وأكدت الدكتورة أومايرا توريس ما هو جلي: إنه ميت. هرع تيموثي بروس بحثاً عن آلة التصوير لكي يحفظ شهادة عما حدث بينما التقط سيسر سانتوس بعض الحشرات ووضعها في كيس بلاستيكي ليأخذها إلى الأب بالدوميرو في سانتا ماريا دي لا ليوبيا، الذي يعرف في علم الحشرات، ويجمع ما في المنطقة منها. كانت رائحة النتانة في المكان أسوأ بكثير، وقد احتاجوا إلى بذل جهود إرادية كبيرة كيلا يبتعدوا هاربين.

أعطى سيسر سانتوس تعليمات إلى أحد الجنود لكي يعود لحراسة جويل غونثالث الذي بقي وحيداً في المخيم، وإلى كاراكاوي والجندي الآخر لكي يتفحصا المنطقة القريبة. كان الدليل الهندي، ماتووي، يتفحص الجثة باضطراب عميق؛ لقد تحول لونه إلى الرمادي، كما لو أنه في مواجهة شبحه. احتضنت ناديا أباها وخبأت وجهها في صدره كي لا ترى ذلك المشهد المروع. وهتف ماتووي :

- إنه الوحش!

- هذا ليس من فعل أي وحش يا رجل، إنه من عمل الهنود – عارضه البروفيسور ليبلانك الشاحب من التأثر، وكان يحمل منديلاً مضمخاً بماء الكولونيا في إحدى يديه المرتجفتين والمسدس في اليد الأخرى.

في هذه اللحظة رجع ليبلانك القهقرى قليلاً، فتعثر ووقع جالساً في الطين. أطلق لعنة وأراد الوقوف، ولكنه مع كل حركة يقوم بها كان ينزلق أكثر فأكثر، متمرغاً في مادة قاتمة، طرية ومتخثرة. ومن الرائحة المرعبة عرفوا أنه ليس وحلاً، وإنما مستنقع كبير من البراز وهكذا صار الأنثروبولوجي المشهور مغطى، حرفياً، بالخراء من رأسه إلى قدميه. مدّ إليه سيسر سانتوس وتيموثي بروس غصناً ليسحباه و يساعداه على الخروج، ثم رافقاه إلى النهر، وهما على مسافة حذرة منه كيلا يلمساه. ولم يجد ليبلانك بدّاً من أن ينقع نفسه في ماء النهر لوقت لا بأس به، وهو يرتجف من المهانة، والبرد، والخوف، والغضب.

وقد رفض كاراكاوي، مساعده الشخصي، رفضاً قاطعاً فركه بالصابون أو غسل ملابسه، وعلى الرغم من الظروف المأساوية، كان على الآخرين أن يكبحوا أنفسهم كيلا ينفجروا في قهقهات عصبية محضة. لقد كان يجول في أذهان الجميع التفكير نفسه: لا بد أن يكون الكائن الذي أنتج هذا البراز بحجم فيل.

- إنني واثقة من أن الكائن الذي فعل هذا يأكل وجبة قصوى: خضروات فواكه، وشيء من اللحم النيئ – قالت ذلك الدكتورة التي ربطت منديلاً يغطي أنفها وفمها، بينما هي تتفحص قليلاً من تلك المادة تحت عدسة مكبرة.

و في أثناء ذلك كانت كاتي كولد تجثو على ركبتيها متفحصة الأرض والنباتات، وإلى جانبها حفيدها يقلدها.

أشار الفتى :

- انظري يا جدتي، توجد أغصان مكسرة هنا، وفي بعض الأماكن توجد شجيرات مهروسة، كما لو أن قوائم ضخمة قد داستها. وقد وجدت بعض الشعر الثخين والقاسي...

فقالت الجدة :

- ربما يكون الخنزير البري.

- وتوجد أيضاً حشرات كثيرة، وهي من نوع الحشرات نفسها التي على الجثة. لم أر مثلها من قبل.

ما إن أشرق ضوء النهار حتى بادر سيسر سانتوس وكاراكاوي إلى تعليق جثمان الجندي عاثر الحظ على شجرة، في أعلى مكان استطاعا بلوغه، بعد لفه بأرجوحة نوم. أما البروفيسور الذي تسببت عصبيته في تشنج عينه اليمنى وارتعاش ركبتيه، فقد استعد لاتخاذ القرار. قال إنهم معرضون جميعهم لخطر الموت، وإنه هو، لودفيك ليبلانك، باعتباره المسؤول عن الجماعة، عليه أن يتولى إصدار الأوامر. مقتل الجندي الأول يؤكد نظريته بأن الهنود هم أناس قتلة بطبعهم، وبأنهم باطنيون وغدارون. أما موت الجندي الثاني، في ظروف شديدة الغرابة، فيمكن أن ينسب أيضاً إلى الهنود، ولكنه وافق على أنه لا يمكن استبعاد أن يكون الوحش هو الفاعل. والحل الأمثل هو في نصب الشراك التي من تصميمه وربما يحالفهم الحظ ويقع فيها ذلك المخلوق الذي يبحثون عنه قبل أن يعود ويقتل المزيد، ثم العودة بعد ذلك فوراً إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، حيث يمكن الحصول على طائرة هيلوكبتر. واستخلص الآخرون أن الرجل الضئيل قد تعلم شيئاً من تمرغه في بركة البراز.

- لن يتجرأ النقيب آريوستو على رفض مساعدة لودفيك ليبلانك – قال ذلك البروفيسور. وكان ميل الأنثروبولوجي إلى الإشارة إلى نفسه بصيغة الغائب قد ازدادت حدة مع توغلهم في الأراضي المجهولة، ومع ظهور إشارات على وجود الوحش. وقد أبدى عدد من أعضاء الفريق موافقتهم على ما طرحه. غير أن كاتي كولد أعربت عن تصميمها على المضي قدماً وطالبت بأن يبقى تيموثي بروس معها، لأنه لا جدوى من العثور على ذلك المخلوق ما لم تتوفر صور تثبت ذلك. اقترح البروفيسور أن ينفصلوا عن بعضهم، وأن يعود من يرغبون في ذلك إلى الضيعة في أحد الزورقين. أبدى الجنود المتبقون والدليل الهندي ماتووي رغبتهم في الرجوع بأسرع ما يمكن، فقد كانوا خائفين. أما الدكتورة أومايرا توريس بالمقابل، فقالت إنها وصلت حتى هنا في محاولة لتلقيح الهنود، وربما لن تتاح لها فرصة أخرى لعمل ذلك في وقت قريب، وإنها لا تفكر في التراجع لدى أول عائق.

- أنت امرأة شجاعة يا أومايرا – علق سيسر سانتوس بإعجاب، ثم أضاف: - أنا سأبقى. إنني الدليل ولا يمكنني ترككم هنا.

تبادل أليكس وناديا نظرة متواطئة: فقد لاحظا كيف يلاحق سيسر سانتوس الدكتورة بنظره ولا يضيع فرصة ليكون قريباً منها. وقد تكهنا كلاهما، قبل أن يقول ذلك ن بأنها إذا ما بقيت، فسوف يبقى هو أيضاً.

- وكيف سنتمكن نحن من العودة من دونك؟ - أراد ليبلانك أن يعرف وهو يشعر بقلق شديد.

فقال له سيسر سانتوس:

- بإمكان كاراكاوي أن يقودكم.

ولكن هذا الأخير رفض، باقتضاب، كعادته :

- لا أريد.

وقال أليكس :

- وأنا أيضاً لا أفكر في ترك جدتي وحدها.

- أنا لا أحتاج إليك، ولا أريد مرافقة أطفال يا ألكسندر - زمجرت جدته، ولكن الجميع استطاعوا رؤية بريق الإعجاب في عينيها اللتين كعيني طير جارح، حيال قرار حفيدها.

- أما أنا فسوف أذهب لإحضار تعزيزات - قال ليبلانك.

سألته كاتي كولد ببرود :

- ألست المسؤول عن هذه الحملة يا بروفيسور؟

فتلعثم الأنثروبولوجي :

- سأكون هناك أكثر فائدة من وجودي هنا...

- افعل ما تشاء، ولكنك إذا ذهبت، فسوف أنشر أنا ذلك في الانترناشيونال جيوغرافيك ليعرف العالم بأسره مدى شجاعتك يا بروفيسور ليبلانك - قالت متوعدة.

وأخيراً اتفقوا على أن يرجع أحد الجنود والهندي ماتووي برفقة جويل غونثالث إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا. الرحلة ستكون أقصر، لأنهم سيمضون مع التيار. أما الآخرون، بمن فيهم لودفيك ليبلانك، الذي لم يتجرأ على تحدي كاتي كولد، فسوف يبقون حيث هم إلى أن تصلهم تعزيزات. وعند الضحى كان كل شيء جاهزاً، ودّع أفراد الحملة بعضهم بعضاً، وانطلق المركب عائداً بالجريح.

أمضوا بقية ذلك اليوم وشطراً لا بأس به من اليوم التالي في نصب شرك للوحش وفق إرشادات البروفيسور ليبلانك. لقد كان الفخ بساطة طفولية: حفر حفرة كبيرة في الأرض، وتغطيتها بشبكة مموهة بالأغصان والأوراق. ويفترض أن يسقط الجسد، لدى المرور فوقها، في الحفرة ساحباً معه الشبكة. وفي قاع الحفرة يوجد جهاز إنذار يعمل بالبطارية، يرن فوراً لتنبيه أفراد الحملة. وتتمثل الخطة في الإسراع إلى المكان قبل أن يتمكن المخلوق من التخلص من الشبكة والخروج من الحفرة، ورميه بعدة كبسولات من مخدر قوي قادر على تنويم وحيد قرن.

أصعب ما في المسألة كان حفر حفرة عميقة يمكن لها أن تتسع لمخلوق بضخامة الوحش. الجميع بدؤوا العمل بالمعاول، باستثناء ناديا وليبلانك الأولى لأنها تعارض فكرة إلحاق الأذى بالحيوان، والثاني لأنه يشعر بألم في ظهره. وقد تبين أن التربة مختلفة عما ظنه البروفيسور عندما صمم مصيدته براحة وهو في غرفة مكتبه في بيته، على بعد آلاف الأميال. فقد كانت هناك قشرة رقيقة من الدبال، وتحتها شبكة قاسية من الجذور المتشابكة، وبعد ذلك صلصال زلق كأنه الصابون، وكلما تعمقوا في الحفر كانت الحفرة تمتلئ بماء مائل إلى الحمرة، تسبح فيه كل أنواع الحشرات. وأخيراً تخلوا عن المهمة، وقد هزمتهم العقبات. اقترح أليكس استخدام الشباك بتعليقها على الأشجار بواسطة نظام من الحبال، ووضع طعم تحتها؛ وعندما تقترب الطريدة لتستولي على الطعم، يرن جهاز الإنذار، وتسقط الشبكة عليها فوراً. وقد رأى الجميع، باستثناء ليبلانك، أنه يمكن لهذه الطريقة، نظرياً، أن تنفع، ولكنهم كانوا متعبين ولم يشاؤوا تجربتها، وقرروا تأجيل المشروع إلى صباح اليوم التالي.

- آمل ألا تنفع فكرتك يا جغوار – قالت له ناديا.

فرد الفتى:

- ولكن الوحش خطير.

- وما الذي سيفعلونه به إذا ما اصطادوه؟ سيقتلونه؟ سيقطعونه أشلاء ليدرسوه؟ أم أنهم سيحشرونه في قفص طوال ما تبقى من حياته؟

- وما هو الحل الذي ترينه أنت يا ناديا؟

- التكلم معه وسؤاله عما يريده.

- يا للفكرة العبقرية! ويمكننا أن ندعوه أيضاً لتناول الشاي... – قال لها ساخراً.

فأكدت ناديا:

- كل الحيوانات تتواصل فيما بينها.

- هذا ما تقوله أيضاً أختي نيكول، ولكنها في التاسعة من عمرها.

وردت ناديا :

- أرى أنها تعرف وهي في التاسعة أكثر مما تعرفه وأنت في الخامسة عشرة.

كانوا في مكان جميل جداً. فالخضرة الكثيفة والمتشابكة على الضفة تتباعد في الداخل، حيث تحرز الغابة جلالاً عظيماً. فجذوع الأشجار الطويلة والمستقيمة تبدو أشبه بأعمدة كاتدرائية خضراء هائلة. وتظهر أزهار الأوركيدا وغيرها متدلية من الأغصان بينما تغطي السرخسيات الأرض. وكان هناك تنوع في الحيوانات إلى حد لا يتوفر معه الصمت أبداً، فمنذ الفجر وحتى ساعة متقدمة من الليل يبدأ نقيق الضفادع، وزعيق القردة. ومع ذلك، فإن جنة عدن تلك كانت تنطوي على مخاطر كثيرة: فالمسافات هائلة، والعزلة مطلقة، ولا يمكن التوجه وتحديد الأمكنة دون معرفة مسبقة للأرض. وعلى حد قول ليبلانك – وكان سيسر سانتوس يوافقه في هذا الرأي - فإن الطريقة الوحيدة للتحرك في هذه المنطقة هي بمساعدة الهنود. ولا بد بالتالي من اجتذابهم. وقد كانت الدكتورة أومايرا توريس هي أشد المهتمين بذلك، لأنها تريد إنجاز مهمتها بتلقيحهم، وبإقرار نظام رقابة صحية، مثلما أوضحت هي نفسها.

- لا أظن أم الهنود سيقدمون لك أذرعهم طوعاً لتقومي بوخزهم بحقن لقاحاتك يا أومايرا. فهم لم يروا حقنة في حياتهم – قال لها سيسر سانتوس مبتسماً. وكان هناك تيار مودة متبادلة بين الاثنين، وقد صارا يتعاملان بألفة منذ بعض الوقت.

فقالت وهي تغمز بعينها :

- سنقول لهم إنه سحر قوي من صنع البيض.

فوافقها سيسر سانتوس :

- وهذا صحيح تماماً.

لقد كانت هناك، حسب قول الدليل، عدة قبائل في محيط المكان، ولا بد أنهم قد اتصلوا، ولو بصورة عابرة، بالعالم الخارجي. فقد رأى من طائرته الصغيرة عدداً من الشابونو، ولأنه لم يجد مكاناً يحط فيه، فقد اكتفى بتثبيت تلك المواقع على خريطته. وكانت تلك الأكواخ الجماعية التي رآها صغيرة، مما يعني أن كل قبيلة تتألف من عدد قليل جداً من الأسر. ووفق تأكيدات البروفيسور ليبلانك، الذي يقول إنه ضليع في الموضوع، فإن الحد الأدنى لعدد ساكني كل تشابونو هو حوالي خمسين شخصاً – لأنهم لا يستطيعون إذا كانوا أقل من ذلك الدفاع عن أنفسهم في مواجهة الأعداء – ونادراً ما يزيد العدد عن المئتين والخمسين. وكانت تساور سيسر سانتوس كذلك الشكوك بوجود قبائل معزولة، لم يرها أحد قط حتى الآن، مثلما تأمل الدكتورة توريس، ولكن الطريقة الوحيدة للوصول إليهم هي من الجو. فلا بد من الصعود إلى غابة النجد، إلى منطقة الشلالات الساحرة، التي لم يستطع أحد من الغرباء الوصول إليها قبل اختراع الطائرات والحوامات.

ومن أجل فكرة اجتذاب الهنود، ربط الدليل حبلاً بين شجرتين، وعلق به بعض الهدايا: عقود من الخرز، قطع قماش ملونة، مرايا وأدوات بلاستيكية رخيصة. واحتفظ بمناجل المتشيتي والسكاكين والأدوات الفولاذية إلى ما بعد، عندما تبدأ المفاوضات الحقيقية وتبادل الهدايا.

حاول سيسر سانتوس في مساء ذلك اليوم الاتصال بجهاز اللاسلكي مع النقيب آريوستو وماورو كاريّاس في سانتا ماريا دي لا ليوبيا، ولكن الجهاز لم يكن يعمل. فراح البروفيسور ليبلانك يذرع المخيم غاضباً لهذا العارض المعاكس الجديد، بينما كان الآخرون يتناوبون دون جدوى محاولة إرسال أو تلقي رسالة. اقتادت ناديا أليكس جانباً لتخبره بأنها في الليلة السابقة، قبل أن يقتل الجندي خلال نوبة حراسة كاراكاوي، رأت الهندي يعالج جهاز اللاسلكي. وقالت إنها استلقت عندما انتهت نوبة حراستها، ولكنها لم تنم فوراً، واستطاعت من أرجوحة نومها أن ترى كاراكاوي بالقرب من الجهاز.

- هل رأيته بوضوح يا ناديا؟

- لا، لأن الظلام كان مخيماً، ولكن الأشخاص الوحيدين اللذين كانوا مستيقظين في تلك النوبة هم الجنديان وكاراكاوي. وأنا واثقة

تقريباً من أن من رأيته لم يكن أياً من الجنديين – ردّت ناديا، وأضافت:
- أظن أن كاراكاوي هو الشخص الذي ذكره ماورو كاريّاس. ربما كان جزءاً من خطته ألا نتمكن من طلب النجدة إذا ما احتجنا إليها.

فقرر أليكس :

- يجب علينا أن نخبر أباك.

تلقى سيسر سانتوس الخبر دون اهتمام، واكتفى بتنبيههما إلى أنه عليهما أن يكونا متأكدين تماماً قبل اتهام أي شخص. فهناك أسباب كثيرة تجعل جهاز لاسلكي قديماً مثل هذا يتعطل. ثم ما هو السبب الذي يجعل كاراكاوي يعطله؟ فمن غير المناسب له أيضاً أن يجد نفسه معزولاً ودون اتصال. وطمأنهما بأن التعزيزات ستصلهم خلال ثلاثة أو أربعة أيام. وانتهى إلى القول:

- لسنا ضائعين، وإنما نحن معزولين وحسب.

فسألته ناديا بقلق :

- وماذا عن الوحش يا أبي؟

- لا ندري إذا ما كان له وجود يا ابنتي. أما الهنود بالمقابل، فيمكننا أن نكون متأكدين من وجودهم. وهم سيقتربون عاجلاً أم آجلاً، ونأمل أن يفعلوا ذلك بنوايا مسالمة. ولكننا مسلحون جيداً على أي حال.

ففند أليكس قوله :

- الجندي الذي مات كان يحمل بندقية، ولكنها لم تنفعه في شيء.

- لقد سها. يجب علينا من الآن فصاعداً أن نكون أكثر تيقظاً. من المؤسف أننا صرنا ستة بالغين فقط من أجل الحراسة.

- يمكن اعتباري بالغاً أيضاً – أكد أليكس.

- لا بأس، أما ناديا فلا. فهي يمكنها أن ترافقني في نوبة حراستي فقط – قرر سيسر سانتوس.

في ذلك اليوم اكتشفت ناديا بالقرب من المخيم شجرة أوروكو بود، فقطفت عدداً من ثمارها التي تبدو مثل حبات لوز مكسوة بالوبر، وفتحتها وأخرجت بذوراً حمراء من داخلها. وحين ضغطتها بين أصابعها، مخلوطة بقليل من اللعاب، شكلت عجينة حمراء لها قوام الصابون، هي نفسها التي يستخدمها الهنود، مع أصبغة نباتية أخرى، لتلوين الجسد. رسم أليكس وناديا خطوطاً ودوائر ونقاطاً على وجهيهما، ثم ربطا رياشاً وبذوراً على

ساعديهما. وعندما رآهما تيموثي بروس وكاتي كولد، ألحا على التقاط صور لهما، بينما ألحت أومايرا توريس على تسريح شعر الفتاة المجعد وتزيينه بأزهار أوركيدا صغيرة، أما سيسر سانتوس بالمقابل، فلم يحتف بذلك: فرؤية ابنته مزينة مثل أميرة هندية ملأه بالأسى.

عندما خفت الضوء، قرروا أن الشمس توشك على الغروب وراء الأفق في جهة ما، مفسحة المجال لحلول الليل؛ فنادراً ما كانت ترى من تحت الأشجار، وكان بريقها مشتتاً، يتسرب من خلال تخريمات الطبيعة الخضراء. ولم تكن عين السماء الزرقاء تظهر بوضوح إلا في بعض الأحيان فقط، حيث تكون شجرة قد سقطت. في مثل هذا الوقت تبدأ ظلال الخضرة بالإحاطة بهم كسور، وفي أقل من ساعة تتحول الغابة لتصير سوداء وثقيلة. طلبت ناديا من أليكس أن يعزف الناي ليسليهم، فغمرت الغابة لبعض الوقت أنغام موسيقى حساسة وبلورية. كان القرد بوروبا يتابع اللحن وهو يهز رأسه على وقع الأنغام. وكان سيسر سانتوس والدكتورة أومايرا توريس يقرفصان إلى جوار الموقد ويشويان بعض السمك للعشاء. بينما كانت كاتي كولد وتيموثي بروس وأحد الجنود منهمكين في تثبيت الخيام وحماية المؤن من القرود والنمل. أما كاراكاوي والجندي الآخر، فكانا مسلحين ومتأهبين، يقومان بالحراسة. وكان البروفيسور ليبلانك يملي الأفكار التي تمر في ذهنه في آلة تسجيل صغيرة يحملها في متناول يده على الدوام لتكون جاهزة عندما تخطر له فكرة خطيرة يجب على الإنسانية ألا تضيعها، وهو ما يحدث بكثرة دفعت الصغيرين، الحانقين، إلى انتظار فرصة مناسبة ليسرقا له البطاريات. بعد حوالي خمس عشرة دقيقة من كونشيرتو الناي، تحولت بؤرة اهتمام بوروبا؛ فقد بدأ القرد يقفز، ويشد ملابس صاحبته بقلق. حاولت ناديا تجاهله في أول الأمر، ولكن الحيوان لم يتركها لحالها إلى أن نهضت واقفة. وبعد أن أمعنت النظر باتجاه الخضرة الكثيفة، استدعت أليكس بإيماءة، واقتادته بعيداً عن دائرة الضوء التي ينشرها الموقد، دون أن تلفت انتباه الآخرين.

- هس – قالت ذلك وهي تضع إصبعاً على شفتيها.

كانت ما تزال هناك بقية من ضوء النهار، ولكن تمييز الألوان صار غير ممكن تقريباً، فالعالم يبدو بين تدرجات الرمادي والأسود. كان أليكس يشعر بأنه مراقب طوال الوقت منذ الخروج من سانتا ماريا دي لا ليوبيا،

ولكن إحساسه بأن هناك من يتجسس عليه كان قد تلاشى بعد ظهر هذا اليوم بالضبط. فقد داهمه شعور بالهدوء والطمأنينة لم يعرفه منذ أيام كما أن الرائحة النفاذة التي رافقت مقتل الجندي في الليلة السابقة قد تلاشت. توغل الصغيران وبوروبا بضعة أمتار في الخضرة وتوقفوا ينتظرون، بإحساس بالفضول أكثر مما هو القلق. فقد افترضا، دون أن يقولا ذلك، بأنه إذا كان هناك هنود في المنطقة يريدون إلحاق الأذى بهم، فقد كان بإمكانهم عمل ذلك، لأن أعضاء الحملة المضاءين بموقد المخيم، كانوا مكشوفين تماماً لسهامهم ونشاباتهم.

انتظر الصبيان صامتين وهما يشعران بأنهما يغرقان في ضباب قطني، وكما لو أن أبعاد الواقع المعهودة تضيع مع حلول الليل. وعندئذ، وشيئاً فشيئاً، بدأ أليكس يرى الكائنات التي تحيط بهما، واحداً واحداً. كانوا عراة مطليين بخطوط ولطخات ملونة، مع رياش وأحزمة جلدية مربوطة على أذرعهم، صامتين، متخففين، وثابتين. وبالرغم من أنه كان إلى جانبهم، فقد كان يجد صعوبة في رؤيتهم؛ وكأنهم أشباح باهتة. وعندما تمكن من تمييزهم، قدر أليكس بأن هناك على الأقل عشرين منهم، جميعهم من الرجال ويحملون في أيديهم أسلحتهم البدائية.

- آيا – دمدمت ناديا بصوت خافت جداً.

لم يرد عليها أحد، ولكن حركة تكاد لا تدرك بين الأوراق أشارت إلى أن الهنود يقتربون. ولم يكن أليكس واثقاً مما يراه وهو وسط العتمة الخفيفة ودون نظارته، ولكن قلبه انطلق في عدو جنوني وأحس بأن الدم يتدافع في صدغيه. كان يلفه الإحساس الهذياني نفسه لمن يعيش حلماً، وهو الإحساس الذي راوده بحضور الجغوار في فناء معسكر ماورو كاريّاس. فقد كان هناك توتر مماثل، كما لو أن الأحداث تجري في فقاعة زجاجية يمكن لها أن تتشظى فتاتاً في أي لحظة. لقد كان الخطر في الهواء، مثلما كانت عليه الحال وهو مع الجغوار، ولكن الصبي لم يخف فهو لا يشعر بأنه مهدد من تلك الكائنات الشفافة التي تطفو بين الأشجار. ولم تخطر له فكرة إخراج سكينه أو الصراخ طالباً النجدة. ولكن مرّ في ذهنه بالمقابل، كما البرق، مشهد كان قد رآه قبل سنوات في أحد الأفلام: مشهد لقاء طفل مع كائن فضائي. وفكر مفتوناً بأن

الوضع الذي يعيشه في هذه اللحظة مشابه لذلك المشهد، وبأنه لن يستبدل هذه التجربة بأي شيء في العالم.

كررت ناديا :

- آيا.

ودمدم هو أيضاً : - آيا.

ولم يأتهما أي جواب.

بقي الصغيران ينتظران، دون أن يفلت أي منهما يد الآخر، جامدين مثل تمثالين، وبقي بوروبا كذلك دون حراك، منتظراً وكأنه يعلم بأنه يشارك في لحظة حاسمة. مرت دقائق بلا نهاية، وخيم الليل بسرعة كبيرة، ولفهم بالكامل. وأخيراً انتبها إلى أنهما وحيدان؛ فقد اختفى الهنود بالخفة نفسها التي ظهروا بها.

- من هم؟ - سأل أليكس عندما رجعوا إلى المخيم.

- لا بد أنهم " أناس الضباب " غير المرئيين، أقدم سكان الأمازون وأكثرهم غموضاً. من المعروف أنهم موجودون، ولكن أحداً لم يتبادل معهم الكلام.

- وماذا يريدون منا؟ - سألها أليكس.

- ربما يريدون أن يروا كيف نحن...

فقال :

- وهو الشيء نفسه الذي أريده أنا.

- يجب ألا نخبر أحداً بأننا رأيناهم يا جغوار.

- من الغريب أنهم لم يهاجمونا، ولم يقتربوا كذلك من الهدايا التي علقها لهم أبوك.

وسألته ناديا :

- هل تظن أنهم من قتل الجندي في الزورق؟

- لست أدري، ولكن إذا كانوا هم من فعلوا ذلك، فلماذا لم يهاجمونا اليوم؟

في تلك الليلة أدى أليكس نوبة حراسته بمرافقة جدته دون خوف، لأنه لم يشم رائحة الوحش، ولم يعد يخشى الهنود. فبعد ذلك اللقاء الغريب معهم، اقتنع بأن المسدسات ستكون ضئيلة الفاعلية إذا ما أرادوا مهاجمتهم. فكيف يمكن التصويب إلى هؤلاء الناس غير المرئيين تقريباً؟

فالهنود يتلاشون كالظلال في الليل، إنهم أشباح بكماء يمكن لها الانقضاض عليهم وقتلهم في لحظة واحدة دون أن تتاح لهم الفرصة للانتباه إلى ذلك. ولكنه كان موقناً في أعماقه مع ذلك، بأن تلك النوايا لم تكن تراود أناس الضباب.

- 10 -

مخطوفان

مرّ اليوم التالي بطيئاً ومملاً، هطل فيه المطر مرات عديدة إلى حد أن وابلاً جديداً كان يهطل قبل أن تجف ثيابهم من السابق. وفي تلك الليلة بالذات اختفى الجنديان المتبقيان خلال نوبة حراستهما، وسرعان ما انتبهوا إلى أن الزورق غير موجود أيضاً. لقد هرب الرجلان عبر النهر بعد أن سيطر عليهما الخوف منذ مقتل زميليهما. كانا على وشك التمرد عندما لم يسمح لهما بالعودة إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا في الزورق الأول وقالا إن أحداً لا يدفع لهم مقابل المجازفة بحياتيهما. وقد ردّ عليهما سيسر سانتوس بأن الراتب الذي يدفع لهما هو من أجل هذا بالضبط: أولستما جنديين؟ ومع أنه يمكن لقرارهما بالهرب أن يكلفهما غالياً جداً، إلا أنهما فضلا مواجهة محكمة عسكرية على الموت على يد الهنود أو الوحش. أما بقية أعضاء الحملة، فكان ذلك الزورق يمثل الإمكانية الوحيدة المتاحة لهم للعودة إلى الحضارة؛ وبفقدانه وبتعطل جهاز اللاسلكي وجدوا أنفسهم معزولين نهائياً.

صاح البروفيسور ليبلانك :

- الهنود يعرفون أننا هنا، ولم يعد بمقدورنا البقاء!

- وإلى أين تريد الذهاب يا بروفيسور؟ إذا ما تحركنا من هنا، لن تجدنا طائرات الهيلوكبتر عندما تأتي. فمن السماء لا يظهر أي شيء سوى كتلة الخضرة، ولن يعثروا علينا مطلقاً – أوضح له سيسر سانتوس. فاقترحت كاتي كولد:

- ألا يمكننا السير بمحاذاة مجرى النهر ومحاولة العودة إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا بوسائلنا الخاصة؟

- من المستحيل القيام بذلك سيراً على الأقدام. فهناك عقبات وانحرافات كثيرة – ردّ عليها الدليل.

- أن المذنبة في إيصالنا إلى هذا الوضع يا كولد! كان علينا أن نرجع جميعنا إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، مثلما اقترحت من قبل – تعلل البروفيسور.فسألته الكاتبة :

- لا بأس، أنا المذنبة. ما الذي ستفعله بهذا الشأن؟

- سأقدم شكوى ضدك! سوف أدمرك مهنياً!

فردت دون أي اضطراب :

- ربما سأكون أنا من ستدمرك مهنياً يا بروفيسور.

فقاطعهما سيسر سانتوس قائلاً إنه عليهم أن يوحدوا قواهم، بدل أن يتجادلوا، لكي يقيّموا الموقف: فالهنود يتشككون، وهم لم يظهروا اهتماماً بالهدايا، وإنما يكتفون بمراقبتهم، ولكنهم لم يهاجموهم.

فسأله ليبلانك ساخراً :

- وهل يبدو لك قليلاً ما فعلوه بذلك الجندي المسكين؟

- لا أظن أن الهنود هم من فعلوا ذلك، فليس هذا هو أسلوبهم في القتال. ويمكن لهذه القبيلة أن تكون مسالمة إذا ما حالفنا الحظ – أجابه الدليل.

- أما إذا لم يحالفنا الحظ، فسوف يأكلوننا – زمجر الأنثروبولوجي.

فقالت كاتي :

- سيكون ذلك مناسباً تماماً لك يا بروفيسور. لأنك ستتمكن عندئذ من إثبات نظريتك عن توحش الهنود.

وقاطعهم المصور تيموثي بروس:

- حسن يكفينا حماقات. لا بد لنا من اتخاذ قرار محدد. البقاء أو الذهاب...

- لقد انقضت ثلاثة أيام منذ ذهاب الزورق الأول. وبما أنه يمضي مع التيار، وماتووي يعرف الطريق، فلا بد أنهم قد صاروا الآن في سانتا ماريا دي لا ليوبيا. وغداً أو بعد غد على أبعد تقدير، ستأتي حوامات النقيب آريوستو. سوف يحلقون بها نهاراً، ولهذا علينا أن نبقي الموقد مشتعلاً طوال الوقت، لكي يروا الدخان. الوضع صعب، مثلما قلت، ولكنه ليس خطيراً، هناك أناس كثيرون يعرفون أين نحن، وسيأتون للبحث عنا – أكد سيسر سانتوس.

كانت ناديا مطمئنة، فهي تعانق قردها الصغير، وكأنها غير مدركة خطورة ما يحدث لهم. أما أليكس بالمقابل، فقد توصل إلى أنه لم يجد

نفسه قط في مثل هذه المخاطر، ولا حتى عندما بقي معلقاً في " القبطان " وهي صخرة زلقة لا يتجرأ على تسلقها إلا أكبر خبراء التسلق. ولو لم يكن مربوطاً بحبل إلى خصر أبيه يومذاك، لكان قد مات بكل تأكيد.

كان سيسر سانتوس قد حذر أعضاء الحملة من عدد من حشرات الغابة وحيواناتها، ابتداء من العناكب السامة وحتى الأفاعي، ولكنه نسي أن يذكر النمل. وكان أليكس قد تخلى نهائياً عن استخدام حذائه، ليس لأنه يبقى مبللاً طوال الوقت وتفوح منه رائحة كريهة وحسب، وإنما لأنه يضغط على قدميه كذلك؛ وقد افترض أنه انكمش بفعل الماء. وعلى الرغم من أنه لم يكن، في الأيام الأولى، يخلع الخف الذي أعطاه إياه سيسر سانتوس، إلا أن قدميه امتلأتا بالقروح والقشور الصلبة.

- هذا ليس بالمكان المناسب للأقدام الحساسة – كان هذا هو تعليق جدته الوحيد عندما أراها الجروح الدامية في قدميه.

ولكن لامبالاتها تحولت إلى قلق عندما قرصت حفيدها نملة النار. لم يستطع الصبي أن يكبح صرخة الألم، فقد أحس كما لو أن أحداً يحرق كاحله بسيجارة. خلفت النملة في مكان لسعتها علامة بيضاء ما لبثت أن تحولت خلال دقائق إلى الحمرة وانتفخت مثل حبة كرز. وصعد الألم في موجات إلى الساق، ولم يعد قادراً على أن يخطو خطوة واحدة. نبهته الدكتورة أومايرا توريس إلى أن مفعول السم سيستمر عدة ساعات، ولا بد له من تحمّله دون أي مسكّن آخر سوى كمادات الماء الساخن.

قالت الدكتورة :

- أرجو ألا تكون لديك قابلية للتحسس، لأن العواقب ستكون أخطر في هذه الحالة.

لم يكن أليكس تحسسياً، ولكن اللسعة قوضت مع ذلك شطراً كبيراً من نهاره، وما إن تمكن من الوقوف على قدمه والمشي بضع خطوات، حتى أخبرته ناديا بأنها رأت كاراكاوي يقلّب علب اللقاحات، عندما كان الآخرون منهمكين في أعمالهم. وعندما لاحظ الهندي أنها قد كشفته، أمسكها من ذراعها بقسوة أبقت آثار أصابعه ظاهرة على بشرتها، وحذرها بأنها ستدفع الثمن غالياً إذا ما تفوهت بكلمة عما رأته. كانت واثقة من أن هذا الرجل لن يتورع عن تنفيذ تهديده، ولكن ألكسندر رأى أنه لا يمكنهم السكوت، ولا بد من تنبيه الدكتورة. وناديا التي كانت متعلقة

بالدكتورة مثل أبيها وبدأت تداعب مخيلتها فكرة رؤيتها كزوجة لأبيها، رغبت في أن تخبرها كذلك بالحوار بين ماورو كارياس والنقيب آريوستو، الذي سمعاه في سانتا ماريا دي لا ليوبيا. وكانت ما تزال مقتنعة بأن كاراكاوي هو الشخص المختار لتنفيذ خطط كارياس الخبيثة. ولكنها طلبت من أليكس :

- فلنمتنع الآن عن قول أي شيء.

انتظرا اللحظة المناسبة عندما ابتعد كاراكاوي ليصطاد في النهر، وطرحا الوضع على أومايرا توريس. وقد استمعت إليهما باهتمام كبير، مبدية قلقها لأول مرة منذ أن عرفاها. فحتى في أشد اللحظات دراماتيكية في هذه المغامرة، رأيا فيها امرأة لا تفقد هدوءها؛ فقد كانت لها أعصاب ساموراي شديدة البرودة. وهي لم تهتج في هذه المرة أيضاً، ولكنها أرادت معرفة التفاصيل. وتنفست الصعداء حين علمت أن كاراكاوي قد فتح العلب فقط، ولكنه لم ينزع أختام الزجاجات. وقالت :

- هذه اللقاحات هي الأمل الوحيد لحياة الهنود. علينا حمايتها ككنز.

فقالت ناديا :

- سأتولى أنا وأليكس مراقبة كاراكاوي؛ نحن نعتقد أنه هو الذي عطّل جهاز الإرسال، ولكن أبي يقول إننا لا نستطيع اتهامه دون أدلة.

- يجب ألا نشغل أباك بهذه الشكوك يا ناديا، فلديه ما يكفي من المشاكل يمكننا نحن الثلاثة أن نحيّد كاراكاوي. لا تتوقفا عن مراقبته أيها الصغيران – طلبت منهما أومايرا توريس ذلك، ووعداها بالتنفيذ.

مضى النهار دون مستجدات. فقد واصل سيسر سانتوس مساعيه لتشغيل جهاز الإرسال، ولكن دون نتيجة. وقد كان لدى تيموثي بروس جهاز مذياع أفادهم في الجزء الأول من الرحلة في سماع الأخبار من ماناوس، ولكن موجات البث لم تعد تصل إلى هذا البعد. فقد أصابهم الضجر، فبعد أن اصطادوا بعض الطيور وسمكتين لطعامهم في ذلك اليوم، لم يعد لديهم ما يفعلونه؛ ولم تكن ثمة فائدة من مواصلة صيد المزيد، لأن اللحم يمتلئ بالنمل، أو أنه يتعفن خلال ساعات. وبهذا استطاع أليكس أخيراً أن يفهم عقلية الهنود الذين لا يراكمون أي شيء عادوا للإبقاء على الموقد مدخناً، ليكون إشارة إذا ما جاؤوا للبحث عنهم، بالرغم من أن سيسر سانتوس كان يرى أن الوقت مازال مبكراً على ذلك. أخرج تيموثي بروس أوراق لعب

مهترئة، ولعبوا بوكر، ولعبتي بلاك جاك وروميّ الجن، إلى أن بدأ الضوء يخفت. ولم يعودوا يشمون رائحة الوحش النفاذة.

ذهبت ناديا وكاتي كولد والدكتورة إلى النهر للاغتسال وقضاء حاجتهم، فقد جرى الاتفاق على وجوب عدم مجازفة أحد بالخروج وحيداً من المخيم. فكانت النسوة الثلاثة يخرجن معاً في أمورهن الحميمة، أما الباقون فكانوا يخرجون مثنى مثنى. وكان سيسر سانتوس يرتب الأمور بحيث يبقى دوماً مع أومايرا توريس، وهو ما كان يزعج تيموثي بروس، لأن الإنكليزي كان مفتوناً كذلك بالدكتورة. لقد صورها خلال الرحلة كثيراً إلى حد أنها رفضت مواصلة مجاراته في اتخاذ أوضاع لالتقاط الصور لها، بالرغم من تحذير كاتي كولد له بالحفاظ على الفيلم من أجل تصوير الوحش والهنود. وقد كانت الكاتبة وكاراكاوي هما الشخصين الوحيدين اللذين لم يبد عليهما التأثر بجمال المرأة الشابة. فقد غمغمت كاتي كولد بأنها صارت عجوزاً لا تدقق في وجه جميل، وهو تعليق اعتبره أليكس دليل غيرة، لا تليق بشخص ذكي مثل جدته. أما البروفيسور ليبلانك الذي لا يمكنه المنافسة في الهيئة مع سيسر سانتوس أو في الشباب مع تيموثي بروس، فكان يحاول التأثير في المرأة بوزن شهرته، فلم يكن يضيع فرصة ليقرأ لها بصوت عال فقرات من كتابه، حيث يروي بالتفصيل عن مخاطر تقشعر لها الأبدان واجهها وهو بين الهنود. فكانت تجهد نفسها في تخيل ليبلانك الخواف عارياً إلا من وزرة تستر عورته، يصارع الهنود والضواري بيديه، ويصطاد بالسهام، ويبقى على قيد الحياة دون مساعدة وسط كل أنواع الكوارث الطبيعية، مثلما كان يروي. وعلى كل حال، ولّدت المنافسة بين رجال الفريق لجذب اهتمام أومايرا توريس شيئاً من التوتر، كان يتفاقم مع مرور ساعات الغم بانتظار مجيء طائرات الهيلوكبتر.

نظر أليكس إلى كاحله: كان ما يزال يؤلمه، وقد تورم بعض الشيء، ولكن حبة الكرز الصلبة التي ظهرت حيث لسعته النملة تضاءل حجمها؛ فقد أعطت كمادات الماء الساخن نتيجة طيبة. ولكي يشغل نفسه، تناول الناي وبدأ يعزف معزوفة أمه المفضلة، وهي موسيقى عذبة ورومانسية لمؤلف أوروبي ميت منذ أكثر من قرن، ولكنها كانت ترن بوقع خاص وسط الغابة. لقد كان جده جوزيف كولد محقاً: فالموسيقى لغة كونية. جاء

بوروبا متقافزاً مع انطلاق أول النغمات، وجلس عند قدميه بكل جدية مثل ناقد، وبعد قليل رجعت ناديا مع الدكتورة وكاتي كولد. انتظرت الفتاة إلى أن انهمك الجميع في إعداد المخيم لقضاء الليل، وأومأت لأليكس كي يتبعها بتكتم.

- إنهم هنا مرة أخرى يا جغوار – همست في أذنه.

- الهنود...؟

أجل، أناس الضباب. أظن أنهم جاؤوا من أجل الموسيقى. لا تحدث ضجة واتبعني.

توغلا بضعة أمتار في الخضرة الكثيفة، مثلما فعلا من قبل، وانتظرا ساكنين. لم يستطع أليكس أن يميز أحداً بين الأشجار بالرغم من تحديقه الشديد: فالهنود يذوبون من حوله. وفجأة أحس بأيد تمسكه بقوة من ذراعيه وحين التفت رأى أنه محاصر هو وناديا. لم يبق الهنود بعيدين عنهما كما في المرة السابقة؛ بل كان يمكن لأليكس أن يشم الآن رائحة أجسادهم الحلوة. ولاحظ مجدداً أنهم قصار القامة ونحيلون، ولكنه استطاع التأكد أيضاً من أنهم أقوياء جداً، وأن هناك شيء من الفظاظة في تصرفهم. أيكون ليبلانك محقاً حين يؤكد أنهم عنيفون وقساة؟

- آيا – حاول أن يحييهم.

كممت يد فمه. وقبل أن يستوعب ما يجري أحس أنه رفع عن الأرض من كاحليه وإبطيه. بدأ يتلوى ويرفس، ولكن الأيدي التي تمسك به لم تفلته. أحس بأنهم يضربونه على رأسه، ولم يدر إذا ما كانوا يفعلون ذلك بقبضاتهم أم بحجر، ولكنه أدرك أنه من الأفضل الاستسلام لهم وإلا فإنهم سيغيبونه عن الوعي أو يقتلونه. فكر في ناديا وإذا ما كانوا يجرجرونها هي أيضاً بالقوة. وخيل إليه أنه يسمع صوت جدته من بعيد تناديه، بينما كان الهنود يحملونه متوغلين به في الظلمة مثل أرواح الليل.

شعر ألكسندر كولد بوخزات ملتهبة في كاحله في الموضع الذي لسعته فيه نملة النار، وحيث تضغط الآن يد أحد الهنود الأربعة الذين يحملونه. كان خاطفوه يركضون، ومع كل خطوة كان جسد الفتى يتأرجح بصورة فضة، ويشعر بألم في كتفيه وكأنهما ينخلعان. كانوا قد نزعوا عنه قميصه وعقدوه على رأسه، ليكمموا عينيه ويكتموا صوته. كان يتنفس بصعوبة، وكان رأسه ينبض في الموضع الذي ضربوه فيه، ولكنه

اطمأن لأنه لم يغب عن الوعي، هذا يعني أن المحاربين لم يضربوه بشدة، وأنهم لا ينوون قتله. على الأقل في هذه اللحظة... بدا له أنهم قطعوا مسافة طويلة جداً قبل أن يتوقفوا أخيراً، وأفلتوه ليقع على الأرض مثل كيس بطاطا. أحس بالراحة في عضلاته وعظامه على الفور، بالرغم من أن كاحله كان يتقد بصورة رهيبة. لم يتجرأ على نزع القميص الذي يغطي رأسه كيلا يستفز خاطفيه، ولكن عندما لم يحدث أي شيء بعد قليل من الانتظار، فضل انتزاع القميص عنه. أوقفته ناديا. وعندما اعتادت عيناه على ضوء القمر الخافت، رأى نفسه وسط الغابة، ملقى على فرشة الدبال التي تغطي الأرض. وأحس بوجود الهنود في دائرة على مقربة منه، مع أنه لا يستطيع رؤيتهم في ذلك الضوء الشحيح ودون نظارته. تذكر سكينه متعددة الاستعمالات، فمد يده خلسة إلى حزامه بحثاً عنها، ولكنه لم يستطع استكمال حركته: فقد أوقفته قبضة قوية شدت على معصمه. وعندئذ سمع صوت ناديا وأحس بيدي بوروبا النحيلتين على شعره. أطلق صرخة قوية لأن القرد وضع أصابعه على ورم في رأسه أحدثه الضرب. قالت له الفتاة :

- اهدأ يا جغوار. لن يؤذوننا.

- ماذا جرى؟

- لقد خافوا، ظنوا أنك ستبدأ بالصراخ، فاضطروا إلى حملك بالقوة. إنهم يريدوننا أن نذهب معهم وحسب.

- إلى أين؟ ولماذا؟ - تلعثم الصبي محاولاً الجلوس. كان يشعر بدوي في رأسه كأنه قرع طبول.

ساعدته ناديا على الجلوس وقدمت إليه ماء في قرعة ليشرب. كانت عيناه قد اعتادتا العتمة، ورأى الهنود يراقبونه عن قرب ويعلقون بأصوات عالية، دون خوف من أن يسمعهم أو يصل إليهم أحد. وتوقع أليكس أن يكون بقية أعضاء الحملة منشغلين بالبحث عنهما، مع أن أياً منهم لم يتجرأ على التوغل بعيداً في الليل. وفكر في أن جدته ستكون قلقة للمرة الأولى: فكيف ستوضح لابنها جون أنها أضاعت حفيدها في الأدغال؟ يبدو أن الهنود قد عاملوا ناديا برقة أكبر، لأن الفتاة كانت تتحرك بينهم بثقة. عندما استوى جالساً أحس بشيء دافئ يسيل على صدغه الأيمن ويقطر على كتفه. مرّ عليه بإصبعه ورفعه إلى فمه. ثم غمغم مذعوراً :

- لقد جرحوا رأسي.

فحذرته ناديا:

- تظاهر بأنك لا تتألم يا جغوار، مثلما يفعل المحاربون الحقيقيون.

فاستنتج الفتى بأن عليه أن يقوم باستعراض شجاعة: نهض واقفاً وهو يحاول ألا يظهر ارتجاف ركبتيه، ودفع صدره إلى الأمام لتنتصب قامته على أحسن وجه، ثم ضرب صدره بقبضتيه مثلما رأى في أفلام طرزان، وكان يطلق في الوقت نفسه زمجرة كينغ كونغ متواصلة. تراجع الهنود خطوتين إلى الوراء وشهروا أسلحتهم مذهولين. وكرر هو الضربات على صدره والزمجرات، موقناً من أنه قد أثار الذعر في صفوف الأعداء، ولكن المحاربين الهنود، وبدل أن يهربوا مذعورين، بدؤوا يضحكون. وابتسمت ناديا كذلك، وراح بوروبا يتقافز كاشفاً عن أسنانه في ضحكة هستيرية. ثم أخذت أصوات الضحك تتعالى، وبدأ بعض الهنود يسقطون على الأرض جالسين، وآخرون يستلقون على ظهورهم ويرفعون أرجلهم في ابتهاج خالص، وراح آخرون يقلدون الصبي في الصراخ مثل طرزان. استمرت القهقهات لبعض الوقت، لبعض الوقت، إلى أن أحس أليكس أنه يقوم مضحك، فانتقلت إليه أيضاً عدوى الضحك. وأخيراً توقفوا وتبادلوا صفعات تودد على الأكف وهم يمسحون دموعهم.

أحد الهنود كان يبدو في العتمة أضأل حجماً وأكبر سناً، ويتميز بوضع إكليل دائري من الريش فوق رأسه، هو زينته الوحيدة على جسده العاري، بدأ خطبة طويلة. فهمت ناديا المعنى، لأنها تعرف عدداً من لغات الهنود، ومع أن أناس الضباب لهم لغتهم الخاصة، إلا أن كلمات كثيرة كانت متشابهة. كانت واثقة من أنها تستطيع التواصل معهم. وقد فهمت من خطبة الرجل ذي التاج الريشي أنه أنه يشير إلى راهاكاناريوا، روح الطائر آكل اللحم البشري الذي ذكره واليماي، وعن الناهاب. وهي التسمية التي يطلقونها على الغرباء، وعن تشامان خارق القدرات. ومع أنه لم يسمه إلا أنها استنتجت أنه يعني واليماي. وباستخدام الكلمات التي تعرفها والإيماءات باليدين، أشارت الفتاة إلى أن قطعة العظم المنحوتة المعلقة في عنقها هي هدية من ذلك الساحر. تفحص الرجل الذي كان يتصرف كزعيم، الطلسم لبعض الوقت، مبدياً ملامح الإعجاب والتوقير، ثم واصل

خطبتـه، ولكنـه توجـه في هـذه المـرة إلى المحـاربين الـذين اقتربـوا واحـداً فواحداً للمس التميمة.

بعد ذلك جلس الهنود في دائرة وواصلوا أحاديثهم، بينما هم يوزعون عجينة مطهوة، كأنها خبز بلا خمير. تذكر أليكس أنه لم يأكل شيئاً منذ ساعات وأنه جائع جداً. تلقى حصته من العشاء دون أن يأبه للوساخة ودون أن يسأل مم هي مصنوعة؛ فقد صار تأنفه من الطعام جزءاً من التاريخ. وعلى الفور تداول المحاربون فيما بينهم مثانة حيوان تحتوي شراباً لزجاً ذا رائحة حرّيفة وله طعم الخل، بينما هم يرتلون أنشودة لتحدي الأرواح التي تسبب الكوابيس في الليل. لم يقدموا الشراب إلى ناديا ولكنهم أبدوا التهذيب بتقاسمه مع أليكس الذي لم ترقه الرائحة ولا فكرة مشاركة الآخرين الشرب من الوعاء نفسه. كان يتذكر القصة التي رواها سيسر سانتوس عن القبيلة التي أصيبت كلها بالعدوى بسبب مجة من سيجارة صحفي غريب. فقد كان آخر ما يرغب فيه هو نقل جراثيمه إلى هؤلاء الهنود الذين لا يمكن لجهاز مناعتهم أن يقاومها، ولكن ناديا حذرته من أن عدم قبوله الدعوة للشراب سيعتبر إهانة. وأخبرته أن الشراب يدعى ماساتو، وهو مشروب مخمر يصنع من جذور المنديوكا المضوغة مع اللعاب، ولا يشربه إلا الرجال. أحس أليكس أنه سيتقيأ من هذا الشرح، ولكنه لم يتجرأ على رفض الشراب.

بعد الضربات التي تلقاها على رأسه وتناوله الماساتو، انتقل الفتى دون مشقة إلى كوكب الرمال الذهبية والأقمار الستة في السماء الفوسفورية، الذي كان قد رآه وهو في فناء معسكر ماورو كاريّاس. كان مشوشاً جداً ومسمماً بحيث لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة، ولكنه لم يكن مضطراً إلى عمل ذلك لحسن الحظ، لأن المحاربين أيضاً كانوا تحت تأثير الشراب، وسرعان ما راحوا يرقدون على الأرض وهم يشخرون. توقع أليكس لأنهم لن يواصلوا المسير إلى أن ينتشر بعض الضياء وعزى نفسه بالأمل الغامض بأن جدته ستكون قد وصلت إليه عند الفجر. تكوّر على الأرض، دون أن يتذكر أشباح الكوابيس، أو نمل النار، أو العناكب والأفاعي، واستغرق في النوم. ولم يفزع كذلك عندما داهمت رائحة الوحش الفظيعة الهواء.

الكائنان الوحيدان اللذان كانا في وعيهما ومستيقظين عندما ظهر الوحش هما ناديا وبوروبا. أصاب القرد شلل كامل، كما لو أنه قد تحول

إلى حجر، وتمكنت هي من لمح هيئة عملاقة على ضوء القمر قبل أن تفقدها الرائحة وعيها. وسوف تروي لصديقها فيما بعد الأمور نفسها التي قالها الأب بالدميرو: إنه مخلوق ذو مظهر بشري، منتصب، طوله حوالي ثلاثة أمتار، بذراعين قويتين تنتهيان بمخالب معقوفة كأنها السيوف المحدبة، وله رأس صغير، غير متناسب مع حجم البدن. بدا لناديا أنه يتحرك ببطء شديد، ولكن بإمكان الوحش، لو أراد ذلك، أن ينتزع أحشاء الجميع. فالنتانة التي تفوح منه – أو ربما الهلع المطلق الذي يبثه في ضحاياه – تشلهم وكأنها مخدر. أرادت هي أن تصرخ أو تهرب قبل أن يغمى عليها، ولكنها لم تستطع تحريك عضلة واحدة، ورأت في ومضة وعي جسد الجندي مفتوح البطن مثل شاة، واستطاعت أن تتخيل الرعب الذي أصاب ذلك الرجل، وعجزه، وميتته المرعبة.

استيقظ أليكس مشوشاً وهو يحاول أن يتذكر ما جرى، وكان جسده يهتز من مشروب الليلة السابقة الغريب، ومن النتانة التي ما زالت تطفو في الجو. ورأت ناديا والقرد مسلوب الإرادة في حضنها، وكانت تجلس متقاطعة الساقين ونظرتها ساهمة في لا شيء. حبا نحوها كابحاً بمشقة تقلبات أحشائه.

- لقد رأيته يا جغوار – قالت ناديا بصوت ناءٍ، وكأنها في غيبوبة.
- ما الذي رأيته؟
- الوحش. لقد كان هنا، إنه هائل...

ذهب أليكس إلى ما وراء نبتة السرخس ليفرغ معدته، وأحس بعد ذلك بشيء من الراحة، بالرغم من أن رائحة النتانة في الجو أعادت إليه الغثيان. ولدى رجوعه كان المحاربون جاهزين لمواصلة المسير. واستطاع على ضوء الفجر أن يراهم بوضوح لأول مرة. كان مظهرهم المخيف يتفق تماماً مع وصف ليبلانك لهم: فهم عراة، أجسادهم ملونة بالأحمر والأسود والأخضر، يضعون سواراً من الريش على أذرعهم، وشعرهم مقصوصة بصورة دائرية والجزء العلوي من الجمجمة حليق بالكامل، مثل رأس أسقف مستجد. وكانوا يعلقون على ظهورهم أقواساً وسهاماً ونشابات. ويحمل عدد منهم هراوى غليظة، وتظهر في رؤوسهم جميعاً آثار ندوب وقروح، تعتبر أوسمة فخر حربية: فالشجاعة والصلابة تقاسان بآثار ضربات الهراوى التي يحملها المحارب.

كان على أليكس أن يهز ناديا لكي تصحو تماماً، لأن رعب رؤيتها الوحش في الليلة السابقة أفقدها الوعي. تمكنت الفتاة من شرح ما رأته واستمع إليها المحاربون باهتمام، ولكنهم لم يفاجأوا، كما أنهم لم يعلقوا بأي شيء حول الرائحة.

انطلقت الجماعة في المسير على الفور، تغذ الخطى في رتل وراء الزعيم الذي قررت ناديا أن تطلق عليه اسم موكاريتا، لأنها لا تستطيع أن تسأله عن اسمه الحقيقي. وبالنظر إلى حال بشرته، وأسنانه وتشوه قدميه، كان موكاريتا أكثر هرماً بكثير مما قدره أليكس عندما رآه في العتمة، ولكن كان بمثل رشاقة وصلابة المحاربين الآخرين. وكان أحد الرجال الشبان يتميز عن الآخرين، فهو أطول قامة وأصلب عوداً، وجسده كله، على خلاف الآخرين، مطلي بالأسود، باستثناء حزام على شكل قناع أحمر حول عينيه وعلى جبهته. وكان يمشي دائماً إلى جانب الزعيم، كما لو كان معاونه، ويشير إلى نفسه على أنه تاهاما؛ وقد علمت ناديا وأليكس فيما بعد بأن هذا هو لقبه التشريفي لأنه أفضل صياد في القبيلة.

وعلى الرغم من أن المشهد بدا متماثلاً، ولم تكن ثمة نقاط علام مميزة، إلا أن الهنود كانوا يعرفون تماماً إلى أين يتوجهون. ولم يلتفتوا مرة واحدة إلى الوراء ليروا إذا ما كان الصبيان الغريبان يتبعانهم: فهم يعرفون أن لا سبيل أمامهما سوى السير في أثرهم، وإلا فإنهما سيضيعان. كان أليكس وناديا يشعران في بعض الأحيان بأنهما وحيدان، لأن أناس الضباب كانوا يختفون في الخضرة، ولكن هذا الإحساس لم يكن يدوم طويلاً؛ فمثلما كان الهنود يختفون فجأة، كانوا يظهرون في أي لحظة، كما لو أنهم يتدربون على فنون التحول إلى غير مرئيين. واستخلص أليكس أن موهبة الاختفاء هذه لا يمكن نسبتها إلى الطلاء الذي يموهون به أجسادهم، وإنما هي موقف ذهني قبل كل شيء. كيف يفعلون ذلك؟ وقدر كم ستكون حيلة الاختفاء مفيدة في الحياة، وقرر تعلمها. وسيعرف في الأيام التالية أن المسألة ليست حيلة من فنون الإيهام، وإنما هي موبة يتم التوصل إليها عبر ممارسة وتركيز طويلين، مثلما هو تعلم العزف على الناي.

لم يتبدل إيقاع سيرهم السريع طوال عدة ساعات؛ ولم يكونوا يتوقفون إلا بين حين وآخر، عند الجداول، ليشربوا ماءً. كان أليكس جائعاً، ولكنه حمد حظه لأن كاحله، حيث لسعته النملة، لم يعد يؤلمه على

الأقل. لقد أخبره سيسر سانتوس بأن الهنود يأكلون قدر ما يستطيعون – ليس كل يوم على الدوام – وأن أجسامهم معتادة على تخزين الطاقة؛ أما هو بالمقابل، فقد كانت ثلاجة بيته مترعة بالمأكولات دوماً، أو عندما كانت أمه سليمة على الأقل، وإذا ما اضطر في أحد الأيام إلى تجاوز وجبة فإنه يشعر بالإنهاك. ولم يستطع سوى الابتسام حيال الانقلاب الكامل في عاداته. فهو مثلاً، لم ينظف أسنانه بفرشاة، ولم يبدل ثيابه منذ عدة أيام. قرر تجاهل الجوع في معدته، وأن يقتل الجوع بعدم المبالاة. وقد ألقى في مناسبتين نظره على بوصلته واكتشف أنهم يسيرون باتجاه الشمال الشرقي. هل سيأتي أحد لإنقاذهما؟ كيف يمكنه ترك علامات في الطريق؟ هل سيرونهم من طائرة هيلوكبتر؟ لم يكن يشعر بالتفاؤل، فقد كان وضعهم يائساً في الحقيقة. وفاجأه أنه لم يلمح على ناديا إمارات الإنهاك، فقد كانت صديقته تبدو دوماً مستسلمة تماماً للمغامرة.

بعد أربع أو خمس ساعات من المسير – من الصعب تقدير الوقت في ذلك المكان – وصلوا إلى نهر صاف وعميق. وتابعوا السير على ضفته مسافة ميلين تقريباً وظهر فجأة أمام عيني أليكس جبل شاهق جداً وشلال هائل يهوي بدوي حرب، مشكلاً في الأسفل سحابة ضخمة من الزبد ورذاذ الماء.

– إنه النهر النازل من السماء – قال لهما تاهاما.

- 11 -

الضيعة الخفية

سمح موكاريتا ، الزعيم ذو الرياش الصفراء ، للجماعة بأن تستريح قليلاً قبل صعود الجبل. كان له وجه خشبي ، وبشرة مشققة مثل لحاء شجرة. وكان جدياً وطيباً.

- أنا لا أستطيع الصعود – قالت ناديا حين رأت الصخرة السوداء ، الملساء والمبللة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها أليكس مهزومة أمام عائق ، وتعاطف معها لأنه هو نفسه كان خائفاً أيضاً ، بالرغم من أنه قد تسلق خلال سنوات جبالاً وصخوراً كثيرة مع أبيه. فقد كان أبوه جون كولد واحداً من أمهر متسلقي الجبال في الولايات المتحدة وأكثرهم جرأة ، وقد شارك في حملات تسلق شهيرة في أماكن يكاد يكون بلوغها مستحيلاً ، وقد استدعي مرتين للمساعدة في إنقاذ أناس تعرضوا لحوادث في أعالي القمم الجبلية في النمسا وتشيلي. كان يعرف أنه لا يملك مهارة أبيه وجرأته ، ناهيك عن تجربته؛ كما أنه لم ير من قبل صخرة زلقة مثل هذه التي يجدها أمامه الآن. فتسلق الجبل على جانبي الشلال ، دون حبال ودون مساعدة ، كان مستحيلاً عملياً.

اقتربت ناديا من موكاريتا وحاولت أن توضح له بالإشارات والكلمات التي يقاسمان معرفتها بأنها غير قادرة على الصعود. فبدا الزعيم غاضباً جداً ، لأنه راح يطلق الصرخات ، ويشهر أسلحته ، ويومئ بحركات هائجة. وحذا الهنود الآخرون حذوه وهم يحيطون بناديا. فوقف أليكس إلى جانب صديقته محاولاً تهدئة المحاربين بالإشارات ، ولكن الشيء الوحيد الذي استطاع التوصل إليه هو إقدام تاهاما على إمساك ناديا من شعرها والبدء بشدها ، مجرجراً إياها إلى الشلال ، بينما كان بوروبا يضرب بيديه ويطلق الصرخات. وفي لمحة إلهام – أو يأس – انتزع الفتى الناي من حزامه وبدأ

العـزف. فتوقـف الهنـود فـوراً كالمسـحورين؛ أفلـت تاهامـا ناديـا وأحـاطوا جميعهم بأليكس.

وعنـدما هـدأت الخـواطر قلـيلاً، أقنـع ألـيكس ناديـا بأنـه يسـتطيع مساعدتها على الصعود باستخدام حبل. وكرر لها ما سمع أباه يقوله مرات ومرات: " قبل التغلب على الجبل لا بد من تعلم الاستفادة من الخوف ".

فأجهشت ناديا :

- إنني أخاف من المرتفعات يا جغوار فهي تسبب لي الدوار. وأنا أمرض كلما أركب في طائرة أبي...

- أبي يقول إن الخوف جيد، إنه جهاز الإنذار للجسد، يخبرنا بالمخاطر؛ ولكن قد تكون مواجهة الخطر حتمية أحياناً، ولا بد عندئذ من السيطرة على الخوف.

- لا أستطيع!

فقال لها أليكس وهو يثبتها من كتفيها ويجبرها على النظر إلى عينيه :

- اسمعيني يـا ناديـا. تنفسـي بعمـق، واهـدئي. سـوف أعلمـك كيفيـة استخدام الخوف. ثقي بنفسك وبي. سأساعدك على الصعود، وسنفعل ذلك معاً، أعدك بذلك.

وكان الجواب الوحيد هو انفجار ناديا في البكاء على كتف أليكس. لم يدر الفتى ما عليه عمله، فهو لم يكن على مثل هذا القرب من فتاة قط. لقد عانق آلاف المرات، في تخيلاته، سيسليا بارنس، حبيبته مدى الحياة، ولكنـه في الممارسـة سيندفع هارباً إذا مـا حاولـت هـي لمسـه. لقـد كانـت سيسليا بارنس بعيدة جداً، كما لو أنه لا وجود لها: فهو لا يستطيع تذكر وجهها. طوقت ذراعاه ناديا في حركة آلية. وأحس بقلبه يخفق في قلبه مثل نطحات ثور بوفالو، ولكنه وجد ما يكفي من صفاء الذهن ليلحظ مدى عبثية وضعه. فهو في وسط الأدغال، محاط بمحاربين غرباء تغطي أجسامهم ألوان متعددة، ومعه فتاة مسكينة مرعوبة تلوذ بذراعيه، فما الذي يفكر فيه؟ أهو الحب! تمكن من التصرف، فانفصل عن ناديا ليواجهها بحزم. وأمرها وهو يشير إلى الهنود :

- دعك من البكاء وقولي لهؤلاء السادة إننا بحاجة إلى حبل. وتذكري أنك تملكين حماية الطلسم.

فأوضحت ناديا :

- لقد قال واليماي إنه يحميني من البشر والحيوانات والأشباح، ولكنه لم يذكر خطر وقوعي وكسر عنقي.

- تقول جدتي إنه لا بد من أن يكون هناك سبب للموت - واساها صديقها محاولاً الابتسام. ثم أضاف: - ألم تقولي لي إن الأمر متعلق بالقلب؟ هذه فرصة مناسبة لعمل ذلك.

تدبرت ناديا الأمر لتنقل إلى الهنود رغبة الفتى. وعندما تفاهمت معهم أخيراً، بدأ عدد منهم العمل، وسرعان ما صنعوا حبلاً من نباتات متعرشة مجدولة. وحين رأوا أليكس يربط أحد طرفي الحبل حول خصر الفتاة ويلف ما تبقى منه حول صدره، أبدوا فضولاً كبيراً. فهم لا يستطيعون أن يتصوروا لماذا يقوم الغرباء بمثل هذا العمل العبثي: لأنه إذا انزلق أحدهم فسوف يجر الآخر معه.

اقتربت الجماعة من الشلال الذي يسقط طليقاً من علو يزيد على خمسين متراً، ويصطدم في الأسفل مشكلاً سحابة ماء مذهلة، يتوجها قوس قزح هائل. كانت هناك مئات الطيور السوداء تخترق الشلال في كل الاتجاهات. حيا الهنود النهر الذي يهبط من السماء وهم يلوحون بأسلحتهم ويطلقون الصرخات: فقد صاروا قريبين من موطنهم. وعندما يصعدون إلى الأراضي المرتفعة سيشعرون أنهم في منجى من أي خطر. توغل اثنان منهم في الغابة لبعض الوقت ورجعا وهما يحملان بعض الكرات، تبين للصبيين عندما تفحصاها أنها نوع من الراتينج الأبيض الكثيف والدبق جداً. فحذوا حذو الآخرين، وفركوا باطن أكفهم وأقدامهم بتلك العجينة. ولدى ملامسة الأرض، كان الدبال يلتصق بالراتينج، مشكلاً نعلاً غير منتظم. وقد كانت الخطوات الأولى صعبة، ولكنهم ما إن دخلوا تحت رذاذ الماء حتى تبينوا فائدة تلك العملية: فقد كانوا كما لو أنهم ينتعلون أحذية ويضعون قفازات من الصمغ اللاصق.

داروا حول البحيرة التي تتشكل في الأسفل، وسرعان ما بلغوا، مبللين الشلال، وهو ستارة متينة من الماء، تفصلها عدة أمتار عن الجبل. كان دوي الماء صاخباً إلى حد تبين معه استحالة التواصل بالكلام، بل لم يكن بإمكانهم عمل ذلك بالإشارات، لأن الرؤية كانت شبه معدومة، فبخار الماء يحول الهواء إلى زبد أبيض. وقد راودهم الإحساس بأنهم يتقدمون

متلمسين طريقهم وسط سحابة من الضباب. وكان القرد بوروبا، بأمر من ناديا، قد التصق بجسد أليكس مثل رقعة كبيرة دافئة وذات شعر، بينما ناديا تتقدم وراءهم وهي مثبتة بالحبل. لقد كان المحاربون يعرفون الأرض جيداً، وراحوا يتقدمون ببطء، ولكن دون تردد، مقدرين أين يضعون قدمهم في كل خطوة. ولحق بهما الصبيان قريبين منهم ما أمكن، لأنه يكفي الابتعاد خطوتين عنهم حتى يختفوا من مجال الرؤية تماماً. وخيل لأليكس أن اسم هذه القبيلة – شعب الضباب – يأتي من الغمامة الكثيفة التي تتشكل لدى اصطدام الماء بالأرض.

هذا الشلال وغيره من شلالات أعالي الأورينوكو هزمت الغرباء على الدوام، ولكن الهنود جعلوا منها حليفهم. فكانوا يعرفون بالضبط أين يضعون أقدامهم، فقد كانت هناك فجوات طبيعية أو من صنعهم لاشك في أنهم يستخدمونها منذ مئات السنين. تلك الثلم المحفورة في الجبل تشكل درجاً خلف الشلال، يصعد إلى القمة. ودون معرفة وجوده أو موقعه الدقيق، كان من المستحيل صعود هذا الجدار الأملس، المبلل، والزلق، مع وجود الشلال الراعد وراء الظهر. وأي تعثر هناك سيؤدي إلى موت محتم وسط ضجة الزبد المائي.

قبل أن يجدوا أنفسهم معزولين بسبب الضجيج، كان أليكس قد طلب من ناديا عدم النظر إلى أسفل، وأنه عليها أن تركز في محاكاة حركاته، والتشبث بما يتشبث به، مثلما كان هو نفسه يقلد حركات تاهاما الذي يمضي أمامه. وقد أوضح لها كذلك بأن المرحلة الأولى هي الأصعب بسبب الضباب الناتج عن ارتطام الماء بالأرض، ولكن مع تقدمهم في الصعود ستصبح الصخور بكل تأكيد أقل انزلاقاً والرؤية أفضل. ولكن ذلك لم يبث الحماسة في ناديا، لأن مشكلتها الكبرى لم تكن في الرؤية وإنما في الدوار. حاولت تجاهل الارتفاع ودوي الشلال الباعث على الصمم، مفكرة بأن الراتينج على اليدين والقدمين يساعد على الالتصاق بالصخر المبلل. كان الحبل الذي يربطها بأليكس يمنحها شيئاً من الأمان، مع أنه كان واضحاً لديها بأن أي خطوة خاطئة من أي منهما ستلقي بكليهما إلى الفضاء. حاولت اتباع تعليمات أليكس: تركيز الذهن على الحركة التالية، على المكان الدقيق الذي عليها أن تضع قدمها أو يدها فيه، حركة واحدة في كل مرة، دون فقدان الإيقاع، وما إن تتمكن من

التوازن، حتى تتحرك بحذر بحثاً عن الفجوة أو البروز الأعلى، وعلى الفور تتلمس بقدمها حتى تجد فجوة أخرى، وهكذا يمكنها دفع جسدها بضعة سنتيمترات إلى أعلى. لقد كانت الثلم في الجبل عميقة بما يكفي للاستناد، والخطر الأكبر يتمثل في فصل الجسد عن الجبل، يجب عليها أن تتحرك ملتصقة بالصخر. وفي ومضة خاطفة مرّ بوروبا بذهنها: إذا كانت هي مرعوبة، فكيف ستكون حال القرد عاثر الحظ المتعلق بأليكس.

كلما ارتقوا أكثر كانت الرؤية تزداد وضوحاً، ولكن المسافة بين الشلال والجبل تقلصت. وكان الصغيران يشعران في كل مرة بأن الماء أقرب إلى ظهريهما. وفي اللحظة التي كان فيها أليكس وناديا يتساءلان عن كيفية مواصلة الصعود إلى الجزء العلوي من الشلال، بدأت الفجوات في الصخر تتحول نحو اليمين. تلمس الفتى بأصابعه ووجد سطحاً أملس؛ وعندئذ أحس بأن هناك من يمسكه من معصمه ويشده إلى أعلى. اندفع بكل قواه وحطّ في مغارة في الجبل، حيث كان المحاربون مجتمعين. وشدّ الحبل لرفع ناديا التي سقطت على وجهها فوقه، مشوشة من الإنهاك والخوف. لم يتحرك بوروبا التعس، فقد كان ملتصقاً بظهره مثل بزاقة، ومتجمداً من الخوف. كانت تسقط قبالة فتحة المغارة ستارة كثيفة من الماء، تخترقها طيور سوداء مستعدة للدفاع عن أعشاشها من الغزاة الدخلاء. أحس أليكس بالإعجاب بشجاعة الهنود الأوائل التي لا تصدق، ممن غامروا بالتوغل، ربما في عصور ما قبل التاريخ، وراء الشلال، وعثروا على بعض الفجوات وحفروا أخرى، واكتشفوا المغارة وشقوا الطريق لأحفادهم.

لم تكن المغارة الطويلة والضيقة تسمح بالوقوف، فكان عليهم التحرك حبواً أو زحفاً. كان نور الشمس يتسرب أبيض حليبياً من خلال الشلال، ولكنه يكاد لا يضيء سوى المدخل، أما في العمق فكان يعم الظلام. وبينما أليكس يشد ناديا وبوروبا إلى صدره، رأى تاهاما يدنو منه وهو يومئ ويشير إلى الماء المتساقط. لم يستطع سماعه، ولكنه فهم أن أحدهم قد انزلق وبقي متخلفاً. وكان تاهاما يمسك الحبل ويعرضه عليه، فأدرك أخيراً أنه يريد استخدام الحبل لكي ينزل بحثاً عن الغائب. كان الهندي أثقل منه وزناً، ومهما بلغت رشاقته، فإنه لا يملك خبرة في الإنقاذ في أعالي الجبال. كما أن أليكس نفسه لم يكن خبيراً، ولكنه كان قد رافق أباه

مـرتين علـى الأقـل في مهمـات تنطـوي علـى مجازفـة، وهـو يعـرف كيفيـة استخدام الحبل، وقد قرأ كثيراً حول هذا الأمر. فقد كان مولعاً بالتسلق ولعاً لا يمكـن أن يضاهيه إلا حبه للناي. أومـأ إلى الهنود بأنـه سينزل هـو بنفسه إلى حيث يصل به الحبل المجدول من النباتات المتسلقة. فك الحبل عن ناديا وأشار إلى تاهاما والآخرين بأن ينزلوه إلى الهاوية.

النزول في تلك الهاوية، معلقاً بحبل هش، مع وجود بحـر مـاء صـاخب مـن حوله، بدا لأليكس أسوأ مـن الصعود. كانـت الرؤيـة ضعيفة، ولـم يكـن يعرف من هو الذي انزلق ولا أين سيبحث عنه. وقد كانت العملية مجازفة غير مجدية عملياً، لأن أي شخص وطأ موضعاً خاطئاً خلال الصعود، سيكون قد تمزق في الأسفل. ما الذي كان سيفعله أبوه في مثل هذه الظروف؟ جون كولد يفكر أولاً في الضحية، وبعد ذلك في نفسه. وجون كولد لا يستسلم للهزيمة دون أن يجرب كل الوسائل الممكنة. وبينما هم ينزلونه بذل جهداً لكي يرى ما هو أبعد من أنفه وكي يتنفس، ولكنه لم يكن يستطيع فتح عينيه تقريباً، وشعر بأن رئتيه ممتلئتان ماء. كان يتأرجح في الفضاء، متوسلاً ألا ينقطع حبل النباتات المتسلقة.

وفجأة اصطدمت إحدى قدميه بشيء طري، وبعد لحظات كان يتلمس بأصابعه هيئة رجل معلقة ظاهرياً في الفضاء. وبنوبة غم مفاجئة عرف أنه الزعيم موكاريتا. تعرف عليه من قبعة الريش الأصفر التي مازالت ثابتة على رأسه، بالرغم من أن العجوز عاثر الحظ كان معلقاً مثل ذبيحة بجذر ثخين بارز من الجبل، أوقف سقوطه بأعجوبة. لم يجد أليكس شيئاً يستند إليه، وخشي أن ينكسر ذلك الجذر إذا ما أمسك به، وأن يهوي موكاريتا إلى القاع. قدر أن لديه فرصة واحدة للامساك بالرجل، وأن عليه أن يفعل ذلك بدقة، وإلا فإن الرجل المبتل بالماء سينزلق من بين يديه مثل سمكة.

استجمع أليكس قواه وهو يتأرجح في العماء تقريباً، واحتضن تلك الهيئة المعلقة بساقيه وذراعيه. أحس المحاربون الذين في الكهف بتوتر الحبل و ثقله، فبدؤوا سحبه بحذر، وببطء شديد، لكي يحولوا دون أن يقطع الاحتكاك الحبل النباتي، ودون أن يؤدي الاهتزاز إلى ارتطام أليكس وموكاريتا بالصخور. لم يدر الفتى كم تأخرت العملية، ربما بضع دقائق فقط، ولكنها بدت له ساعات طويلة. وأخيراً أحس بأن عدة أيد تمسك به

وتسحبه إلى المغارة. وكان لا بد للهنود من الصراع معه لكي يفلت موكاريتا: لقد كان يحتضنه متشبثاً به بإصرار طير جارح.

أعاد الزعيم ترتيب وضع رياشه ورسم ابتسامة واهنة. كانت هناك خيوط من الدم تسيل من أنفه وفمه، ولكنه بدا سليماً تماماً في ما عدا ذلك. بدا الهنود متأثرين جداً بعملية الإنقاذ، وكانوا يتداولون الحبل من يد إلى يد بإعجاب، ولكنه لم يخطر لأي واحد منهم أن ينسب إنقاذ الزعيم إلى الفتى الغريب، وإنما كانوا يهنئون تاهاما على أنه صاحب الفكرة. كان أليكس المستنفد والمتألم يتشوق لأن يشكره أحدهم على ما فعله، ولكن حتى ناديا نفسها تجاهلته. فقد كانت تقبع منزوية مع بوروبا، ولم تنتبه إلى البطولة التي اجترحها صديقها، لأنها ما تزال تحاول استعادة السيطرة على نفسها بعد عملية صعود الجبل.

كانت بقية الرحلة أكثر سهولة، لأن ذلك النفق كان يصل إلى مسافة بعيدة إلى حد ما عن الماء، في مكان يمكن الصعود منه بقدر أقل من المجازفة. وقد استفاد الهنود من الحبل لرفع موكاريتا، لأن ساقيه خارتا، ولرفع ناديا كذلك التي خارت معنوياتها، ولكن الجميع وجدوا أنفسهم أخيراً على القمة.

- ألم أقل لك إن الطلسم ينفع أيضاً ضد أخطار المرتفعات؟ - قال أليكس مازحاً.

فوافقت ناديا بقناعة :

- هذا صحيح!

ظهرت أمامهم " عين العالم " وهي التسمية التي يطلقها شعب الضباب على موطنهم. إنه فردوس جبال وشلالات بديعة، وغابة مترامية مأهولة بالحيوانات والطيور والفراشات، ذات مناخ عليل، ولا وجود فيها لسحب البعوض التي تعذب الناس في الأراضي المنخفضة. كانت ترتفع في البعيد تشكيلات غريبة كأنها أعمدة أسطوانية شاهقة من الجرانيت الأسود والتراب الأحمر. وقد أشار إليها بتوقير موكاريتا القابع على الأرض عاجزاً عن الحركة، وقال بصوت خافت :

- إنها " تيبوي "، مساكن الآلهة.

تعرف أليكس على المكان فوراً: فهذه النجود المذهلة مطابقة تماماً للأبراج المهيبة التي رآها عندما واجه الجغوار الأسود في فناء معسكر ماورو كاريّاس. فقال :

- إنها أقدم جبال الأرض وأكثرها غموضاً.

فسألته ناديا :

- وكيف عرفت ذلك؟ هل رأيتها من قبل؟

- لقد رأيتها في حلم – أجابها أليكس.

لم يكن الزعيم الهندي يبدي مظاهر الألم، مثلما هو مفروض في محارب من مستواه، ولكن قواه كانت مستنفدة، فكان يطبق عينيه في بعض اللحظات ويبدو كما لو أنه في حالة غيبوبة. لم يدر أليكس إذا ما كانت قد كسرت عظام في جسده أم أن فيه رضوضاً داخلية عديدة، ولكن كان واضحاً أنه عاجز عن النهوض والوقوف على قدميه. وبالاستفادة من ناديا كمترجمة، توصل إلى جعل الهنود يرتجلون حمالة من عصوين طويلين، وبعض النباتات المتعرشة كعوارض، وفوقها قطعة من لحاء شجرة. وقد نفذ الهنود تعليمات أليكس دون أن يجادلوا وهم مذهولين حيال ضعف العجوز الذي قاد القبيلة لعدة عقود. حمل اثنان منهم المحفة من جانبيها، وواصلوا المسير على هذا النحو خلال نصف ساعة على ضفة النهر، يقودهم تاهاما، إلى أن أشار إليهم موكاريتا بأن يتوقفوا للاستراحة قليلاً.

تواصل صعود منحدر الشلال عدة ساعات، وكان الجميع في أثناء ذلك مستنفدي القوى وجائعين. توغل تاهاما ورجلين آخرين في الغابة وعادوا بعد قليل ومعهم بضعة طيور ومدرّع وقرد، اصطادوها كلها بسهامهم. كان القرد ما يزال حياً، ولكنه مشلول بتأثير سم الكوراري الذي يغمسون فيه سهامهم، وقد أجهزوا عليه بضربة حجر على رأسه، أمام رعب بوروبا الذي هرع للاختباء تحت قميص ناديا. ثم أضرموا ناراً بفرك حجرين – وهو ما كان أليكس قد حاول عمله دون جدوى عندما كان في فريق الكشافة – وشووا الطرائد مغروسة في عيدان. لم يكن بإمكان الصياد أن يأكل من لحم طريدته، لأن ذلك يعتبر قلة حياء وفأل شؤم، وإنما يتوجب عليه أن ينتظر إلى أن يقدم له صياد آخر من صيده. وكان تاهاما هو الذي اصطاد كل شيء باستثناء المدرّع، ولهذا تأخر تناول العشاء وقتاً طويلاً، بينما هم يقومون بمراسم تبادل الأطعمة الصارمة. وعندما حصل أليكس أخيراً على

حصته، التهمها دون النظر إلى فتات الريش والشعر الذي مازال ملتصقاً باللحم، وبدت له لذيذة جداً.

كان ما يزال هناك نحو ساعتين لموعد غياب الشمس، ففي النجد المرتفع، حيث النباتات أقل كثافة، يستمر ضوء النهار لوقت أطول مما هو عليه في الوادي. وبعد مشاورات طويلة بين تاهاما وموكاريتا، انطلقت الجماعة في المسير من جديد.

ظهرت تابيراوا - تيري، قرية شعب الضباب، فجأة في الغابة، كما لو أنها تملك خاصية سكانها في أن تكون مرئية أو خفية وفق إرادتها.كانت محمية بمجموعة من أشجار الكستناء العملاقة، أطول أشجار الغابة، محيط جذوع بعضها يزيد على العشرة أمتار. وأغصانها المتشابكة تغطي القرية كأنها مظلة فسيحة. وكانت قرية تابيراوا - تيري مختلفة عن نمط قرى التشابونو، مما أكد شكوك أليكس بأن شعب الضباب ليس مثل الهنود الآخرين واتصالاته ضئيلة بكل تأكيد مع قبائل الأمازون الأخرى. فالضيعة لا تتألف من كوخ واحد دائري وكبير، له فناء في الوسط، يعيش فيه كل أفراد القبيلة، وإنما من حجرات صغيرة، مبنية من الطين، والحجارة، والعيدان، والقش، ومسقوفة بالأغصان وبشجيرات صغيرة، بحيث تختلط تماماً بالطبيعة. ويمكن للمرء أن يكون على بعد أمتار قليلة دون أن يخطر له وجود بناء بشري. أدرك أليكس أنه إذا كان من الصعب تمييز القرية بينما المرء في منتصفها، فسوف يكون من المستحيل رؤيتها من الجو، مثلما يظهر سقف التشابونو الدائري وفناءه الخالي من النباتات. ولا بد أن هذا هو سبب تمكن شعب الضباب من البقاء معزولاً تماماً. وهكذا تبخر أمله في أن يتم إنقاذه بحوامات الجيش أو بطائرة سيسر سانتوس. . لقد كانت الضيعة شديدة الخيالية مثلما هم هنودها. وكما هي الأكواخ غير مرئية، فإن كل شيء هناك يبدو شبحياً وشفافاً. فالأشياء، كما الأشخاص تفقد خطوطها الدقيقة التي تحددها هيئتها العامة، وتتواجد في مستوى الوهم. وصل الأطفال والنساء، منبثقين من الهواء كأنهم الأشباح، لاستقبال المحاربين. وقد كانوا قصار القامة، بشرتهم أكثر بياضاً من بشرة هنود الوادي، وعيونهم بلون العنبر؛ يتحركون بخفة استثنائية، كأنهم يطفون في الهواء، وكما لو أنهم بلا قوام مادي. أما لباسهم الوحيد فهو رسوم تغطي أجسادهم إضافة إلى بعض الريش وأزهار مثبتة على

أذرعهم أو مغروسة في آذانهم. أصاب الأطفال الصغار الذعر لمرأى الغريبين، فانفجروا بالبكاء؛ أما النساء فبقين بعيدات بعض الشيء وخائفات على الرغم من وجود رجالهن المسلحين.

- اخلع ملابسك يا جغوار – طلبت منه ناديا ذلك وهي تتخلص من بنطالها القصير، وقميصها، وحتى من ملابسها الداخلية.

حذا أليكس حذوها دون أن يفكر في ما يفعله. كانت يمكن لفكرة التعري أمام الملأ أن تملأه بالهلع قبل أسبوعين، ولكنها كانت طبيعية في هذا المكان. فالبقاء بالملابس يبدو قلة احتشام حين يكون الجميع عراة. ولم يبد له غريباً كذلك رؤية جسد صديقته، مع أنه كان سيحمر خجلاً لو أن إحدى شقيقتيه ظهرت أمامه دون ملابس. وسرعان ما تلاشى خوف النساء والأطفال وراحوا يقتربون شيئاً فشيئاً. لم يكونوا قد رأوا من قبل أناساً لهم هذا المظهر الفريد، ولاسيما الفتى الأمريكي، شديد البياض في بعض أجزاء جسده. أحس أليكس بأنهم يتفحصون بفضول خاص اختلاف لون بشرته في الأماكن التي تغطيها عادة ملابس الاستحمام عنها في بقية جسده البرونزي من التعرض للشمس. فكانوا يفركونه بأصابعهم ليروا إذا ما كان صباغاً، ثم يضحكون مقهقهين.

وضع المحاربون حمالة موكاريتا على الأرض، فأحاط بها سكان القرية على الفور. كانوا يتواصلون بأصوات هامسة ونبرة كئيبة، مصدرين أصواتاً كأنها أصوات الغابة، والمطر، والماء على حجارة الأنهار، مثلما يتكلم واليماي. ذهل أليكس عندما لاحظ فجأة أنه قادر على فهم ما يقال جيداً، طالما هو لا يبذل جهداً في ذلك. إذ عليه أن " يسمع ما يقال بقلبه ". وحسب ما قالته ناديا التي تجد سهولة مذهلة في فهم اللغات، فإن الكلمات ليست مهمة جداً عندما تفهم النوايا. . اقتربت إيومي، زوجة موكاريتا، وهي أشد هرماً منه. فأفسح لها الآخرون الطريق باحترام، وجثت هي إلى جوار زوجها، دون دمعة واحدة، متمتمة بكلمات مواساة في أذنه، بينما النساء الأخريات يشكلن جوقة من حولها، جديات وصامتات، يساندن الزوجين بقربهن منهما، ولكن دون أن يتدخلن.

وسرعان ما خيم الليل وصار الهواء بارداً. لقد كان هناك في قرى التشوبونو على الدوام عقد من المواقد مشتعلة تحت سقف البيت المشترك، من أجل الطهو وتوفير الدفء، أما في قرية تابيراوا - تيري فكانت النار

متكتمة، مثلما هو كل شيء. فالمواقد الصغيرة لا تشعل إلا في الليل، وداخل الأكواخ، فوق مذبح حجري، حتى لا تلفت نظر الأعداء المحتملين أو الأرواح الشريرة. أما الدخان فينطلق من شقوق السقف، ويتبدد في الهواء. خيل لأليكس في أول الأمر أن البيوت موزعة كيفما اتفق بين الأشجار، ولكنه سرعان ما أدرك أنها منتظمة في شكل دائري غامض، مثل التشوبونو، وأنها تتصل فيما بينها بأنفاق أو سقوف من الأغصان، مما يجعل القرية وحدة متكاملة. ويمكن لسكانها أن ينتقلوا عبر هذه الشبكة من الدروب الخفية، المحمية في حالة التعرض للهجوم وغير المكشوفة للمطر والشمس.

الهنود يجتمعون في أسر، ولكن الفتيان اليافعين والرجال العازبين يعيشون منفصلين في حجرة مشتركة، توجد فيها أراجيح نوم معلقة على دعائم وحصائر على الأرض. وهناك استضافوا أليكس، أما ناديا فأخذت إلى بيت موكاريتا. لقد تزوج الزعيم منذ سن البلوغ من إيومي، زوجته مدى الحياة، ولكن كانت لديه أيضاً زوجتان شابتان وعدد كبير من الأبناء والأحفاد. فهو لا يعرف عدد ذريته، لأنه لم يكن مهماً كذلك من هم آباؤهم: فالأطفال يربون جميعهم معاً، يحميهم ويرعاهم جميع أبناء القرية.

واكتشفت ناديا أنه من العادي لدى شعب الضباب أن تكون لكل رجل عدة زوجات ولكل امرأة عدة أزواج؛ وليس هناك من يبقى وحيداً. فإذا ما مات أحد الرجال، يجري على الفور تبني أبناءه وزوجاته من قبل من هو قادر على حمايتهم وإطعامهم. وهذه هي حال تاهاما، الذي لا بد له من أن يكون صياداً جيداً، لأنه يتحمل مسؤولية عدة نساء وعشرات الأبناء. ويمكن للمرأة التي يكون زوجها صياداً سيئاً أن تختار أزواجاً آخرين لكي يساعدوها في إطعام أبنائها. ومن عادة الآباء أن يتفقوا على تزويج بناتهم منذ مولدهن، ولكن الفتاة لا تكون مضطرة للزواج ممن اختير لها أو البقاء مع رجل رغم إرادتها. أما التعسف ضد النساء والأطفال فهو تابو محرم، ومن يخرقه يفقد أسرته، ويحكم عليه بالنوم وحيداً، لأنه لا يقبل كذلك في كوخ العازبين. والعقاب الوحيد المتعارف عليه بين أناس الضباب هو العزل: وهم لا يخشون شيئاً أكثر من استبعاد الجماعة لهم. وما عدا ذلك لم يكن هناك وجود لفكرة العقاب والثواب بينهم؛ والأطفال يتعلمون بمحاكاتهم للكبار، لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك يكونون معرضين للهلاك. عليهم أن

يتعلموا الصيد البري والمائي، والزراعة، والحصاد، واحترام الطبيعة والآخرين، والحفاظ على مكانتهم في القرية. وكل واحد منهم يتعلم وفق إيقاعه الخاص وحسب قدرته.

وقد لا يولد ما يكفي من الأطفال في أحد الأجيال، وعندئذ يسافر الرجال في رحلات طويلة للبحث عن زوجات. ويمكن لفتيات القرية بدورهن أن يجدن أزواجاً لهن في المناسبات النادرة التي يزرن فيها مناطق أخرى. وهم يختلطون أيضاً بتبنيهم أسراً من قبائل أخرى، من تلك التي تبقى مهجورة بعد إحدى المعارك، لأن الجماعات الصغيرة جداً لا يمكنها البقاء على قيد الحياة في الأدغال. وهم يشنون الحرب بين حين وآخر على تشابونو آخر، فهكذا يتصلب عود المحاربين ويتبادلون الزوجات. ويكون الوضع كئيباً جداً عندما يودع بعض الشبان الجماعة ليذهبوا للعيش في قبيلة أخرى، لأنهم نادراً ما يرجعون لزيارة أسرهم. وكان أناس الضباب يحافظون بغيرة على سر ضيعتهم، ليحموا أنفسهم من الهجمات ومن عادات الغرباء. لقد عاشوا على هذا النحو طوال آلاف السنين وهم لا يرغبون في التغيير.

الأشياء التي في داخل الأكواخ قليلة جداً :أراجيح نوم، أواني من القرع المجوف، فؤوس حجرية، سكاكين مصنوعة من أنياب حيوانات أو مخالب، وعدة حيوانات داجنة هي ملك الجماعة، تدخل وتخرج كما تشاء. وفي حجرة العازبين تحفظ أقواس، وسهام، وسرياتانات، ونشابات. لم يكن هناك شيء زائد عن الحاجة، ولا وجود لأعمال فنية، وإنما كل ما هو أساسي من أجل الحياة الصارمة، وما سوى ذلك توفره الطبيعة. لم ير ألكسندر كولد أي شيء معدني يشير إلى اتصال بالعالم الخارجي، وتذكر كيف أن أناس الضباب لم يلمسوا الهدايا التي علقها سيسر سانتوس لاجتذابهم. وهم يختلفون في هذا الأمر أيضاً عن قبائل المنطقة الأخرى التي كانت تستسلم واحدة بعد الأخرى للطمع بالحديد و بأشياء الغرباء الأخرى.

عندما انخفضت الحرارة، ارتدى أليكس ثيابه، ولكنه بقي يرتجف. ورأى في الليل أن زملاءه في الحجرة ينامون مثنى مثنى في كل أرجوحة نوم، أو متراصين جنباً إلى جنب على الأرض لكي يبثوا الدفء في بعضهم بعضاً، ولكنه آت من ثقافة لا تتسامح في تلامس الذكور جسدياً؛ حيث لا يلمس الرجلُ الرجلَ إلا في المشاجرات العنيفة أو الرياضات الخشنة. استلقى وحيداً

في أحد الأركان وهو يشعر بأنه تافه، أقل من برغوث. وهذه الجماعة البشرية الصغيرة في قرية ضئيلة جداً في الأدغال غير مرئية في اتساعات الفضاء الكوني. زمنها في الحياة هو أقل من جزء من الثانية في اللانهاية. أو ربما لم يكن لها وجود على الإطلاق، وربما أن الكائنات البشرية، والكواكب، وبقية الخليقة ما هي إلا أحلام، أوهام. ابتسم بمذلة حين تذكر أنه كان يعتقد إلى ما قبل أيام أنه مركز الكون. أحس بالبرد والجوع، وتوقع أن تكون ليلة طويلة جداً، ولكنه في أقل من خمس دقائق كان قد غفا كما لو أنهم قد خدروه.

عندما استيقظ وجد نفسه متكوراً على حصيرة من القش، محصوراً بين محاربين قويين، يشخران وينفخان في أذنيه مثلما كان يفعل كلبه بونتشو. تخلص بصعوبة من أذرع الهنديين ونهض بصمت، ولكنه لم يمض بعيداً، لأنه وجد على امتداد عتبة الباب أفعى ثخينة طولها أكثر من مترين. بقي محتجزاً، دون أن يتجرأ على أن يخطو خطوة واحدة، بالرغم من أن الأفعى لم تبد ما يشير إلى أن فيها رمقاً من الحياة: فهي ميتة أو نائمة. وسرعان ما نفض الهنود النعاس عنهم وبدؤوا نشاطاتهم اليومية بأكبر قدر من الهدوء، وكانوا يمرون فوق الحية دون أن يعيروها اهتماماً. لقد كانت أفعى بوا عاصرة ومدجنة، تتمثل مهمتها في القضاء على الجرذان والخفافيش والعقارب، وإخافة الحيات السامة. وقد كانت هناك بين أناس الضباب حيوانات كثيرة مدجنة: فهناك قرود تربى مع الأطفال، وكلاب ترضعها النساء مثلما يرضعن أبناءهن، وطيور توكان، وببغاوات، وعظاءات، بل ونمر جغوار أصفر هرم، مسالم، يعرج من إحدى قوائمه. أما أفاعي البوا، فهي حسنة التغذية ونؤوم عموماً، تقدم نفسها لكي يلعب الأطفال بها. وفكر أليكس في كم ستكون أخته نيكول سعيدة في مثل مملكة الحيوانات المدجنة تلك.

مضى شطر كبير من النهار في الإعداد للحفلة من أجل الاحتفاء بعودة المحاربين وبزيارة " الروحين البيضاوين "، وهي التسمية التي أطلقوها على ناديا وأليكس. والجميع شاركوا في الاستعدادات باستثناء رجل واحد، بقي جالساً في ركن قصي من الضيعة، منفصلاً عن الآخرين. فقد كان ذلك الهندي ينجز طقوس التطهر – يونوكايمو – الإجبارية عندما يقتل أحدهم كائناً بشرياً آخر. وقد علم أليكس بأن اليونوكايمو يتألف من

صيام كامل، وصمت وعدم حركة طوال عدة أيام، وبهذه الطريقة تبدأ روح الميت، التي خرجت من أنف الجثة لتلتصق بعظم القص في صدر القاتل، بالانفصال عنه شيئاً فشيئاً. أما إذا تناول القاتل أي طعام، فإن شبح ضحيته يسمن ويتضخم إلى أن يسحقه في النهاية. وكان هناك أمام المحارب الجامد الذي يمارس اليونوكايمو، أنبوب سرياتانا من البامبو مزين برموز غريبة، مطابقة لرسوم تلك النشابة المسمومة التي اخترقت قلب أحد جنود الحملة الاستكشافية خلال الرحلة في النهر.

انطلق بعض الرجال للصيد في الغابة والنهر، يقودهم تاهاما، بينما مضت عدة نساء لإحضار الذرة والموز من الجنائن الصغيرة المموهة في الغابة، وعكفت أخريات على سحق المنديوكا. أما أصغر الأطفال فكانوا يجمعون النمل وحشرات أخرى لطهوها؛ وذهب الكبار منهم لجمع الجوز والثمار، وصعد آخرون برشاقة لا تصدق إلى إحدى الأشجار لجني عسل من خلية نحل، وهو مصدر السكر الوحيد في الأدغال. فالصبيان يبدؤون التسلق منذ أن يتعلموا الوقوف على أقدامهم، وهم قادرون على الركض على أعلى أغصان شجرة دون أن يفقدوا توازنهم. ولكن ناديا كانت تشعر بالدوار لمجرد رؤيتهم معلقين على ذلك العلو، مثل القرود.

سلموا أليكس سلة، وعلموه كيف يعلقها مربوطة إلى رأسه وأشاروا إليه بأن يتبع الشبان الذين هم في مثل سنه. ساروا لوقت لا بأس به متوغلين في الغابة، وعبروا النهر متمسكين بعصي ونباتات متسلقة، ووصلوا إلى حيث تنتصب نخلات سامقة، جذوعها متقنفذة بأشواك حادة. وتحت قممها، على ارتفاع نحو خمسة عشر متراً، تلمع قطوف ثمار صفراء تشبه الدراقن. ربط الشبان بعض العيدان ليصنعوا منها صليبين متينين، ثبتوا أحدهما على الجذع، ووضعوا الآخر إلى أعلى. تسلق أحدهم الصليب الأول، ودفع الثاني إلى أعلى، وصعد عليه، ثم مدّ يده ليرفع الصليب السفلي، وبهذه الطريقة راح يصعد برشاقة لاعب جمباز إلى الذروة. كان أليكس قد سمع كلاماً عن هذه المأثرة، ولكنه لم يتصور، قبل رؤيتها، كيف يمكن للمرء الصعود دون أن تجرحه الأشواك. ألقى الهندي الثمار من أعلى، فكان الآخرون يلتقطونها بالسلال. وفيما بعد هرستها نساء القرية، مخلوطة مع الموز، ليصنعوا منها حساء يحبه أناس الضباب كثيراً. وبالرغم من أن الجميع كانوا منهمكين في الإعدادات، إلا أنه كان يسود المكان جو

متساهل واحتفالي. فلم يكن هناك من يتعجل، وكان لديهم فائض من الوقت ليستحموا بمرح طوال ساعات في النهر. وبينما كان ألكسندر كولد يتقاذف رذاذ الماء مع فتيان آخرين، فكر في أن العالم لم يبد له بمثل هذه الروعة من قبل قط، وأنه لم يشعر بمثل هذه الحرية أبداً.

بعد ذلك الحمام الطويل، أعدت فتيات قرية تابيراوا - تيري أصبغة نباتية مختلفة الألوان وزيّن أفراد القبيلة كلهم، بمن في ذلك الأطفال الرضع برسوم متشابكة. وفي أثناء ذلك كان الرجال الأكبر سناً يطحنون و يخلطون أوراق ولحاء أشجار مختلفة ليحصلوا على " يوبو "، مسحوق الحفلات السحري.

-12-

طقوس تلقين الرجولة

بدأت الحفلة بعد الظهر واستمرت طوال الليل. فالهنود الملونون بالطلاء من رؤوسهم حتى أقدامهم، غنوا، ورقصوا، وأكلوا حتى التخمة. وكان من عدم اللياقة أن يرفض الضيف ما يقدم إليه من طعام أو شراب، وهكذا فقد حذا أليكس وناديا حذو الآخرين، فملأا بطنيهما وصارا يتجشأان، وهذا يعتبر لدى الهنود من عادات السلوك الحميد. كان الأطفال يتراكضون وهم يحملون فراشات كبيرة وجداجد فوسفورية كل واحد مربوط بشعرة طويلة. والنساء يزين شعورهن بحباحب، وأزهار أوركيدا، ويضعن ريشاً في آذانهن وعيداناً رفيعة في شفاههن، وقد بدأن الحفلة بالانقسام في جماعتين تتواجهان بالغناء في منافسة ودية ثم دعون الرجال بعد ذلك للرقص مستلهمات حركات الحيوانات عند توالدها في فصل الأمطار. وأخيراً بقي الرجال وحدهم، يدورون في أول الأمر في حلقة دائرية محاكين القرود، والجغوارات، والتماسيح، ثم ما لبثوا أن قاموا باستعراض للقوة والمهارة وهم يشهرون أسلحتهم ويتقافزون قفزات تزيينية. أصاب الدوار رأسي ناديا وأليكس، فقد دوخهما ذلك المشهد، وإيقاع الطبول، والأغاني، والصرخات، وضجة الغابة من حولهما.

لقد وضع موكاريتا في وسط القرية، حيث كان يتلقى تحيات الجميع الطقوسية. ومع أنه كان يتناول رشفات صغيرة من الماساتو، إلا أنه لم يستطع تذوق الطعام. ثم مثل أمامه عجوز آخر، له هيئة المداوي، تغطيه قشرة من الطين الجاف وراتينج صمغي ألصقت به ريش بيضاء، مما أضفى عليه مظهراً غريباً كأنه فرخ طائر خرج حديثاً إلى الحياة. بقي المداوي يقفز ويطلق الصرخات لوقت طويل كي يخرج الشياطين التي دخلت جسد الزعيم. ثم مص أجزاء من بطنه وصدره عدة مرات، كما لو أنه يمتص الخبائث ويبصقها بعيداً. ثم فرك جسم المحتضر بعجينة باراناري، وهي

عجينة نباتية تعالج بها الجروح في الأمازون، ولكن جراح موكاريتا لم تكن مرئية مع ذلك، ولم يأت ذلك العلاج بأي مفعول. وتوقع أليكس أن يكون السقوط قد مزق أحد أعضاء الزعيم الداخلية الحيوية، ربما يكون الكبد، إذ أن قوى العجوز كانت تخور أكثر فأكثر مع مرور الساعات، بينما كان خيط من الدم يسيل من بين شفتيه.

عند الفجر استدعى موكاريتا كلاً من ناديا وأليكس، وأوضح لهما بما تبقى لديه من قوة ضعيفة بأنهما الغريبان الوحيدان اللذان وطئا تابيراوا - تيري منذ تأسيس الضيعة. وقال:

- أرواح شعب الضباب وأرواح أسلافنا تسكن هنا. ويمكن للناهاب (الغرباء) الذين يكذبون ولايعرفون العدالة، أن يدنسوا أرواحنا.

وأضاف أنهما دعيا بناء على تعليمات التشامان الأعظم، الذي نبههم إلى أن ناديا مرصودة لمساعدتهم. إلا أنه لا يعرف ما هو الدور الذي سيلعبه أليكس في الأحداث الآتية، ولكنهم يرحبون به أيضاً في تابيراوا -تيري لأنه صديق الصغيرة. وفهم ألكسندر وناديا أنه يعني واليماي ونبوءته عن الراهاكاناريوا. فسأله أليكس:

- وما هي الهيئة التي سيتخذها راهاكاناريوا؟

فأوضح موكاريتا :

- هيئات كثيرة. إنه طائر مصاص دماء. وهو ليس بشراً، ويتصرف كمعتوه، لا يمكن معرفة ما سيفعله، فهو متعطش إلى الدماء على الدوام، يغضب ويعاقب.

و سأله أليكس:

- هل رأيتم طيوراً كبيرة؟

فرد موكاريتا:

- رأينا الطيور التي تحدث ضجيجاً ورياحاً، ولكنها لم ترنا. نحن نعرف أنها ليست راهاكاناريوا، وإن كانت تشبهه كثيراً، هذه هي طيور الغرباء. وهي تطير في النهار فقط، ولا تطير مطلقاً في الليل، ولهذا نحن حذرين في إشعال النار، كيلا يرى الطائر الدخان. ولهذا نعيش مختبئين. ولهذا نحن الشعب غير المرئي.

- الغرباء سيأتون عاجلاً أو آجلاً، لا مفر من ذلك. فما الذي سيفعله شعب الضباب عندئذ؟

فأجابه موكاريتا بضعف:

- لقد شارف وقتي في عين العالم على الانتهاء. والزعيم الذي سيأتي بعدي عليه أن يقرر.

مات موكاريتا عند الفجر. اهتزت أرجاء تابيراوا -تيري بجوقة حسرات لساعات: لم يكن هناك من يتذكر الزمن السابق لهذا الزعيم الذي قاد القبيلة على امتداد عقود طويلة. وضع تاج الريش الأصفر على عمود خشبي إلى أن يتم اختيار خليفته، وفي أثناء ذلك تخلص أبناء شعب الضباب من زيناتهم، وغطوا أجسادهم بالطين والفحم والرماد، علامة الحداد. كان يخيم قلق عظيم، لأنهم يعتقدون بأن الموت نادراً ما يأتي لأسباب طبيعية، ويكون السبب في الغالب هو عدو استخدم السحر لإلحاق الضرر. وطريقة تهدئة روح الميت هي في العثور على العدو وتصفيته، وإلا فإن الشبح سيبقى في الدنيا يضايق الأحياء. فإذا كان العدو من قبيلة أخرى، يمكن اقتياده إلى معركة، أما إذا كان من القرية نفسها فيمكن "قتله" بصورة رمزية في طقوس خاصة. المحاربون الذين أمضوا الليل يشربون ماساتو، كانوا هائجين ومتحمسين لفكرة هزم العدو الذي تسبب في موت موكاريتا. فاكتشافه وهزيمته هي مسألة شرف. لم يكن هناك من يتطلع إلى الحلول محله، لأنه لا وجود للمراتب بينهم، وليس هناك من هو أكثر أهمية من الآخرين، والزعيم هو الذي يتحمل قدراً أكبر من المسؤوليات وحسب. ولم يكن موكاريتا محترماً بسبب وضعه القيادي، وإنما لأنه شيخ مسن، وهذا يعني امتلاك تجربة ومعارف أكبر. كان يمكن للرجال المخمورين والهائجين أن يعمدوا إلى التصرف بعنف بين لحظة وأخرى، فهمس أليكس لناديا :

- أظن أنه حان الوقت لاستدعاء والِيماي.

انسحبت الفتاة إلى أحد أطراف القرية ونزعت التميمة من عنقها وبدأت تنفخ فيها. نعيب البومة الحاد الذي صدر عن قطعة العظم المنحوتة كانت له رنة غريبة في هذا المكان. لم يكن هناك بالطبع من يتصور أن والِيماي سيظهر بمجرد استخدام الطلسم، كما في فنون السحر، ولكنه لم يظهر كذلك على الرغم من النفخ طويلاً.

أخذ التوتر يتفاقم في القرية في الساعات التالية. فقد تهجم أحد المحاربين

على تاهاما، ورد عليه هذا الأخير بضربة هراوة على رأسه طرحته أرضاً وهو ينزف، وكان لا بد من تدخل عدة رجال للفصل بين الهائجين وتهدئتهما. وأخيراً قرروا حل النزاع عن طريق اليوبو، المسحوق الأخضر الذي لا يمكن أن يستخدمه سوى الذكور، مثلما هو شأن الماساتو. انقسموا مثنى مثنى، وكان كل اثنين منهم مزودين بقصبة طويلة جوفاء ومنحوتة الطرف، ومن خلالها ينفخ كل واحد منهما المسحوق في أنف الآخر مباشرة. فيدخل اليوبو حتى الدماغ بقوة ضربة مدقة، فيسقط الرجل إلى الوراء وهو يصرخ من الألم، ثم يبدأ على الفور بالتقيؤ، والقفز والزمجرة ورؤية رؤى، بينما يسيل من فتحتي أنفه ومن فمه مخاط أخضر. لم يكن بالمشهد اللطيف، ولكنهم يستخدمون ذلك المسحوق لينقلهم إلى عالم الأرواح. وقد تحول رجلان منهم إلى شيطانين، بينما تقمص آخرون أرواح حيوانات متنوعة، وتنبأ غيرهم بالمستقبل، ولكن لم يظهر شبح موكاريتا لأي واحد منهم ليحدد من هو خليفته.

راودت أليكس وناديا الشكوك في أن هذه الضجة الشيطانية سوف تنتهي بالعنف، وفضلا البقاء بعيدين وصامتين، على ألا يتذكرهما أحد. ولكن الحظ لم يحالفهما، لأن أحد المحاربين شاهد في رؤياه فجأة بأن عدو موكاريتا الذي تسبب بموته هو الفتى الغريب. وفي الحال اجتمع الآخرون لمعاقبة قاتل زعيمهم المزعوم، فتناولوا الهراوى وخرجوا في أثر أليكس. لم تكن تلك اللحظة مناسبة للتفكير في الناي من أجل تهدئة الخواطر، فانطلق الصبي يعدو مثل غزال، وكانت ميزته الوحيدة هي اليأس الذي منحه أجنحة، وواقع أن مطارديه لم يكونوا في أفضل ظروفهم. فقد راح الهنود المسممون بالمسحوق يتعثرون، ويتدافعون، ويوجه بعضهم، وسط تلك الفوضى، ضربات بالهراوى إلى البعض، بينما النساء والأطفال يتراكضون من حولهم ليبثوا فيهم الحماس. ظن أليكس أن ساعة موته قد أزفت، ومرت صورة أمه كشهاب خاطف في ذهنه، بينما هو يركض ويركض في الغابة.

ما كان بمقدور الفتى الأمريكي أن ينافس أولئك المحاربين الوطنيين في السرعة أو المهارة، ولكنهم كانوا مخدرين وراحوا يتساقطون على الطريق واحداً إثر الآخر. فتمكن أخيراً من الاختباء تحت شجرة، لاهثاً، ومستنفداً. وعندما ظن أنه صار بمنجى، أحس بأنه محاصر، وقبل أن

يتمكن من الركض مجدداً، انقضت عليه نساء القبيلة. كن يضحكن، كما لو أن الإمساك به ما هو إلا مزحة ثقيلة، ولكنهن ثبتنه بقوة، وعلى الرغم من تخبط يديه والرفس برجليه تمكنت النسوة من سحبه وإعادته إلى تابيراوا -تيري، حيث قيدنه إلى شجرة. أكثر من فتاة دغدغته، ودست أخريات قطع فاكهة في فمه، ولكن على الرغم من لفتات الرعاية هذه، فقد أحكمن عقد قيده جيداً. وفي أثناء ذلك كان مفعول اليوبو قد بدأ يتراجع، وراح الرجال يغادرون رؤاهم شيئاً فشيئاً ليعودوا إلى الواقع، منهوكين. ولكن ساعات عدة ستنقضي قبل أن يستعيدوا صحوهم وقواهم.

أما أليكس الموجوع من جرجرته على الأرض، والمهان من سخرية النساء منه، فقد تذكر قصص البروفيسور ليبلانك المخيفة. إذا ما كانت نظريته صحيحة، فسوف يأكلونه. وما الذي سيحدث لناديا؟ كان يشعر بأنه مسؤول عنها. وفكر بأنه في مثل هذه اللحظة، في الأفلام والروايات، تصل طائرات الهليوكبتر لإنقاذه، فنظر إلى السماء دون أمل، لأن طائرات الهليوكبتر في الحياة الواقعية لا تصل في الوقت المناسب أبداً. وفي أثناء ذلك اقتربت ناديا من الشجرة دون أن يوقفها أحد، لأنه لا يمكن لأي واحد من المحاربين أن يتصور بأنه يمكن لفتاة أن تتجرأ على تحديهم. كان أليكس وناديا قد أعادا ارتداء ملابسهما عندما بدأ البرد في الليلة الأولى، ولم يشعرا بالحاجة إلى خلعها ثانية، لأن أناس الضباب قد اعتادوا على رؤيتهما بها. كان أليكس يضع الحزام الذي يعلق به الناي، وبوصلته وسكينه التي استخدمتها ناديا لإطلاق سراحه. وفي الأفلام أيضاً تكون حركة واحدة كافية لقطع الحبال، أما هي فكان عليها أن تحز بالسكين، لوقت لا بأس به، أحزمة الجلد التي تثبته إلى الجذع، بينما هو يتعرق جزعاً. دنا بعض أطفال القبيلة ونسائها ليروا ما الذي تفعله، مذهولين من جرأتها، ولكنها تصرفت بثقة كبيرة بالنفس، ولوحت بالسكين أمام وجوه الفضوليين، فلم يتجرأ أحد. وبعد عشر دقائق كان أليكس قد تحرر. بدأ الصديقان بالتقهقر بمداراة، دون أن يتجرأا على الركض كيلا يجتذبا انتباه المحاربين. وكانت تلك هي اللحظة التي يمكن لفنون الاختفاء أن تفيدهما كثيراً

لم يستطع الصبيان الغريبان الذهاب بعيداً لأن واليماي دخل في هذه

الأثناء إلى القرية. فقد ظهر الساحر العجوز بمجموعة أجريته المعلقة بعصاه، ورمحه القصير، وأنبوب الكوارتز الذي يرن مثل جلجل. لأن فيه أحجاراً صغيرة ملتقطة من المكان الذي سقطت فيه صاعقة، وهو رمز المداوين والتشامانات ويمثل قدرة الأب الشمس. وكانت ترافق التشامان فتاة شابة، شعرها أشبه بطرحة سوداء تتدلى حتى خصرها، وحاجباها منتوفان، وتضع حول جيدها عقوداً من الخرز، وتخترق خديها وأنفها عيدان مشذبة. لقد كانت باهرة الجمال وتبدو عليها السعادة، بالرغم من أنها لم تنطق كلمة واحدة، ولكنها كانت تبتسم طوال الوقت. وأدرك أليكس أنها زوجة التشامان الملائكية، وأسعده أنه صار قادراً الآن على رؤيتها، فهذا يعني أن شيئاً قد تفتح في إدراكه أو في بداهته. وأنه لابد، مثلما علمته ناديا، من " الرؤية بالقلب ". وكانت هي نفسها قد أخبرته بأنه منذ سنوات بعيدة جداً، عندما كان واليماي ما يزال شاباً، وجد نفسه مضطراً إلى قتل الفتاة بسكينه المسموم، لكي يحررها من العبودية. لم تكن جريمة، وإنما صنيعاً طيباً قدمه إليها، ولكن روحها التصقت على كل حال بصدره. فهرب واليماي إلى أعمق أعماق الغابة، حاملاً معه روح الشابة إلى حيث لا يمكن لأحد أن يجدها أبداً. وهناك أنجز طقوس التطهر الإجبارية، الصيام وعدم الحركة. ومع ذلك، فقد تحابا هو والفتاة خلال الرحلة، وعندما أنهى طقوس اليونوكايمو، لم تشأ روحها الفراق وفضلت البقاء في هذا العالم إلى جانب الرجل الذي أحبته. كل هذا حدث قبل قرن تقريباً، وهي منذ ذلك الحين ترافق واليماي على الدوام، منتظرة اللحظة التي يستطيع فيها هو الطيران معها متحولاً إلى روح.

هدأ حضور واليماي التوتر في قرية تابيراوا - تيري، والمحاربون أنفسهم الذين أرادوا قبل قليل قتل أليكس، صاروا يعاملته الآن بمودة ولطف. فالقبيلة تحترم التشامان الأعظم وتخشاه، لأنه يمتلك قدرات خارقة تمكنه من تفسير الرموز. صحيح أن الجميع يحلمون ويرون الرؤى، ولكن أولئك المختارين وحدهم، من أمثال واليماي، هم الذين يسافرون إلى عالم الأرواح السامية، حيث يتعلمون معاني الرؤى ويتمكنون من قيادة الآخرين وتبديل مسار الكوارث الطبيعية.

أعلن العجوز بأن الصبي يمتلك روح الجغوار الأسود، وهو حيوان مقدس، وقد جاء من بعيد جداً ليساعد شعب الضباب. وأوضح أن هذه الأزمنة هي

أزمنة شديدة الغرابة، أزمنة تتلاشى فيها الحدود بين عالم هنا وعالم هناك، أزمنة يمكن لراهاكاناريوا أن يلتهمهم جميعاً. ذكرهم بوجود الناهاب "الغرباء" الذين لا يعرفهم معظم الهنود إلا من خلال ما يرويه إخوتهم من القبائل الأخرى في الأراضي الواطئة. لقد راقب محاربوا تابيراوا - تيري طوال عدة أيام بعثة الانترناشيونال جيوغرافيك، ولكن أياً منهم لم يفهم أعمال أو عادات هؤلاء الأجانب الغرباء. وروى لهم واليماي ما يعرفه، وهو الذي رأى الكثير خلال قرن من حياته، فقال:

- الناهاب هم أشبه بالموتى، فقد هربت الروح من صدورهم، والناهاب لا يعرفون شيئاً، لا يستطيعون اصطياد سمكة بغرسها في رمح، ولا إصابة قرد بنشابة، ولا تسلق شجرة. وهم لا يتجولون مرتدين الهواء والضوء، مثلنا نحن، وإنما يستخدمون ملابس نتنة، ولا يستحمون في النهر، ولا يعرفون قواعد الحشمة واللياقة، فهم لا يتشاركون المعيشة في البيت نفسه، ولا في طعامهم، ولا في أبنائهم ونسائهم، عظامهم طرية وتكفي ضربة واحدة بالهراوة لتحطيم جماجمهم. وهم يقتلون حيوانات ولا يأكلونها، بل يتركونها ملقاة لتتعفن. وحيثما يمرون يخلفون آثاراً من القمامة والسموم، حتى في الماء. الناهاب معتوهون إلى حد أنهم يريدون أخذ الحجارة من الأرض، والرمل من الأنهار، والأشجار من الغابة. بعضهم يريدون الأرض. نقول لهم إنه لا يمكن حمل الغابة على الظهر مثل تابير ميت، ولكنهم لا يسمعون. يكلموننا عن آلهتهم ولا يريدون سماع شيء عن آلهتنا. إنهم لا يشبعون، مثل التماسيح. لقد رأيت هذه الأمور الرهيبة بأم عيني وسمعتها بأذني ولمستها بيدي.

فأعلن تاهاما:

- لن نسمح أبداً لهؤلاء الشياطين بالوصول إلى "عين العالم"، سنقتلهم بنشاباتنا وسهامنا عندما يصعدون عبر الشلال، مثلما فعلنا بكل الغرباء الذين حاولوا ذلك من قبل، منذ أزمنة أجداد أجدادنا.

فتدخل أليكس:

- ولكنهم سيأتون على كل حال. فلدى الناهاب طيور ضجيج وريح، يمكنها التحليق فوق الجبال. سيأتون لأنهم يريدون الأحجار والأشجار والأرض.

- هذا صحيح - صادق واليماي على كلامه.

وقالت ناديا:

- والناهاب قادرون على القتل كذلك بالأمراض. قبائل كثيرة ماتت على هذا النحو، ولكن شعب الضباب يستطيع النجاة.

فأكد واليماي:

- هذه البنت التي بلون العسل تعرف ما الذي تقوله، ويجب علينا أن نستمع إليها. فالراهاكاناريوا يتخذ عادة هيئة أمراض قاتلة.

فسأله تاهاما:

- وهل هي أكثر قوة من راهاكاناريوا؟

وقالت ناديا:

- أنا لست أكثر قوة منه، ولكن هناك امرأة أخرى أقوى بكثير. لديها اللقاحات القادرة على منع الأوبئة.

وأمضت ناديا وأليكس الساعة التالية في محاولة إقناع الهنود بأنه ليس جميع الناهاب هم شياطين أشرار، وأن بينهم أناساً أصدقاء، مثل الدكتورة أومايرا توريس. وكانت الاختلافات الثقافية تضاف إلى محدودية اللغة. كيف يوضحان لهم ما الذي يعنيه اللقاح؟ فهما نفسيهما لا يفهمان ذلك تماماً، ولهذا اختارا أن يقولا إنه سحر قوي المفعول.

- الخلاص الوحيد هو في مجيء تلك المرأة لتلقيح كل شعب الضباب -قالت ناديا ذلك، ثم أضافت: " وبهذه الطريقة لن يتمكن الناهاب أو راهاكاناريوا، المتعطشين للدماء، من إلحاق الأذى بهم عن طريق الأمراض. "

وأكد تاهاما:

- قد يهددونا بأساليب أخرى. وسيكون علينا عندئذ خوض الحرب.

فغامرت ناديا بالقول:

- خوض الحرب ضد الناهاب ستكون فكرة سيئة...

- هذا ما سيقرره الزعيم القادم - اختتم تاهاما.

ترأس واليماي الطقوس المأتمية لجثمان موكاريتا وفق أقدم التقاليد. وعلى الرغم من تعرضهم لخطر رؤيتهم من الجو، فقد أشعل الهنود موقداً كبيراً لإحراق الجثمان، فأتت النار خلال ساعات على رفات الزعيم، بينما أهالي القرية يتحسرون على ذهابه. أعد واليماي شراباً سحرياً، شراب أياهواسكا القوي، لكي يساعد رجال القبيلة على رؤية أعماق قلوبهم.

وقد دعي الصبيان الغريبان اتناول الشراب لأن عليهما إنجاز مهمة بطولية أكبر أهمية من حياتيهما، وهما لا يحتاجان في ذلك إلى مساعدة الآلهة وحسب، وإنما عليهما أن يعرفا قواهما الشخصية كذلك. لم يتجرأا على الرفض، على الرغم من أن رائحة ذلك المشروب كانت مقززة، وكان عليهما بذل مجهود كبير من أجل ابتلاعه وإبقائه في معدتيهما. لم يشعرا بتأثيراته إلا بعد بعض الوقت، عندما غارت الأرض فجأة تحت أقدامهما وامتلأت السماء بأشكال هندسية وألوان براقة، وبدأ جسداهما يدوران ويذوبان، ولفهما الخوف حتى آخر ذرة في كيانيهما. وعندما حسبا أنهما قد بلغا الموت بالضبط، أحسا بنفسيهما يندفعان بسرعة دوارية عبر حجرات نور لا حصر لها، وانفتحت فجأة أبواب مملكة الآلهة الطوطميين، طالبة منهم الدخول بتوعد.

أحس أليكس بأن أطرافه تتمدد وتطول، وبأن حرارة ملتهبة تجتاحه من الداخل. نظر إلى يديه ورأى أنهما تحولتا إلى قائمتين تنتهيان بمخالب حادة. فتح فمه ليُنادي، فاندفعت زمجرة مخيفة من بطنه. رأى نفسه متحولاً إلى حيوان هري ضخم، أسود ولامع: إنه الجغوار الذكر العظيم الذي رآه في فناء مخيم ماورو كاريّاس.. ولم يكن الحيوان فيه، ولم يكن هو في الحيوان، وإنما الاثنان منصهران في كائن واحد، كلاهما كان الفتى والحيوان الضاري في الوقت نفسه. خطا أليكس بضع خطوات متمطياً، يجرب عضلاته، وأدرك أن يمتلك خفة وسرعة وقوة الجغوار. ركض في قفزات هر واسعة عبر الغابة، ممسوساً بطاقة خارقة. وبقفزة واحدة صعد إلى فرع شجرة وتفحص المشهد من هناك بعينيه الذهبيتين، بينما هو يحرك ذيله الأسود في الهواء. وأدرك أنه قوي، مخيف، فريد، لا يهزم، وملك الغابة الأمريكية الجنوبية دون منازع. فليس هناك حيوان أشد منه ضراوة.

ارتفعت ناديا في السماء وتخلصت خلال لحظات من خوفها من الأعالي الذي كان يثقل عليها دوماً. كانت تكاد لا تحرك جناحيها وهي تحلق متحولة إلى نسر أنثى، فالهواء البارد يحملها، وتكفيها حركة خفيفة لتبدل اتجاه أو سرعة طيرانها. حلقت على ارتفاع شاهق، مطمئنة، غير مبالية، معلقة في الفضاء، ومراقبة الأرض البعيدة في الأسفل دون فضول. إنها ترى، من عليائها، الغابة وقمم التيبوي المسطحة، وقد كانت الغيوم

تلف معظم تلك القمم فتبدو وكأنها مكللة بالزبد، ورأت كذلك عمود الدخان المتصاعد من الموقد الذي تحترق فيه رفات الزعيم موكاريتا. لقد كان النسر المعلق في الهواء عصياً على الهزيمة مثلما هو الجغوار على الأرض: لا يمكن لأي شيء أن يصل إليها. قامت البنت – الطائر بعدة جولات أولمبية محلقة فوق "عين الدنيا"، متفحصة من أعلى حياة الهنود، كان ريش رأسها ينتصب مثل مئات الهوائيات، ملتقطاً دفء الشمس، واتساع الريح، وانفعال الأعالي الدراماتيكي. عرفت حينئذ أنها هي حامية هؤلاء الهنود، وأنها الأم - النسر لشعب الضباب. حلقت فوق قرية تابيراوا - تيري فغطى ظل جناحيها العظيمين، مثل دثار، السطوح شبه الخفية للبيوت الصغيرة المتوارية في الغابة. وأخيراً توجه الطائر الضخم إلى ذروة أحد التيبوي، أكثر الجبال ارتفاعاً، حيث كانت تلمع في عش هناك، معرضة لكل الرياح، ثلاث بيوض بلورية.

وفي اليوم التالي، عندما رجع الصبيان من عالم الحيوانات الطوطمية، روى كل منهما تجربته للآخر. وقد سألها أليكس:

- ماهو معنى تلك البيوض الثلاث؟

- لا أدري، ولكنها مهمة جداً. تلك البيوض ليست مني يا جغوار، ولكن علي أن أحصل عليها من أجل إنقاذ شعب الضباب.

- أنا لا أفهم. ما هي علاقة تلك البيوض بالهنود؟

فردت عليه ناديا وهي أكثر منه تشوشاً :

- أظن أن لها كل العلاقة....

عندما خمدت جمار المحرقة المأتمية، قامت إيومي، زوجة موكاريتا، بفصل العظام المتفحمة، ثم طحنتها بحجر إلى أن حولتها إلى مسحوق ناعم، خلطته بماء وموز لتصنع منه حساء. انتقل إناء القرع الذي وضع فيه ذلك السائل من يد إلى يد، وكان كل واحد يشرب رشفة منه، بمن في ذلك الأطفال. ثم دفنوا الإناء المصنوع من قرعة، ونُسي اسم الزعيم، حتى لا يعود أحد إلى ذكره والنطق به أبداً. فذكرى الرجل، وكذلك خصائص شجاعته وحكمته، قد استقرت في الرماد، وانتقلت منه إلى أبنائه وأصدقائه. وبهذا سيبقى جزء منه بين الأحياء إلى الأبد. وقد قدموا حساء

العظم إلى ناديا وأليكس أيضاً ليشربا منه، كطريقة في التعميد، فهما ينتميان الآن إلى القبيلة. حين رفع الفتى الإناء إلى شفتيه، تذكر أنه قرأ يوماً عن داء يتسبب به "أكل دماغ الأسلاف". ولكنه أغمض عينيه، وشرب بتوقير.

وما إن انتهت المراسم المأتمية، حتى دعا واليماي القبيلة لاختيار الزعيم الجديد. ووفقاً للتقاليد، كان بإمكان الرجال وحدهم التطلع إلى هذا المنصب، ولكن واليماي أوضح لهم بأن عليهم الاختيار بمنتهى الحذر في هذه المرة، لأن أزمنة غريبة جداً ستأتي عليهم وسيحتاجون إلى زعيم قادر على فهم أسرار عوالم أخرى، وعلى التواصل مع الآلهة، وإيقاف راهاكاناريوا عند حده. قال إنها أزمنة ستة أقمار في القبة السماوية، أزمنة رأى فيها الآهة أنفسهم مضطرين إلى هجر مقرهم. ولدى ذكر الآلهة رفع الهنود أيديهم إلى رؤوسهم وبدؤوا يترنحون إلى الأمام والخلف، مرتلين شيئاً كان له في آذان ناديا وألكسندر وقعاً شبيهاً بصلاة.

وأصدر واليماي توجيهه إلى القبيلة

- جميع من في تابيراوا– تيري، بمن في ذلك الأطفال، عليهم أن يشاركوا في اختيار الزعيم.

أمضت القبيلة اليوم كله في التفاوض واقتراح المرشحين. وعند الغروب نام أليكس وناديا منهكين وجائعين وضجرين. كان الفتى الأمريكي قد حاول دون جدوى أن يشرح لهم طريقة الاختيار بالتصويت، كما في مجتمع ديمقراطي، ولكن الهنود ما كانوا يعرفون العد، وبدا لهم مصطلح التصويت شيئاً غير مفهوم مثلما هو التطعيم. فهم يختارون زعيمهم من خلال "الرؤى ".

أيقظ واليماي الفتيين في وقت متأخر من الليل ليخبرهما بأن أقوى الرؤى هي إيومي، وهكذا فإن أرملة موكاريتا هي زعيم تابيراوا - تيري الآن. وكانت تلك هي أول مرة، تصل إليها ذاكرتهم، تشغل فيها امرأة هذا المنصب.

كان أول أمر أصدرته إيومي بعد أن وضعت قبعة الريش الأصفر التي استخدمها زوجها لسنوات طويلة، هو البدء بإعداد الطعام. وقد تم تنفيذ الأمر على الفور، لأن شعب الضباب لم يأكلوا شيئاً منذ يومين سوى رشفة

حساء العظام. انطلق تاهاما وصيادون آخرون بأسلحتهم إلى الغابة، وعادوا بعد ساعة ومعهم دب آكل نمل وغزال، فشقوهما وشووهما على الجمر. وفي أثناء ذلك أعدت النساء خبزاً من المنديوكا وطهون موزاً. وعندما شبعت كل البطون، دعت إيومي شعبها للجلوس في دائرة وأصدرت قرارها الثاني:

- سوف أعين زعماء آخرين. زعيم للحرب والصيد: تاهاما. وزعيم لتهدئة راهاكاناريوا: البنت التي بلون العسل المدعوة نسر. وزعيم للتفاوض مع الناهاب وطيورهم ذات الضجيج والريح: الغريب المدعو جغوار. وزعيم للتردد على الآلهة: واليماي. وزعيم على الزعماء: إيومي.

بهذه الطريقة وزعت المرأة الحكيمة السلطة ونظمت شعب الضباب لمواجهة الأزمنة الرهيبة التي تقترب. وبهذه الطريقة وجد كل من ناديا وأليكس نفسهما يتحملان مسؤولية لا يشعر أي منهما بأنه كفء لها.

وأصدرت إيومي أمرها الثالث هناك بالذات. قالت إنه يتوجب على البنت نسر أن تحافظ على " روحها بيضاء " لكي تواجه الراهاكاناريوا، لأنها الطريقة الوحيدة لتفادي أن يلتهمها ذلك الطير آكل اللحم البشري، أما الفتى الغريب جغوار، فعليه أن يتحول إلى رجل ويتلقى أسلحته كمحارب. فعلى كل ذكر قبل أن يتسلم أسلحته أو يتزوج، أن يموت كطفل ويولد كرجل. لم يكن هناك متسع من الوقت لإقامة الشعائر التقليدية التي تستمر ثلاثة أيام، وتُجرى عادة لكل فتيان القبيلة الذين بلغوا سن الإدراك. وكان عليهم في حالة جغوار أن يرتجلوا طقوساً مقتضبة، مثلما قالت إيومي، لأن الفتى سيرافق البنت نسر في الرحلة إلى جبل الآلهة. فشعب الضباب معرض للخطر، وهذان الغريبان وحدهما يستطيعان جلب الخلاص، وهما مضطران إلى الانطلاق بأسرع ما يمكن.

كان على واليماي وتاهاما أن ينظما طقوس تلقين أليكس، وهي طقوس لا يشارك فيها سوى الرجال البالغين. وقد روى الفتى لناديا فيما بعد بأنه لو عرف حقيقة تلك الطقوس، فربما كانت التجربة أقل رعباً. فتحت إشراف إيومي، قامت النسوة بحلاقة الشعر في قمة رأسه بحجر مشحوذ، وهي وسيلة مؤلمة، لأنه كان ما يزال هناك جرح لم يلتئم، حيث ضربوه عند اختطافه. ولدى مرور حجر الحلاقة انفتح الجرح، ولكنهن وضعن عليه قليلاً من الطين، فتوقف النزف بعد برهة. وبعد ذلك طلته النسوة بالأسود من قدميه إلى رأسه، مستخدمات عجينة من الشمع والفحم. وكان عليه

بعد ذلك أن يودع صديقته وإيومي، لأنه لا يمكن للنساء حضور المراسم، وقد ذهبن جميعهن لقضاء اليوم في الغابة مع الأطفال. ولن يرجعن إلى القرية حتى حلول الليل، بعد أن يكون المحاربون قد أخذوه إلى مرحلة الاختبار في تلقينه.

أخرج تاهاما ورجاله الأدوات الموسيقية المقدسة المطمورة في الطين في قاع النهر، والتي لا تستخدم إلا في الشعائر الرجولية. وهي عبارة عن أنابيب ثخينة بطول متر ونصف المتر، تصدر لدى النفخ فيها صوتاً أجش وثقيل، مثل صوت ثور البوفالو. ولا يمكن للنساء والصبيان الذين لم يلقنوا بعد رؤية تلك الأدوات، تحت طائلة الإصابة بالمرض والموت بقدرات سحرية. فتلك الأدوات تمثل السلطة الذكورية في القبيلة، وصلة الوصل بين الآباء والأبناء الذكور. ودون هذه الأبواق، ستكون كل السلطة بيد النساء اللواتي يمتلكن القدرة الإلهية بإنجاب الأبناء أو "صنع الناس"، مثلما يقولون هم.

بدأت الشعائر في الصباح، وهي ستستمر طوال النهار والليل. قدموا له توتاً مراً ليأكله وتركوه متكوراً على نفسه على الأرض، في وضع جنيني، ثم توجهوا إليه بعد ذلك، يقودهم واليماي، بأجساد مطلية ومزينة بمواصفات الشياطين، وتوزعوا من حوله في دائرة متزاحمة، وراحوا يضربون الأرض بأقدامهم ويدخنون سجائر من أوراق نباتية. وبفعل التوت المر، والرعب، والدخان، سرعان ما أحس أليكس بأنه مريض.

واصل المحاربون الرقص وترتيل الأناشيد لوقت طويل من حوله وهم ينفخون في تلك الأبواق الثقيلة المقدسة التي تلامس أطرافها الأرض. وكان الدوي يتردد في دماغ الصبي المشوش. لقد استمع طوال ساعات إلى الأغنيات تردد قصة الشمس الأب، وهي فيما وراء الشمس اليومية التي تضيء السماء، إنها نار غير مرئية انحدرت منها الخليقة، واستمع إلى قصة قطرة الدم التي سالت من القمر لتكون أصل ونشأة الرجل الأول، وغنى المحاربون أغنية عن نهر اللبن الذي يضم كل بذور الحياة، ولكنه يضم التفسخ والموت أيضاً، وهذا النهر يؤدي إلى المملكة التي يلتقي فيها التشامانات، من أمثال واليماي، بالأرواح وبكائنات خارقة أخرى كي يتلقوا الحكمة والقدرة على العلاج. وقالوا إن كل ما هو موجود إنما حلمت به الأرض الأم، وإن كل نجمة تحلم بساكنيها، وكل ما يحدث في الكون هو حلم، أحلام ضمن أحلام أخرى. ووسط ذهوله، أحس

ألكسندر كولد بأن هذه الكلمات تشير إلى مفاهيم كان هو نفسه قد هجس بها، وعندئذ تخلى عن التفكير العقلاني وأسلم نفسه لتجربة "التفكير بالقلب" الغريبة.

مرت الساعات وراح الفتى يفقد الإحساس بالزمان، وبالمكان، وبواقعه نفسه، ويغرق في حالة من الرعب والإنهاك العميق. أحس في إحدى اللحظات بأنهم ينهضونه ويجبرونه على المسير، وعندئذ انتبه إلى أن الليل قد خيم. توجهوا في موكب إلى النهر وهم يعزفون على آلاتهم ويهزون أسلحتهم، وهناك غطسوه في الماء عدة مرات، إلى أن ظن أنه قد مات غرقاً. فركوه بأوراق حكاكة لينزعوا عنه الطلاء الأسود، ثم وضعوا فلفلاً حاراً على جلده المتوقد. ووسط صراخ يصم الآذان ضربوه بعصي على ساقيه، وعلى ذراعيه، وصدره وبطنه، ولكن دون نية بإلحاق الأذى به؛ هددوه برماحهم، وكانوا يمسونه أحياناً بحرابها، ولكن دون أن يجرحوه. لقد أرادوا تخويفه بكل السبل الممكنة، وتوصلوا إلى ذلك، لأن الفتى الأمريكي لم يكن يفهم ما الذي يجري، وكان يخشى أن يتمادى مهاجموه قليلاً في إحدى اللحظات ويقتلونه حقاً. كان يحاول الدفاع عن نفسه من صفعات محاربي تابيراوا - تيري ودفعهم له، ولكن الغريزة أوحت إليه بألا يحاول الهرب، لأن ذلك سيكون دون جدوى، فليس هناك مكان يذهب إليه في هذه الأراضي المجهولة والمعادية. وكان قراره صائباً، لأنه لو هرب لاعتبر جباناً، وهي أكبر نقيصة لا تغتفر في المحارب.

حين أوشك أليكس على فقدان السيطرة على نفسه وبلوغ حالة هستيرية، تذكر فجأة حيوانه الطوطمي. ولم يكن عليه بذل مجهود استثنائي لكي يدخل في جسد الجغوار الأسود، لقد حدث التحول بسرعة وسهولة: وكانت الزمجرة التي انطلقت من حنجرته هي نفسها التي خبرها من قبل، وكان يعرف من قبل أيضاً قوة ضربات براثنه، ويعرف أن قفزه فوق رؤوس أعدائه هو أمر طبيعي. احتفى الهنود بوصول الجغوار بصخب يبعث على الصمم، واقتادوه على الفور في موكب مهيب إلى الشجرة المقدسة، حيث كان ينتظرهم تاهاما من أجل الاختبار النهائي.

كان الفجر قد بدأ بالبزوغ في الغابة. وكانت نمال النار حبيسة في أنبوب أو كم من القش المجدول، كتلك التي يستخدمونها لاستخراج الحمض السام من المنديوكا، وكان تاهاما يحملها بواسطة قضيبين، ليتجنب

ملامسة الحشرات. احتاج أليكس، المنهوك بعد تلك الليلة الطويلة والرهيبة، إلى لحظة قصيرة كي يدرك ما هو مطلوب منه. فأخذ عندئذ نفساً عميقاً، مالئاً رئتيه بهواء بارد، ودعا لمساعدته شجاعة أبيه، متسلق الجبال، ومقاومة أمه، التي لا تستسلم أبداً للهزيمة، وقوة حيوانه الطوطمي، ثم أدخل ذراعه الأيسر على الفور حتى المرفق في الأنبوب.

راحت نمال النار تمشي على جلده خلال ثوان قبل أن تبدأ بلسعه. وعندما فعلت ذلك أحس بأن حمضاً يحرقه حتى العظام. أفقده الألم المرعب الوعي لبضع لحظات، ولكنه لم يسحب ذراعه مستعيناً بقوة إرادة وحشية. تذكر كلمات ناديا عندما كانت تعلمه كيفية التعايش مع البعوض: لا تحاول الدفاع عن نفسك، وإنما تجاهلها. كان من المستحيل تجاهل نمال النار، ولكنه بعد بضع دقائق من اليأس المطلق، كان في أثنائها على وشك الانطلاق راكضاً ليلقي بنفسه إلى النهر، انتبه إلى أنه يستطيع التحكم بدافع الهرب، وكبح الصرخة في الصدر، والانفتاح على الألم دون مواجهته بأي مقاومة، والسماح له بأن يتغلغل بالكامل حتى آخر ألياف كيانه ووعيه. وعندئذ اخترقه الألم مثل سيف، وخرج من ظهره، واستطاع بمعجزة أن يتحمله. ولن يستطيع أليكس مطلقاً تفسير انطباع القوة الذي داهمه خلال ذلك العذاب. أحس بأنه قوي ولا يُهزم مثلما كان حاله وهو في هيئة الجغوار الأسود، حين تناول مشروب واليماي السحري. وكانت تلك هي مكافأته لتحمله الاختبار وتجاوزه. عرف أنه قد خلف طفولته وراءه حقاً، وأنه يستطيع منذ هذه الليلة الاعتماد على نفسه.

- أهلاً بك بين الرجال - قال تاهاما وهو يسحب ذلك الكمّ عن ذراع أليكس.

واقتاد المحاربون الشاب وهو شبه غائب عن الوعي عائدين به إلى القرية.

- 13 -

الجبل المقدس

مستحماً بالعرق، وموجوعاً ومحموماً، ذرع أليكس كولد، الجغوار، رواقاً طويلاً أخضر، واجتاز عتبة باب من الألمنيوم، ورأى أمه. كانت ليزا كولد تتكئ على وسائد تحيط بها في أريكة، وهي مغطاة بملاءة، في حجرة ضوؤها أبيض، مثل ضوء القمر. وكانت تضع طاقية من الصوف على رأسها الأصلع وسماعتين على أذنيها، بدت شديدة الشحوب والكآبة، مع وجود ظلال قاتمة حول عينيها. وكان هناك مسبار رفيع متصل بوريد تحت عظم الترقوة، يتقطر منه سائل أصفر يأتي من كيس بلاستيكي. كل قطرة منه تدخل مثل نار النمال مباشرة إلى قلب أمه.

كانت ليزا كولد تتلقى علاجها الكيماوي على بعد آلاف الأميال، في أحد مستشفيات تكساس. وكانت تحاول ألا تفكر في الدواء الذي يتغلغل في عروقها، كأنه السم، ليكافح سماً آخر أشر منه، هو سم مرضها. ولكي تشغل نفسها، كانت تركز على كل نغمة من كونشيرتو الناي الذي تستمع إليه، وهو اللحن نفسه الذي طالما سمعت ابنها يتدرب عليه. وفي الوقت نفسه بالضبط، كان أليكس يحلم بها وهو يهذي في أعماق الأدغال، فرأت ليزا ابنها بكل وضوح. رأته واقفاً عند عتبة الحجرة، أطول قامة وأشد متانة، أكثر نضوجاً ووسامة مما تتذكره. لقد استدعته ليزا كثيراً بأفكارها إلى حد لم تستغرب معه رؤيته آتياً. لم تتساءل كيف ولا لماذا أتى، بل استسلمت بكل بساطة لسعادة وجوده إلى جانبها. ودمدمت: ألكسندر.... ألكسندر... مدت يديها وتقدم هو إلى أن لمسها، جثا إلى جانب الأريكة ووضع رأسه على ركبتيها. وبينما ليزا كولد تردد اسم ابنها وتداعب قذاله، سمعت صوته يأتيها عبر السماعتين اللتين على أذنيها، بين ألحان الناي الصافية، طالباً منها أن تناضل، وألا تستسلم للموت، وقائلاً لها مرة بعد أخرى: أحبك يا أماه.

يمكن أن يكون لقاء ألكسندر كولد مع أمه قد استمر لبرهة أو لعدة ساعات، لأن أياً منهما لم يعرف ذلك بصورة مؤكدة. وعندما ودع كل منهما الآخر في النهاية، رجعا إلى العالم المادي المتماسك. بعد قليل من ذلك دخل جون كولد إلى حجرة زوجته وفوجئ برؤيتها تبتسم وقد اصطبغ خداها بالحمرة. سألها، مناشداً:

- كيف حالك يا ليزا؟

فأجابته :

- إنني سعيدة يا جون، لأن أليكس جاء لزيارتي.

- ما الذي تقولينه يا ليزا... ألكسندر في الأمازون مع أمي، ألا تتذكرين؟ - تلعثم زوجها، مرعوباً من التأثير الذي يمكن للأدوية أن تخلفه في زوجته.

- بلى، إنني أتذكر، ولكن هذا لا يلغي أنه كان هنا قبل لحظة.

- غير ممكن... - دحض زوجها أقوالها.

- لقد كبر، يبدو أطول قامة وأكثر قوة، ولكن ذراعه اليمنى متورمة جداً.... - أخبرته وهي تغمض عينيها لتستريح.

وفي وسط القارة الأمريكية الجنوبية، في "عين الدنيا"، استيقظ ألكسندر كولد محموماً. وتأخر بضع دقائق في التعرف على الفتاة المذهبة التي تنحني إلى جانبه لتقدم له الماء.

- ها قد صرت رجلاً يا جغوار. - قالت ناديا وهي تبتسم مطمئنة لرؤيته يعود بين الأحياء.

أعد واليماي مرهماً من نباتات طبية ووضعه على ذراع أليكس، وبعد ساعات قليلة تراجع بفضله الالتهاب والورم. أوضح له التشامان بأنه مثلما توجد في الغابة سموم تقتل دون أن تترك أثراً، توجد كذلك آلاف وآلاف الأدوية الطبيعية. وصف له الفتى مرض أمه وسأله إن كان يعرف بعض الأعشاب التي تشفيها.

فأجابه التشامان :

- توجد نبتة مقدسة، ولابد من مزجها بماء الصحة.

- وهل يمكنني الحصول على هذا الماء وهذه النبتة؟

- ممكن وغير ممكن. لابد من اجتياز أعمال كثيرة.

فهتف أليكس:

- سأفعل كل ما هو ضروري!

في اليوم التالي كان الشاب مرضضاً، وقد ظهرت في موضع كل لسعة نطفة حمراء، ولكنه استطاع الوقوف وكانت شهيته مفتوحة. وعندما أخبر ناديا بتجربته، قالت له إن بنات القبيلة لا يجتزن طقوس التلقين، لأنهن لا يحتجن إليها؛ فالنساء يعرفن متى يخلفن طفولتهن وراء ظهورهن لأن جسدهن ينزف ويطلعهن بذلك على تحولهن.

كان هذا واحداً من تلك الأيام التي لم يحالف الحظ فيها تاهاما ورفاقه في الصيد، ولم يكن لدى القبيلة سوى الذرة وبعض الأسماك. وقرر أليكس بأنه إذا لم يتورع من قبل عن أكل حية أنكندة مشوية، فإنه قادر الآن على تذوق هذه الأسماك، وحتى ولو كانت ممتلئة بالحراشف والحسك. وقد فوجئ لأن مذاق السمك أعجبه كثيراً. وأنا الذي حرمت نفسي من هذا الطبق الشهي طوال أكثر من خمس عشرة سنة! صاح بذلك مع تناوله اللقمة الثانية. طلبت منه ناديا أن يأكل كثيراً، لأنهما سينطلقان في اليوم التالي مع واليماي في رحلة إلى عالم الأرواح، وربما لا يجدان هناك غذاء للجسد.

وقالت ناديا:

- يقول واليماي إننا سنذهب إلى الجبل المقدس، حيث يعيش الآلهة.

- وما الذي سنفعله هناك؟

- سنبحث عن البيوض البلورية الثلاث التي تبدت في رؤاي. واليماي يعتقد بأن تلك البيوض ستنقذ شعب الضباب.

بدأت الرحلة عند الفجر، مع بزوغ أول خيوط الضوء في القبة السماوية. كان واليماي يمشي في المقدمة، ترافقه زوجته الجميلة الملاك، التي كانت تمسك أحياناً بيد التشامان، وتحلق في أحيان أخرى مثل فراشة فوق رأسه، وهي صامتة وباسمة طوال الوقت. كان ألكسندر كولد يحمل بفخر قوساً وسهاماً، هي الأسلحة الجديدة التي سلمه إياها تاهاما بعد انتهاء طقوس التلقين. وكانت ناديا تحمل قرعة تحتوي حساء الموز وبعض أرغفة خبز المنديوكا التي قدمتها إليهما إيومي ليأكلاها في الطريق. أما الساحر فلم يكن بحاجة إلى مؤونة، لأنه يأكل قليلاً في تلك السن، مثلما قال هو نفسه. لم يكن يبدو بشرياً: فقد كان يتغذى على رشفات ماء ونوع من الجوز يمصه مطولاً بلثته الخالية من الأسنان، وهو يكاد لا ينام، ويبقى

لديه فائض من القوة لمواصلة المسير في حين يسقط الشبان منهوكين.

انطلقوا في المسير في أراضي النجد المنبسطة والغابية باتجاه أعلى قمم التيبوي، وهي أشبه ببرج شاهق، أسود لامع، كأنه منحوت من صخر السبج البركاني. تفحص أليكس بوصلته ورأى أنهم يتوجهون طوال الوقت باتجاه الشرق. لم يكن هناك درب واضح، ولكن واليماي كان يتوغل بين الخضرة بثقة مذهلة، محدداً موقعه وتوجهه بين الأشجار، والوديان، والهضاب، والأنهار، والشلالات كما لو أنه يحمل خريطة في يده.

ومع تقدمهم كانت الطبيعة تتبدل. أشار واليماي إلى المشهد المحيط قائلاً إن هذه هي مملكة أم المياه، والحقيقة أنه كان هناك انتشار لا يصدق للشلالات ومساقط المياه. لم يكن الباحثون عن الذهب والأحجار الثمينة قد وصلوا إلى هناك بعد، ولكن ذلك كله مسألة وقت فقط. فالمنجميون يعملون في جماعات من أربعة أو خمسة أشخاص، وهم فقراء جداً ولا يمكنهم امتلاك وسيلة نقل جوية، بل يتنقلون مشياً في أراض تملؤها العقبات أو في زوارق عبر النهر. ولكن هناك مع ذلك رجال من أمثال ماورو كاريّاس، يعرفون ثروات المنطقة الهائلة ويمتلكون وسائل حديثة. والشيء الوحيد الذي يمنعهم من استغلال المناجم بخراطيم الماء المندفع بضغط مرتفع يمكن له تفتيت الغابة وتحويل المكان إلى مستنقع من الوحل، هو القوانين الجديدة لحماية البيئة والسكان الأصليين. القوانين الأولى كان يجري خرقها باستمرار، ولكن لم يعد من السهل عمل الشيء نفسه بقوانين حماية السكان الأصليين، لأن عيون العالم كانت مركزة على هنود الأمازون أولئك، الأحياء الوحيدون من العصر الحجري. ولم يعد بالإمكان إبادتهم بالرصاص والنار، مثلما كان يحدث إلى ما قبل سنوات قليلة، دون إثارة رد فعل دولي.

قدر أليكس مرة أخرى مدى أهمية لقاحات الدكتورة أومايرا توريس والتحقيق الصحفي الذي ستكتبه جدته لمجلة انترناشيونال جيوغرافيك، لأنه سينبه بلداناً أخرى إلى وضع الهنود... ما الذي تعنيه البيوض الثلاث التي رأتها ناديا في حلمها؟ ولماذا عليهما القيام بهذه الرحلة مع التشامان؟ كان يرى العودة للالتحاق بالحملة هو الأهم، وإحضار اللقاحات، ونشر جدته لتحقيقها. لقد اختارته إيومي " زعيماً للتفاوض مع الناهاب وطيورهم مطلقة الدوي والريح "، ولكنه بدلاً من إنجاز مهمته، يمضي مبتعداً أكثر

فأكثر عن الحضارة. ليس هناك أي منطق في ما يفعلونه، فكر بذلك وهو يطلق زفرة. وكانت تنتصب أمامه ذرى التيبوي، وكأنها من كوكب آخر.

سار الرحالة الثلاثة من شروق الشمس حتى مغيبها بخطوات سريعة، وكانوا يتوقفون لتبريد أقدامهم وشرب الماء من الأنهار. حاول أليكس اصطياد طائر توكان كان يستريح على بعد أمتار قليلة فوق غصن، ولكن سهمه لم يصب الهدف. ثم صوب إلى قرد قريب جداً إلى حد يمكن معه رؤية أسنانه الصفراء، ولم يتمكن كذلك من اصطياده. وقد رد عليه القرد بحركات استهزاء بدت له مضحكة ومتهكمة. وفكر في كم هي قليلة فائدة أسلحته الجديدة كمحارب؛ وكيف أن رفيقيه سيموتان جوعاً إذا ما اعتمدا عليه لتوفير الأكل لهما. فأشار واليماي إلى بعض ثمار الجوز التي تبين أنها لذيذة، وإلى ثمار شجرة أخرى لم يستطع الفتى بلوغها.

إن أصابع أقدام الهنود متباعدة عن بعضها البعض، وهي قوية ومرنة، تتيح لهم أن يتسلقوا برشاقة أعلى الجذوع. وبالرغم من أن جلد تلك الأقدام قاس مثل جلود التماسيح، إلا أنها حساسة جداً: فهم يستخدمونها أيضاً في صنع السلال والحبال. والأطفال في القرية يبدؤون ممارسة التسلق منذ تعلمهم الوقوف؛ أما ألكسندر بالمقابل، ومع كل تجربته في تسلق الجبال، فلم يستطع ارتقاء الشجرة للحصول على ثمارها. كان واليماي وناديا وبوروبا يبكون ضحكاً من جهوده المحبطة، ولم يبد أي منهم أدنى قدر من التعاطف عندما سقط جالساً عن ارتفاع لا بأس به، مرضضاً مؤخرته وكبرياءه. لقد كان يشعر بتثاقل وخراقة كركدن.

عند الغروب، بعد ساعات من المسير، أشار واليماي إلى أنه بإمكانهم الاستراحة. توغل في النهر حتى بلغ الماء ركبتيه، ووقف ثابتاً وصامتاً، إلى أن نسيت الأسماك وجوده وبدأت تحوم من حوله. وعندما صارت إحداها في متناول سلاحه، غرسها بحربته القصيرة وقدم إلى ناديا سمكة فضية بديعة، ما تزال تحرك ذيلها.

- كيف يفعل ذلك بكل هذه السهولة؟ - أراد أليكس أن يعرف وهو يشعر بالمهانة لإخفاقاته السابقة.

فأوضحت له الفتاة:

- يستأذن من السمكة، يوضح لها بأنه يريد قتلها بدافع الضرورة والحاجة؛ ثم يشكرها بعد ذلك لأنها تقدم حياتها لكي نعيش.

وفكـر ألـيكس في أنـه كـان سيضـحك مـن هـذه الفكـرة في بدايـة الرحلة، ولكنـه استمع الآن باهتمـام إلى مـا قالتـه صديقته، التي أضافت قائلة:

- السمكة تتفهم ذلك لأنها أكلت من قبل أسماكاً أخرى؛ وقد حان الآن دورها لتؤكل. هكذا هي الأمور.

- أعد التشامان موقداً صغيراً لشي العشاء الذي أعاد للصبيين قواهما، أما هو فلم يذق شيئاً سوى الماء. نام الصبيان متكورين بين الجذور القوية لإحدى الأشجار ليحميا نفسيهما من البرد، إذ لم يكن ثمة متسع من الوقت لإعداد أراجيح نوم من لحاء الشجر، مثلما رأيا الهنود يفعلون في الضيعة؛ فقد كانا متعبين، وعليهما مواصلة الرحلة في الصباح الباكر. وكانا إذا ما تحرك أحدهما وهما نائمين، يعدل الآخر وضعه ليبقيا ملتصقين أكثر ما يمكن، وهكذا كانا يبثان الدفء بجسديهما خلال الليل. وفي أثناء ذلك بقي العجوز واليماي مقرفصاً دون حراك، لقد أمضى تلك الساعات في مراقبة القبة السماوية، بينما كانت زوجته تسهر إلى جانبه مثل حورية شفافة، لا ترتدي سوى شعرها الفاحم. وعندما استيقظ الصديقان، كان الهندي ما يزال في الوضع الذي رأياه عليه في الليلة السابقة: غير عابئ بالبرد والإرهاق. سأله أليكس كم عاش، ومن أين يأتي بالطاقة وبصحته الجيدة. فأوضح له الشيخ بأنه رأى مولد أطفال كثيرين تحولوا فيما بعد إلى بالغين، ثم رآهم يموتون وقد صاروا أجداداً، ورأى ميلاد أحفادهم. كم من السنوات؟ هز كتفيه: ليس مهماً ذلك، أو أنه لا يعرفه. وقال إنه رسول الآلهة، وقد اعتاد الذهاب إلى عالم الخالدين حيث لا وجود للأمراض التي تقتل البشر. فتذكر أليكس أسطورة مدينة إلدورادو، التي لا تحتوي على ثروات خرافية وحسب، وإنما كذلك على ينبوع الشباب الدائم.

- أمي مريضة جداً... - تلعثم أليكس متأثراً بالذكرى. فتجربة انتقاله ذهنياً إلى المستشفى في تكساس ليكون معها كانت حقيقية إلى حد لا يمكنه معه نسيان التفاصيل، ابتداء من رائحة الأدوية في الحجرة وحتى ساقي ليزا كولد النحيلتين تحت الملاءة، حيث أسند جبهته.

- جميعنا سنموت - قال التشامان.

- أجل، ولكنها ما تزال شابة.

فقال واليماي:

- البعض يذهبون شباناً وآخرون شيوخاً. أنا عشت طويلاً، وأتمنى أن ترقد عظامي لتستريح في ذاكرة آخرين.

في ظهيرة اليوم التالي وصلوا إلى قاعدة التيبوي في "عين العالم" والتيبوي هو جبل مارد تختفي قمته فوق إكليل من السحب الكثيفة البيضاء. وأوضح واليماي أن السحب لا تنقشع مطلقاً عن تلك القمة، وأنه لا أحد ممن زاروا هذا المكان، بمن في ذلك راهاكاناريوا الجبار، لم يفعل ذلك إلا بدعوة من الآلهة. وأضاف أنه منذ آلاف السنين، عند بدء الحياة، حينما جرى صنع البشر بحرارة الشمس الأب، ودم القمر، وطين الأرض الأم، كان شعب الضباب يعرف بوجود مقر الآلهة في هذا الجبل. وفي كل جيل هناك شخص، لا بد أن يكون تشاماناً وأن يكون قد مرّ بأعمال تكفير، يختار لكي يتردد على التيبوي ويكون رسولاً. وقد كان هذا الدور من نصيبه هو، فعاش مع الآلهة وعرف عاداتهم. وأخبرهما بأنه قلق لأنه لم يدرب خليفته بعد. فمن سيكون الرسول بعده إذا ما مات؟ لقد كان يبحث عنه في كل رحلة روحية يقوم بها، ولكن لم تأت أي رؤيا لمساعدته. لأنه لا يمكن تدريب أي شخص، وإنما يجب أن يكون شخصاً قد ولد بروح تشامان.. شخص يملك المقدرة على الإشفاء، وعلى تقديم النصح وتفسير الأحلام. وأن تتبدى موهبة هذا الشخص منذ صباه؛ يجب أن يكون منضبطاً لكي يتغلب على الإغراءات ويتحكم بجسده: فالتشامان الجيد ليست له رغبات ومتطلبات. هذا هو باختصار ما فهمه أليكس وناديا من الخطبة الطويلة للساحر الذي كان يتكلم في دوائر، مكرراً، كما لو أنه يرتل قصيدة غير متناهية. إنما اتضح لهما مع ذلك، بأنه ليس هناك أحد سواه مخول باجتياز عتبة عالم الآلهة، وإن يكن بعض الهنود قد ولجوها أيضاً في مناسبتين استثنائيتين. أما الآن، فسوف تكون المرة الأولى التي يُقبل فيها زائرين غرباء منذ بدء الأزمنة.

- وكيف هو حرم الآلهة؟ - سأله أليكس.

- أكبر من أكبر الشابونات، ساطع وأصفر مثل الشمس.

فسأله الفتى بجزع :

- إلدورادو! أتكون هذه هي مدينة الذهب التي بحث عنها الفاتحون الإسبان

- يمكن لها أن تكون ويمكن ألا تكون - أجابه واليماي الذي

ليست لديه مرجعية ليعرف ما الذي تعنيه كلمة "مدينة"، أو التعرف على الذهب أو الفاتحين.

- وكيف هم الآلهة؟ أهم مثل المخلوق الذي نسميه نحن الوحش؟

- هذا ممكن وغير ممكن.

- لماذا جئت بنا إلى هنا؟

- بسبب الرؤى. فشعب الضباب يمكن له أن ينجو عن طريق نسر وجغوار، ولهذا دعيتما إلى مقر الآلهة السري.

فوعده أليكس :

- سنكون جديرين بهذه الثقة. ولن نكشف سر المدخل...

فرد الهندي ببساطة :

- لا يمكنكما كشفه. لأنكما إذا خرجتما حيين، فسوف تنسيان المكان.

إذا خرجتُ حياً... لم تكن قد خطرت لألكسندر فكرة الموت فتياً. ففي أعماقه يعتبر الموت أمراً كريهاً يحدث للآخرين. وعلى الرغم من المخاطر التي واجهها في الأسابيع الأخيرة، لم يكن يخامره الشك في أنه سيعود للقاء أسرته. بل إنه كان يهيئ الكلمات التي سيروي بها مغامراته، على الرغم من ضعف الأمل في أن يصدقوه. فأي واحد من أصدقائه يمكنه أن يتصور أنه كان بين أناس من العصر الحجري، وأنه يمكن له كذلك أن يجد إلدورادو؟

في أسفل سفح ذلك التيبوي، انتبه إلى أن الحياة مليئة بالمفاجآت. فهو لم يكن يؤمن من قبل بالنصيب، لأنه يرى فيه مفهوماً قدرياً، ويعتقد بأن كل شخص حر بممارسة حياته مثلما يحلو له، وكان هو مصمماً على أن يعمل شيئاً طيباً جداً في حياته، وأن يفوز، ويكون سعيداً. كل هذا صار يبدو له الآن سخيفاً. فما عاد بإمكانه الثقة بالعقل وحده، فقد دخل عالم الأحلام، والحدس، والسحر، غير اليقيني. النصيب موجود، ولا بد في بعض الأحيان من خوض المغامرة والخروج طافياً بارتجال وبأي طريقة ممكنة، مثلما فعل عندما دفعته جدته إلى الماء وهو في الرابعة من عمره، وكان عليه أن يتعلم السباحة. لم يبق أمامه من مخرج سوى الغوص في الأسرار التي تحيط به. وأدرك مرة أخرى حجم المخاطر. فهو وحيد في أقصى منطقة على الكوكب، حيث لا تسود القوانين المعروفة. ولا بد له

من أن يوافق على أن جدته قد قدمت له صنيعاً كبيراً حين انتزعته من أمان كاليفورنيا وألقت به إلى هذا العالم الغريب. لم يكن تاهاما ونماله وحدهما اللذان لقناه مبادئ الرجولة، وإنما فعلت ذلك أيضاً كاتي كولد العصية على الوصف.

ترك واليماي رفيقي رحلته يستريحان عند جدول الماء، موصياً إياهما بانتظاره، ومضى وحيداً. كانت الخضرة في هذه المنطقة من النجد أقل كثافة، فكانت شمس الظهيرة تسقط كالرصاص على رأسيهما. ألقى أليكس ونادیا نفسيهما في الماء، مفزعين أسماك الحنكليس ذات الشحنات الكهربائية، والسلاحف التي تستريح في القاع، بينما كان بوروبا يصطاد الذباب ويحك القمل على الضفة. كان الفتى يشعر بالراحة التامة مع هذه البنت، يمرح معها ويثق بها، لأنها كانت عليمة أكثر منه بكثير في هذه الأجواء. كان يبدو له غريباً أن يشعر بالتقدير تجاه من هي بعمر أخته. وكان يسقط أحياناً في إغواء مقارنتها بسيسليا بارنس، ولكنه لم يجد منطلقاً يبدأ منه تلك المقارنة: لقد كانتا مختلفتين تماماً.

فسيسليا بارنس ستضيع في الغابة بقدر ما ستضيع نادیا سانتوس في المدينة. وسيسليا بارنس كبرت باكراً، حتى صارت وهي في الخامسة عشرة امرأة صغيرة، ولم يكن هو عاشقها الوحيد، فجميع صبيان المدرسة كانت لديهم التخيلات نفسها. أما ناديا بالمقابل، فما تزال طويلة ونحيلة مثل قصبة، دون تكورات أنثوية، مجرد عظم وجلد برونزي، كائن خنثى له لون الغابة. وعلى الرغم من مظهرها الطفولي، فإنها توحي بالاحترام، فهي تتمتع بالثقة بالنفس والكبرياء. وربما لأنها بلا أخوات أو صديقات في مثل سنها، تراها تتصرف كشخص بالغ، فهي جدية، صموت، مركزة ن ولا تتصرف تصرفات مزعجة من تلك التي تسلكها بنات أخريات وتضايق أليكس كثيراً. فهو يتضايق حين يرى البنات يتهامسن ويضحكن فيما بينهن، ويشعر بعدم الأمان، ويفكر في أنهن يسخرن منه. " نحن لا نتكلم طوال الوقت عنك يا ألكسندر كولد، فهناك موضوعات أخرى أكثر أهمية منك "، هذا ما قالته له في إحدى المرات سيسليا بارنس أمام كل تلاميذ الفصل. وفكر في أن ناديا لا يمكن أن تهينه بهذه الطريقة أبداً.

رجع التشامان العجوز بعد بضع ساعات، موفور النشاط والجدية كما هو على الدوام، ومعه عصوان مطليان براتينج مماثل لذاك الذي استخدمه

الهنود للصعود من جانبي الشلال. أعلن أنه وجد المدخل إلى جبل الآلهة، وبعد أن خبأ القوس والسهام، لأنه لا يمكنهم استخدامها، دعاهما أن يتبعاه.

عند أسفل سفح التيبوي تختزل الخضرة إلى نباتات سرخس هائلة، تنمو متشابكة مثل حقل قنب. كان عليهم التقدم بكثير من الحذر والبطء، وهم يزيحون الأوراق ويشقون طريقهم بصعوبة. فما إن توغلوا تحت تلك النباتات العملاقة، حتى اختفت السماء، وغرقوا في عالم نباتي، فتوقف الزمن وفقد الواقع أشكاله المعروفة. دخلوا في متاهة أوراق نابضة، وطل معطر بالمسك، وحشرات براقة، وأزهار ريانة تقطر شهداً أزرق كثيف القوام. صار الهواء ثقيلاً مثل أنفاس وحش ضار، وكان هناك أزيز متواصل، فالحجارة تتوقد مثل جمار، وللأرض لون الدم. أمسك ألكسندر بإحدى يديه كتف واليماي، وثبت ناديا بالأخرى، وقد أدرك أنهم إذا ما انفصلوا عن بعضهم بعضاً سنتمترات قليلة، فإن السرخس سيبتلعهم ولن يجد أحدهم الآخر. كان بوروبا يتشبث بجسد صاحبته، صامتاً ومتنبهاً. وكان عليهم أن ينزعوا عن عيونهم نسج عناكب حساسة مطرزة ببعوض وقطرات ندى تمتد كتخريمات ما بين الأوراق. وكانوا يكادون لا يستطيعون رؤية أقدامهم، فلم يتساءلوا عن تلك المادة الحمراء، اللزجة والدافئة التي يغوصون فيها حتى كواحلهم.

لم يستطع الفتى أن يتخيل كيف يتمكن التشامان من معرفة الطريق، ربما كانت تقوده زوجته الروح، لقد كان واثقاً في بعض الأحيان من أنهم يدورون في المكان نفسه، دون التقدم خطوة واحدة. لم تكن هناك نقاط علام، وإنما الخضرة النهمة وحدها تلفهم بعناقها اللامع. أراد استشارة بوصلته، ولكن الإبرة كانت تتذبذب مجنونة، مشددة انطباعه بأنهم يمشون في دوائر. وفجأة توقف واليماي، وأزاح ورقة سرخس لا تختلف في شيء عن سواها، فوجدوا أنفسهم أمام فتحة على سفح الجبل، كأنها وجار ثعلب.

دخل الساحر زاحفاً وتبعاه هما. كان ممراً ضيقاً طوله ثلاثة أو أربعة أمتار، يؤدي إلى مغارة رحبة، يضيئها بشحوب شعاع نور آت من الخارج، وفيها تمكنوا من الوقوف. بادر واليماي إلى فرك حجريه بصبر ليشعل ناراً، بينما كان أليكس يفكر في أنه لن يغادر بيته بعد اليوم قط دون أن

يكون معه ثقاب. وأخيراً أشعلت شرارة الحجرين نثرة قش، فاستخدمها واليماي لإشعال راتينج أحد مشعليه.

و على الضوء المتذبذب رأوا تطاير سحابة سوداء كثيفة من آلاف وآلاف الخفافيش. كانوا في كهف صخري، يحيط بهم الماء الذي ينز من الجوانب ويغطي الأرض كبركة قاتمة. وكانت هناك عدة أنفاق تخرج في اتجاهات مختلفة، بعضها أكثر اتساعاً من الأخرى، مشكلة متاهة تحت أرضية متشابكة. توجه الهندي دون تردد إلى أحد تلك السراديب، ومضى الصبيان في إثره يكادان يلامسان عقبيه.

تذكر أليكس خيط آريان الذي أتاح لثيسيوس، حسب الأسطورة الإغريقية، أن يعود من أعماق المتاهة، بعد أن قتل المينوتور المريع. أما هو فلم تكن معه لفافة خيوط لكي يعلم الطريق، وتساءل كيف سيتمكنان من الخروج من هناك إذا ما توفي واليماي. ولأن بوصلته كانت تتذبذب دون اتجاه محدد، فقد استنتج أنهم في مجال مغناطيسي. أراد أن يترك علامات على الصخر بسكينه، ولكن الصخر كان قاسياً كالغرانيت، ونحت أي علامة فيه يتطلب ساعات من الوقت. تقدموا من نفق إلى آخر، وكانوا يصعدون طوال الوقت داخل التيبوي، والشعلة المرتجلة هي دفاعهم الوحيد في مواجهة الظلمة المطلقة التي تحيط بهم. لم يكن يخيم في باطن الأرض صمت القبور، مثلما كان يتخيل، وإنما كان يسمع خفق أجنحة الخفافيش، وصئي الجرذان، وتراكض حيوانات صغيرة، ووقع قطرات ماء، وإيقاع ضربات صماء موزونة، إنها نبضات قلب، كما لو أنهم داخل كائن حي، حيوان هائل قابع يستريح. لم يتكلم أحد منهم، ولكن بوروبا كان يطلق صرخة فزعة فيعيد إليهم صدى المتاهة عندئذ الصوت متعدداً. تساءل الصبي عن المخلوقات التي تؤويها هذه الأعماق، ربما أفاع أو عقارب سامة، ولكنه صمم على عدم التفكير بأي واحد من هذه الاحتمالات والحفاظ على برودة أعصابه، مثلما هي حال ناديا التي كانت تمضي وراء واليماي ساكتة وواثقة.

وشيئاً فشيئاً لمحوا نهاية السرداب الطويل. رأوا ضوءاً أخضر خافتاً وعندما أطلوا وجدوا أنفسهم في مغارة كبيرة جداً يكاد يكون مستحيلاً وصف بهائها. كان يدخل من جهة ما ضوء كاف لإنارة فسحة واسعة، وكبيرة كأنها كنيسة، حيث تنتصب تشكيلات بديعة من الصخر

والفلزات المعدنية، تبدو وكأنها منحوتات. المتاهة التي خلفوها وراءهم كانت من الصخر القاتم، ولكنهم الآن في قاعة دائرية، مضاءة، تحت قبة كاتدرائية، محاطين ببلور وأحجار نفيسة. لقد كانت معارف أليكس عن الفلزات محدودة، ولكنه استطاع التعرف مع ذلك على أحجار ثمينة من الأوبال، والزبرجد، والعقيق، وقطع من الكوارتز، والمرمر، واليشب، والكهرمان. رأى بلوراً كأنه الماس، وأحجاراً أخرى حليبية، بعضها يبدو مضاء من الداخل، وغيرها فيه عروق خضراء وبنفسجية وحمراء، وكأنه مرصع بالزمرد، والجشمت، والياقوت الأحمر. نوازل شفافة تتدلى من السقف كأنها خناجر حديدية، وتقطر ماء كلسياً. والمفاجئ أن المكان يعبق بالرطوبة وبرائحة أزهار. فكان المزيج عبقاً زنخاً، زخماً، ونفاذاً، يبعث على الغثيان إلى حد ما، فهو مزيج من ريح عطر وقبر. كان الهواء بارداً صرصراً، مثلما يكون عادة في الشتاء، بعد هطل الثلج.

و فجأة رأوا شيئاً يتحرك في الطرف الآخر من المغارة، وبعد هنيهة انفصل عن صخرة بلورية زرقاء شيء يشبه طائراً غريباً، شيء يمكن القول إنه زاحف مجنح. فرد الحيوان جناحيه، متأهباً للطيران، ورآه أليكس عندئذ بوضوح: كان شبيهاً برسوم رآها لتنانين خرافية، إلا أنه بحجم بجعة كبيرة فقط، وجميل جداً. التنانين الرهيبة في الأساطير الأوربية، التي تتولى على الدوام حراسة كنز أو أميرة أسيرة، كانت قبيحة ومنفرة. أما هذا الموجود أمام عينيه، فهو مثل تلك التنانين التي رآها في احتفالات الحي الصيني في سان فرانسيسكو: إنه سعادة وحيوية خالصة. ومع ذلك، فقد فتح سكينه متعددة الاستخدامات واستعد للدفاع عن نفسه، ولكن واليماي أومأ له مطمئناً.

اجتازت امرأة التشامان المغارة طيراناً، متهادية مثل يعسوب، واستقرت بين جناحي الحيوان، ممتطية متنه. صرخ بوروبا مذعوراً وكشف عن أسنانه، ولكن ناديا أسكتته وهي مبهورة أمام التنين. وعندما تمكنت من استعادة ما يكفي من رشدها، بدأت تنادي بلغة الطيور والزواحف آملة في اجتذابه، ولكن الحيوان الخرافي تفحص الزائرين من بعيد بعينيه الحمراوين، وتجاهل نداء ناديا. ثم حلق طائراً، بأناقة وخفة، ليقوم بجولة واسعة في قبة المغارة، وزوجة واليماي على متنه، كما لو أنه يريد، بكل بساطة، أن يظهر خطوطه وحراشفه الفوسفورية. ثم عاد أخيراً ليتوقف على

صخرة البلور الزرقاء، حيث طوى جناحيه وربض ساكناً غير مبال مثل قط.

رجعت روح المرأة إلى حيث زوجها وبقيت طافية هناك، معلقة في الهواء. وفكر أليكس كيف سيتمكن فيما بعد من وصف ما تراه الآن عيناه، وكان مستعداً لتقديم أي شيء مقابل الحصول على آلة تصوير جدته لكي يبقي لديه دليلاً على أن هذا المكان وهذه الكائنات موجودة حقاً، وأنه لم يبحر في عاصفة هذياناته الخاصة.

غادروا الكهف المسحور والتنين المجنح بشيء من الأسف، دون أن يدروا إذا ما كانوا سيعودون لرؤيتهما. كان أليكس ما يزال يحاول العثور على تفسيرات عقلانية لما يحدث، أما ناديا بالمقابل، فكانت تتقبل الأعاجيب دون توجيه أسئلة. افترض الفتى أن تلك التبويات، المعزولة عن بقية الكوكب، هي آخر رموز العصر الحجري القديم، وفيها مازالت النباتات والحيوانات تحافظ على وجودها مثلما كانت عليه منذ آلاف وآلاف السنين. ربما هم في جزيرة من نوع جزر غالاباغو، أفلتت من أقدم أنواع التحولات ومن الانقراض. ولا بد أن ذلك التنين هو مجرد طائر مجهول. فهذه الكائنات تظهر في الحكايات الفلكلورية وفي أساطير مناطق مختلفة جداً. فقد وجد منها في الصين، حيث كانت رمزاً لحسن الطالع، وكذلك في بريطانيا، حيث تستخدم كدليل على شجاعة فرسان القديس جورج. وانتهى إلى التفكير في أنها قد تكون حيوانات عاشت مع الكائنات البشرية الأولى على الكوكب، وأن الشعوذة الشعبية تتذكرهم كزواحف عملاقة تقذف اللهب من أنوفها. لم تكن تصدر عن تنين الكهف ألسنة لهب، وإنما عطر مومسات نفاذ. ومع ذلك، لم يخطر له أي تفسير لحالة امرأة واليماي، تلك الحورية ذات المظهر البشري التي ترافقهم في رحلتهم العجيبة. لا بأس، ربما سيجد تفسيراً فيما بعد.

سارا في إثر واليماي عبر تسعة أنفاق، بينما كان ضوء الشعلة يخبو أكثر فأكثر. ومروا من عدة مغاور، ولكن أياً منها لم تكن بروعة المغارة الأولى، ورأوا مخلوقات غريبة أخرى: طيور ذات ريش أحمر وأربعة أجنحة، تنبح مثل الكلاب، وهررة بيضاء عمياء العيون، كانت على وشك أن تهاجمهم، ولكنها تراجعت عندما هدأتها ناديا بلسان السنوريات. وحين مروا في مغارة ممتلئة ماء، اضطروا إلى المشي في ماء يصل حتى أعناقهم، وبوربا محمول على رأس صاحبته، ورأوا أسماكاً مذهبة ذات أجنحة،

كانت تسبح بين أقدامهم ثم ما تلبث أن تحلق طائرة، وتختفي عن الأنظار في عتمة الأنفاق

وفي كهوف أخرى، تطلق سحباً كثيفة من الأرجوان، أشبه ببعض أوقات الغسق، تتحول إلى أشكال لا تفسير لها على الصخور الحية. حك واليماي إحدى تلك الصخور بحربته، فخرجت منها على الفور بعض الأذرع ذات المجسات اللحمية، وامتدت بحثاً عن طريدتها. وفي ركن من أحد السراديب رأوا، على ضوء الشعلة المتذبذب والمائل إلى البرتقالي، مشكاة في الحائط، وكان فيها ما يشبه طفلاً متحجراً يلفه الراتنج، مثل تلك الحشرات التي تبقى حبيسة في قطعة من العنبر. وتخيل أليكس أن هذا المخلوق محفوظ في قبره الكتيم منذ فجر الإنسانية، وسيبقى على تلك الحال في المكان نفسه إلى آلاف وآلاف السنين. كيف وصل إلى هناك؟ كيف مات؟

وأخيراً وصلت الجماعة إلى المقطع الأخير من تلك المتاهة الهائلة. وأطل أفرادها على فسحة مفتوحة، فبهرتهم على الفور دفقة نور أبيض. وعندئذ رأوا أنهم في ما يشبه الشرفة.. بروز في الصخر داخل جبل أجوف، كأنه فتحة بركان. فالمتاهة التي اجتازوها تتوغل إلى أعماق التيبوي، لتصل بين الخارج والعالم الخرافي الحبيس في داخلها. أدركوا أنهم قد صعدوا أمتاراً كثيرة عبر الأنفاق. كانت تمتد إلى أعلى السفوح الشاقولية للجبل، تغطيها النباتات، لتختفي قمته بين السحب. لم تكن تظهر السماء، وإنما سقف كثيف وأبيض فقط، كأنه القطن، ينفذ من خلاله ضوء الشمس مولداً ظاهرة بصرية غريبة: فهناك ستة أقمار شفافة تطفو في قبة حليبية. إنها الأقمار التي رآها أليكس في رؤاه. وكانت تحلق في الهواء طيور لم يعرفوا لها مثيلاً من قبل، بعضها شبه شفافة وخفيفة مثل التنين الذي رأوه في المغارة.

وبعد عدة أمتار إلى أسفل، هناك واد كبير مدور، يبدو من الارتفاع الذي هم فيه مثل حديقة خضراء وزرقاء يلفها البخار. وكانت هناك شلالات، وخيوط ماء، وجداول تنساب منزلقة على السفوح لتغذي بحيرات الوادي، وهي شديدة الانتظام والدقة إلى حد لا تبدو معه أنها طبيعية. وفي الوسط، كانت " إلدورادو " تنتصب بكبرياء، متلألئة مثل تاج. كتم أليكس وناديا صرخة إعجاب وقد بهرهم بريق مدينة الذهب الذي لا يصدق، مقر الآلهة.

أتاح واليماي للصديقين الوقت الكافي ليتمالكا نفسيهما من المفاجأة، ثم أشار بعد ذلك إلى أدراج منحوتة في الجبل، تنزل متعرجة وملتفة من البروز الصخري الذي هم فيه إلى الوادي. وبينما هم ينزلون انتبهوا إلى أن النباتات هناك استثنائية وغريبة مثلما هي الحيوانات التي لمحوها، فنباتات وأزهار وشجيرات السفوح فريدة من نوعها. وكلما نزل أكثر كان الحر والرطوبة يتزايدان، وتصبح النباتات أشد كثافة ووفرة، والأشجار أكثر ارتفاعاً وتشابكاً، والزهور أقوى عبقاً، والثمار أكثر رحيقاً. وعلى الرغم من جمال المكان البديع، فإن الانطباع الذي يخلفه في النفس لا يدعو إلى الطمأنينة، وإنما إلى توعد غامض، كما لو أنه قطعة من كوكب الزهرة. كانت الطبيعة تنبض، تلهث، تنمو أمام أعينهم، تترصد. رأوا ذبابات صفراء شفافة كأنها الياقوت، وجداجد زرقاء ذات قرون وحلزونات كبيرة ومتعددة الألوان تبدو عن بعد كأنها الأزهار، وحراذين غريبة مخططة، وقوارض ذات أنياب حادة معقوفة، وسناجب بلا وبر تتقافز بين الأغصان مثل عفاريت صغيرة عارية.

ولدى بلوغ الوادي والاقتراب من إلدورادو، أدرك المسافرون أنها ليست مدينة، وأنها ليست من الذهب كذلك. وإنما هي مجموعة من التشكيلات الهندسية الطبيعية، مثل البلور الذي رأوه في الكهوف. أما اللون الذهبي فمصدره الميكا، وهو معدن رخيص لا قيمة له، والبوريتس الذي يسمى بحق " ذهب المجانين ". رسم أليكس ابتسامة وهو يفكر في أنه لو قيض للفاتحين الإسبان وغيرهم من المغامرين الكثيرين، أن يتغلبوا على عوائق الطريق الهائلة ويصلوا إلى إلدورادو، فإنهم كانوا سيرجعون أفقر حالاً مما كانوا عليه لدى وصولهم.

- 14 -

الوحوش

بعد بضع دقائق رأى أليكس وناديا الوحش. كان على مسافة نصف كوادرا منهما، متوجهاً نحو المدينة. بدا أشبه برجل– قرد عملاق، طول قامته يزيد على الثلاثة أمتار، ينتصب على قائمتين، وله ذراعان قويتان تتدليان حتى الأرض، ورأس كئيب الوجه، وصغير جداً بالنسبة لحجم الجسد الذي يكسوه شعر منفوش كأنه الأسلاك، ورأيا أن له في كل يد ثلاثة مخالب طويلة حادة، كأنها سكاكين محدبة. كان يتحرك ببطء غير معقول، يبدو معه وكأنه لا يتحرك مطلقاً. تعرفت ناديا على الوحش فوراً، لأنها رأته من قبل. شلهما الرعب والمفاجأة، ووقفا متجمدين يتأملان ذلك المخلوق. لقد ذكرهما بحيوان معروف، ولكنهما لا يستطيعان تحديده في الذاكرة.

- يبدو أشبه بالبليد - قالت ناديا أخيراً بصوت هامس.

و عندئذ تذكر أليكس أنه رأى في حديقة حيوان سان فرانسيسكو حيواناً يشبه القرد أو الدب، يعيش على الأشجار ويتحرك بالبطء نفسه الذي يتحرك به الوحش، ومن هنا جاء اسمه" الكسول " أو " البليد ". وهو حيوان أعزل، لأنه يفتقر إلى السرعة في الانقضاض، أو الهرب، أو الدفاع عن نفسه، ولكنه يملك القليل من وسائل الحماية: جلده السميك، ولحمه حريف المذاق الذي لا يشكل وجبة مرغوبة حتى لأشد الحيوانات اللاحمة جوعاً.

قالت ناديا دون أن ترفع صوتها:

- والرائحة؟ الوحش الذي رأيته تنبعث منه رائحة مرعبة.

- هذا الوحش ليس نتناً، أو إننا لا نستطيع شم نتانته من هنا - علق أليكس، ثم أضاف: - لا بد أن لديه غدة مثل الظربان، وهو يفرز الرائحة بإرادته، للدفاع عن نفسه أو لشل ضحيته.

بلغت همسات الصبيين مسامع الوحش الذي التفت ببطء شديد ليرى ما هناك. تراجع أليكس ناديا، ولكن واليماي تقدم بتمهل، كما لو أنه يحاكي تثاقل المخلوق المذهل، تلحق به زوجته الروح على بعد خطوة منه. كان التشامان رجلاً ضئيلاً لا يصل إلى مستوى ورك الوحش الذي ينتصب مثل برج في مواجهة الرجل العجوز. خرّ هو وزوجته راكعين على الأرض بخشوع أمام ذلك الكائن الاستثنائي، وعندئذ سمع الصبيان بوضوح صوتاً عميقاً وكهفياً ينطق بضع كلمات بلغة شعب الضباب.

- إنه يتكلم ككائن بشري! - همس أليكس مقتنعاً بأنه يحلم.

- لقد كان الأب بالدوميرم على حق إذن يا جغوار.

- هذا يعني أنه يمتلك ذكاء إنسانياً. هل تظنين أنك قادرة على التواصل معه؟

فهمست ناديا :

- مادام واليماي قادراً على ذلك فإنني قادرة أيضاً، ولكنني لا أجرؤ على الاقتراب منه.

انتظرا لوقت لا بأس به، لأن الكلمات كانت تخرج من فم ذلك المخلوق كلمة كلمة، بالتمهل نفسه الذي يتحرك به.

و ترجمت ناديا :

- إنه يسأل من نكون.

- لقد فهمت هذا. إنني أفهم كل ما يقولانه تقريباً... - دمدم أليكس متقدماً خطوة. فأوقفه واليماي بإيماءة منه.

تواصل الحوار بين التشامان والوحش بالبطء الباعث على الغم نفسه، دون أن يتحرك أحد، بينما كان الضوء يتبدل في السماء البيضاء، متحولاً إلى اللون البرتقالي. توقع الصبيان أن تكون الشمس قد بدأت بالغروب خارج فوهة البركان هذه. وأخيراً نهض واليماي وتراجع إلى حيث هما. وأعلن:

- سيعقد مجلس الآلهة.

- ماذا؟ هل هناك المزيد من هذه الكائنات؟ كم عددها؟ - سأله أليكس، ولكن واليماي لم يستطع توضيح شكوك الفتى، لأنه لا يعرف العد.

اقتادهما الساحر بمحاذاة الوادي، داخل التيبوي، إلى مغارة طبيعية

صغيرة في الصخر، حيث يمكنهما الاستراحة قدر ما تسمح به الحال، ثم مضى بحثاً عن طعام. وقد رجع فيما بعد وهو يحمل ثماراً عطرة جداً، لم يكن أي منهما قد رآها من قبل، ولكنهما كانا جائعين جداً، فالتهماها دون توجيه أية استفسارات. وفجأة حل الليل، ووجدوا أنفسهم محاطين بأشد الظلمات قتامة؛ فمدينة الذهب المزيف التي كانت تبهرهم ببريقها قبل قليل، اختفت في الظلال. لم يحاول واليماي إشعال شعلته الثانية، فهو يحتفظ بها بكل تأكيد من أجل طريق العودة عبر المتاهة، ولم يكن هناك نور في أي مكان. استنتج أليكس أن تلك الكائنات، بالرغم من كونها بشرية في لغتها وربما في بعض الأمور الأخرى، إلا أنها أكثر بدائية من إنسان الكهوف، لأنها لم تكتشف النار بعد. وإذا ما قورن الهنود بتلك الوحوش، فإنهم سيبدون أكثر تقدماً منها. فلماذا إذن يعتبرها أناس الضباب آلهة، ما داموا هم أكثر تطوراً منها؟

لم تخف حدة الحر والرطوبة، لأنها كانت تفوح من الجبل نفسه، كما لو أنهم موجودون فعلاً في فتحة بركان خامد. وفكرة وجودهم فوق قشرة رقيقة من التراب والصخر، يتأجج تحتها لهب الجحيم، لم تكن بالفكرة المطمئنة، ولكن أليكس استنتج أنه إذا كان البركان خامداً منذ آلاف السنين، مثلما تثبت ذلك الخضرة الكثيفة في الداخل، فإن انفجاره في ليلة زيارته المكان بالضبط سيكون سوء طالع كبير. مضت الساعات التالية ببطء شديد. ولم يتمكن الصديقان من النوم تقريباً في ذلك المكان المجهول. فقد كانا يتذكران تماماً مشهد الجندي القتيل. لا بد أن الوحش قد استخدم مخالبه الضخمة لتمزيق أحشاء الجندي بتلك الطريقة المرعبة. لماذا لم يهرب الرجل أو يطلق النار من سلاحه؟ فتثاقل الوحش يمنحه فائضاً من الوقت لعمل ذلك. التفسير الوحيد الممكن هو النتانة التي تفوح منه وتسبب الشلل. ليست هناك طريقة للحماية إذا ما قررت هذه المخلوقات استخدام غدد رائحتها ضدهما. فلن تكون تغطية الأنف كافية، لأن رائحة النتانة تتسرب عبر كل مسام في الجسد، وتسيطر على العقل والإرادة؛ إنها سم فتاك مثل سم الكوراري.

- هل هم حيوانات أم بشر؟ - سأل أليكس، ولكن واليماي لم يستطع الإجابة أيضاً لأنه ليس ثمة فرق بين الحيوانات والبشر في نظره.

- من أين يأتون؟

- إنهم هنا منذ الأزل، فهم آلهة.

تصور أليكس أن جوف التيبوي هو أرشيف إيكولوجي تحيا فيه أنواع كائنات منقرضة من بقية أنحاء الأرض. وقال لناديا أنهم أسلاف "البليد" الذي يعرفانه. ثم أضاف :

- إنهم لا يبدون بشراً يا نسر. فنحن لم نر بيوتاً، ولا أدوات أو أسلحة، ولا أي شيء يوحي بوجود مجتمع.

فقالت هي :

- ولكنهم يتكلمون كالبشر يا جغوار.

و غامر أليكس بالقول :

- لا بد أنها حيوانات ذات استقلاب بطيء جداً، وهي تعيش مئات السنين بكل تأكيد. فإذا كانت لها ذاكرة، فإنها تستطيع تعلم الكثير في هذه الحياة الطويلة، بما في ذلك التكلم، ألا تظنين ذلك؟

- إنهم يتكلمون لغة شعب الضباب. فمن هو الذي اخترع هذه اللغة، هل الهنود علموها للوحوش؟ أم الوحوش هم الذين علموها للهنود؟

فقال أليكس: أنا أرى على أي حال أنه كان هناك خلال قرون من الزمان، بين الهنود وهذه المخلوقات، نوع من العلاقة التكافلية.

- ماذا؟ سألته ناديا التي لم تسمع هذه الكلمة من قبل قط.

- هذا يعني أن كلاً منهما كان بحاجة إلى الآخر ليواصل الحياة.

- لماذا؟

فقال أليكس :

- لا أدري، ولكنني سأتقصى ذلك. لقد قرأت في أحد الأيام أن الآلهة بحاجة إلى البشر مثلما يحتاج البشر إلى آلهتهم.

- لا بد أن مجلس الوحوش سيكون طويلاً جداً ومملاً. من الأفضل لنا أن نخلد إلى الراحة قليلاً الآن، لنكون نشيطين في الغد - اقترحت ناديا ذلك وهي تستعد للنوم. وكان عليها أن تبعد بوروبا عنها وتجبره على الاستلقاء بعيداً، لأنها لم تعد تتحمل الحر. لقد كان القرد أشبه بامتداد لكيانها، وقد اعتاد كلاهما على تلامس جسديهما إلى حد أنهما يشعران بأن أي انفصال بينهما، مهما قصر، هو إرهاص بالموت.

استيقظت الحياة مع بزوغ الفجر في مدينة الذهب، وأضيء وادي الآلهة بكل تدرجات الأحمر، والبرتقالي، والوردي. ولكن الوحوش تأخرت مع

ذلك عدة ساعات في الاستيقاظ، والخروج واحداً فواحداً من أوكارها بين تشكيلات الصخر والبلور. أحصى أليكس وناديا أحد عشر مخلوقاً، ثلاثة ذكور وثماني إناث، بعضها أطول قامة من بعض، ولكنها جميعها كبيرة السن. لم يريا صغاراً من ذلك النوع الفريد وتساءلا كيف تتكاثر. فقال واليماي إنه نادراً ما يولد واحد منها، وإن ذلك لم يحدث قط خلال سنوات حياته، وأضاف إن أي منها لم يمت كذلك خلال هذا الوقت، مع أنه يعرف عن مغارة في المتاهة ترقد فيها هياكلهم العظيمة. واستنتج أليكس أن هذا الكلام يتفق مع نظريته في أنهم يعيشون قروناً، وتصور أن هذه الثدييات تنجب مولوداً أو اثنين خلال حياتها؛ ولهذا فإن حضور ولادة واحد منها هو حدث نادر جداً. ولدى مراقبته المخلوقات عن قرب، أدرك أنها غير قادرة على الصيد، بسبب محدودية حركتها، ولا يمكن لها إلا أن تكون نباتية. أما مخالبها الرهيبة فليست وسيلة للقتل، وإنما للتسلق. وهكذا وجد تفسيراً لقدرتها على النزول والصعود عبر الطريق الشاقولي الذي تسلقه هو نفسه عند الشلال. وتستخدم المخلوقات البليدة فجوات وبروزات الصخر نفسها التي يستخدمها الهنود في الصعود. كم يوجد منها في الخارج؟ واحد أم أكثر؟ كم يحب لو أنه يستطيع أن يأخذ معه عند الرجوع أدلة على أنه قد رآها!

بعد ساعات طويلة من ذلك بدأ المجلس. اجتمعت الوحوش في نصف دائرة في منتصف مدينة الذهب، وجلس واليماي والصديقان قبالتها. رأيا نفسيهما ضئيلين أمام أولئك العمالقة. وخيل إليهما أنهما يريان أجساد المخلوقات تتذبذب، وأن خطوط هيئتها الخارجية مبهمة، ثم أدركا بعد ذلك أن هناك شعوباً كاملة من حشرات مختلفة الأنواع تعشش في جلودها المئوية، وقد كانت بعض تلك الحشرات تتطاير من حولها مثل ذباب الفاكهة. فيولد بخار الهواء الوهم بأن هناك سحابة تحيط بالوحوش. كانا على بعد أمتار قليلة منها، على مسافة كافية لأن يرياها بالتفصيل، ولكنها كافية أيضاً للهرب عند الضرورة، بالرغم من أن كليهما يعرف أنه إذا ما قرر أي واحد من أولئك العمالقة الأحد عشر إطلاق الرائحة، فلن تكون هناك سلطة في العالم قادرة على إنقاذهما. وكان واليماي يتصرف بكثير من الوقار والاحترام، ولكنه لا يبدو خائفاً.

- هذان هما نسر وجغوار، إنهما غريبان صديقان لشعب الضباب. جاءا

لتلقي تعليمات - قال واليماي العجوز.

تلا هذه المقدمة صمت أبدي، كما لو أن الكلمات تتأخر كثيراً لتبلغ أدمغة تلك الكائنات. ثم رتل واليماي بعد ذلك قصيدة طويلة مقدماً فيها أخبار القبيلة، ابتداء من الولادات الأخيرة وحتى موت الزعيم موكاريتا، بما في ذلك الرؤى حول ظهور راهاكاناريوا الوشيك، والزيارة إلى الأراضي الواطئة، ومجيء الغرباء، واختيار إيومي زعيمة للزعماء. بدأ يدور حوار شديد البطء بين الساحر والمخلوقات، وقد فهمه أليكس وناديا دون صعوبة، لأنه كان هناك متسع من الوقت للتأمل والتشاور بعد كل كلمة. وهكذا علما أن شعب الضباب يعرف منذ قرون وقرون موضع مدينة الذهب وأنه حفظ السر بحرص، حامياً بذلك الآلهة من العالم الخارجي، بينما تحفظ هذه الكائنات بدورها كل كلمة من تاريخ القبيلة. لقد كانت هناك أزمنة كوارث كبيرة، تعرض خلالها الوسط الإيكولوجي في التيبوي لتقلبات خطيرة ولم تعد الخضرة تكفي لإشباع حاجات الأنواع التي تعيش داخله. فكان الهنود في تلك الأوقات يحضرون " قرابين ": ذرة، بطاطا، منديوكا، ثمار، جوز. ويضعون تقدماتهم على مقربة من التيبوي، دون أن يتوغلوا عبر المتاهة السرية، ويبعثون الرسول ليخبر الآلهة. وكانت التقدمات تتضمن كذلك البيض، والأسماك، والحيوانات التي يصطادها الهنود؛ ومع مرور الأزمنة تبدل نظام الوحوش الغذائي.

وفكر ألكسندر كولد في أنه إذا ما احتاجت هذه المخلوقات القديمة ذات الذكاء البطيء، إلى ألوهية، فإن آلهتها سيكونون بكل تأكيد هم هنود تابيراوا - تيري غير المرئيين، فهم الكائنات البشرية الوحيدة التي يعرفونها. والهنود في نظر تلك المخلوقات كائنات سحرية، تتحرك بسرعة، ويمكنها التكاثر بسهولة، وتملك أسلحة وأدوات، وهي سيدة النار والعالم الخارجي الفسيح، وكلية القدرة. ولكن المخلوقات البليدة العملاقة لم تكن قد وصلت إلى مرحلة من التطور تسمح لها بالتأمل في أمر موتها، وهي لم تكن بالتالي بحاجة إلى آلهة. فحيواتها المديدة جداً تمضي في الميدان المادي المحض.

لقد كانت ذاكرة الوحوش تضم كل المعلومات التي لقنهم إياها رسل البشر: إنهم أرشيف حي. ومع أن الهنود لا يعرفون الكتابة، إلا أن تاريخهم لا يضيع، لأن " البليدين " لا ينسون شيئاً. ولو جرى استجوابهم بأناة وبما

يكفي من الوقت، فسيكون بالإمكان الحصول منهم على ماضي القبيلة منذ عصرها الأول، قبل عشرين ألف سنة. فالتشامانات من أمثال واليماي يزورون الوحوش لإبقائها على اطلاع على ما يجري من خلال القصائد الملحمية التي يرتلونها عن التاريخ الماضي والحالي للقبيلة. ويموت الرسل ويتم استبدالهم بآخرين، ولكن كل كلمة من تلك القصائد تبقى مخزونة في أدمغة الوحوش.

لم يحدث أن توغلت القبيلة إلى أعماق التيبوي سوى مرتين منذ بدء التاريخ، وقد فعل الهنود ذلك في المرتين هرباً من أعداء جبارين. المرة الأولى جرت قبل أربعمئة سنة، عندما اضطر شعب الضباب إلى الاختباء عدة أسابيع هرباً من شرذمة جنود إسبانيين تمكنوا من الوصول إلى " عين الدنيا ". وعندما رأى محاربو القبيلة أن أولئك الأغراب قادرون على القتل عن بعد بعصي تصدر الدخان والدوي، دون أي جهد، أدركوا أن أسلحتهم ليست مجدية في مواجهة الغرباء. ففككوا أكواخهم، وطمروا ممتلكاتهم القليلة، وغطوا بقايا القرية بالتراب والأغصان، ومحوا آثارهم، وانسحبوا مع نسائهم وأطفالهم إلى التيبوي المقدس. ودخلوا هناك في كنف الآلهة وحمايتها إلى أن مات الغرباء واحداً بعد الآخر. فقد جاء أولئك الجنود بحثاً عن إلدورادو، يعميهم الجشع، وانتهى بهم الأمر إلى قتل بعضهم بعضاً. أما من بقي منهم على قيد الحياة فتكفل الوحوش والمحاربون المحليون في القضاء عليهم. لم ينج إلا واحد منهم فقط، وتمكن بطريقة ما اللقاء ثانية بمواطنيه. فأمضى بقية حياته مجنوناً، مقيداً إلى عمود في ملجأ نافاراً، مثرثراً بإسهاب عن عمالقة أسطوريين وعن مدينة من الذهب الخالص. وقد حُفظت الأسطورة في صفحات كتب مؤرخي الإمبراطورية الإسبانية، مغذية مخيلة المغامرين حتى يومنا هذا. أما المرة الثانية فكانت منذ ثلاث سنوات، عندما حطت طيور الضجيج والريح التي جاء بها الناهاب في "عين الدنيا". فاختبأ أناس الضباب من جديد إلى أن انصرف الغرباء خائبي الأمل، لأنهم لم يجدوا المناجم التي جاؤوا للبحث عنها. ومع ذلك، فإن الهنود الذين حذرتهم رؤى واليماي، يستعدون لعودة أولئك الأغراب. ففي هذه المرة لن ينتظروا أربعمئة سنة قبل أن يغامر الناهاب في المجيء مرة أخرى إلى النجد، لأن الغرباء صاروا قادرين على الطيران الآن. ولهذا قرر الوحوش الخروج لقتلهم، دون أن يخطر ببالهم أن هناك ملايين وملايين منهم. فهم المعتادون

على عدد جنسهم المحدود، ظنوا أنهم قادرون على إبادة الأعداء واحداً فواحداً.

استمع أليكس وناديا إلى الوحوش وهم يروون قصتهم، وراحوا يستخلصون نتائج كثيرة. وأشار أليكس مذهولاً :

- لهذا السبب لم يكن هناك ضحايا هنود، وإنما غرباء فقط.

فذكرته ناديا :

- وماذا عن الأب بالدوميرو؟

- لقد عاش الأب بالدوميرو مع الهنود. ومن المؤكد أن الوحش تعرف على الرائحة، ولم يهاجمه.

- وأنا؟ فهو لم يهاجمني أيضاً في تلك الليلة... - أضافت ناديا.

- لقد كنا برفقة الهنود. ولو أن الوحش رآنا ونحن مع الحملة، لكنا متنا كما الجندي.

فاستنتجت ناديا:

- إذا ما كنت أفهم بصورة صحيحة، فإن الوحوش قد خرجت لمعاقبة الغرباء.

- بالضبط، ولكنهم حصلوا على نتائج معاكسة. فأنت ترين ما الذي حدث: لقد لفتوا الانتباه إلى الهنود وإلى "عين الدنيا". وما كنت أنا لأتواجد هنا لو لم تتعاقد جدتي مع مجلة لاكتشاف الوحش.

حل المساء، ثم جاء الليل، دون أن يتوصل المشاركون في المجلس إلى اتفاق. سأل أليكس عن عدد الوحوش الذين خرجوا من الجبل، وقال واليماي إنهما اثنين، ولكن هذا الرقم لم يكن موثوقاً، إذ يمكن لهم أن يكونوا ستة. وتمكن الفتى من أن يوضح للوحوش بأن الأمل الوحيد في نجاتهم هو في بقائهم داخل التيبوي، أما خلاص الهنود فيكون في الاتصال بالحضارة بصورة منضبطة. وقال إن الاتصال أمر لا يمكن تجنبه، فطائرات الهليوكبتر ستحط من جديد، عاجلاً أو آجلاً، في " عين الدنيا "، وسيأتي الناهاب في هذه المرة ليبقوا. وقال إن هناك من الناهاب من يرغبون في تدمير شعب الضباب والاستيلاء على " عين الدنيا ". كان من الصعب توضيح هذه النقطة، لأن أحداً من الوحوش أو واليماي لم يفهم كيف يمكن لأحد الاستيلاء على الأرض. وقال أليكس إن هناك ناهاب آخرين يرغبون في إنقاذ الهنود، وإنهم مستعدون بكل تأكيد لعمل أي شيء من

أجل إنقاذ الآلهة أيضاً، لأنهم آخر أبناء جنسهم على الكوكب. وذكر التشامان بأن إيومي قد عينته زعيماً للتفاوض مع الناهاب، وطلب الإذن والمساعدة من أجل إنجاز مهمته. فقال واليماي:

- لا نظن بأن الناهاب سيكونون أقوى من الآلهة.

- بل هم كذلك أحياناً. والآلهة لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم في مواجهتهم، كما لن يستطيع ذلك شعب الضباب. ولكن الناهاب قادرون على إيقاف ناهاب آخرين - أوضح لهم أليكس.

فقال واليماي :

- لقد بدا الراهاكاناريوا في رؤياي متعطشاً للدم.

فقالت ناديا:

- أنا عُينت زعيمة لتهدئة الراهاكاناريوا.

و وعدهم أليكس وهو يحاول أن يبدو مقنعاً:

- يجب ألا يقع مزيد من الحروب. لا بد للآلهة من أن يعودوا إلى الجبل. وسنتوصل أنا وناديا إلى تأمين احترام الناهاب لشعب الضباب ولمقر الآلهة.

والحقيقة أنه لم يكن يعرف كيف سيتمكن من هزيمة ماورو كاريّاس، والنقيب آريوستو وغيرهما من المغامرين الطامعين بثروات المنطقة. بل إنه لم يكن يعرف ما هي خطة ماورو كاريّاس ولا الدور الذي سيلعبه أعضاء بعثة الانترناشيونال جيوغرافيك في إبادة الهنود. لقد قال رجل الأعمال بوضوح إنهم سيكونون شهوداً، ولكن أليكس لم يكن قادراً على تصور الأمر الذي سيكونون شهوداً عليه.

فكر الفتى بينه وبين نفسه في أنه ستكون هناك هزة عالمية عندما تنشر جدته معلومات عن وجود الوحوش وعن الفردوس البيئي الذي يضمه التيبوي. وبشيء من الحظ، مع توجيه الصحافة بمهارة، يمكن لكاتي كولد أن تدفع نحو التوصل إلى إعلان " عين الدنيا " محمية طبيعية، تؤمن الحكومات لها الحماية. ومع ذلك، يمكن لهذا الحل أن يأتي متأخراً. فإذا ما نجح ماورو كاريّاس في تحقيق هدفه " فسوف تتم إبادة الهنود في ثلاثة أشهر "، كما قال في محادثته مع النقيب آريوستو. والأمل الوحيد هو في وصول الحماية الدولية قبل ذلك. ومع أنه لن يكون ممكناً تجنب فضول العلماء ولا كاميرات التلفزيون، إلا أنه يمكن على الأقل وقف غزو المغامرين والمستوطنين المستعدين لترويض الأدغال وإبادة ساكنيها. كما

خطر في ذهنه الهاجس الرهيب المسبق بأن يعمد رجال الأعمال في هوليود إلى تحويل التيبوي إلى نوع من " الديزنيلاند " أو "الجيوراسيك بارك".. وتمنى أن يتمكن الضغط الذي ستولده مقالات جدته من تأخير هذا الكابوس أو تفاديه.

كان الوحوش يشغلون قاعات مختلفة في تلك المدينة الأسطورية. فهم كائنات متوحدة، لا تتقاسم المكان نفسه. وهم، على الرغم من ضخامة حجومهم، يأكلون قليلاً، يمضغون طوال ساعات الخضروات، والفواكه، والجذور، وبين حين وآخر يأكلون حيواناً صغيراً يسقط ميتاً أو جريحاً عند أقدامهم. تمكنت ناديا من التواصل معهم خيراً من واليماي. فقد أبدت اثنتان من إناث تلك المخلوقات شيئاً من الاهتمام بها وسمحتا لها بالاقتراب، لأن أكثر ما كانت تتمناه الفتاة هو لمسهما. حين وضعت يدها على الفراء القاسي، صعدت على ذراعها مئات الحشرات من مختلف الأنواع، وغطته بالكامل. فهزت ذراعها بيأس، ولكنها لم تستطع التخلص من أعداد كبيرة من تلك الحشرات التي بقيت ملتصقة بملابسها وشعرها. أشار لها واليماي إلى إحدى بحيرات المدينة، فغطست في الماء، وتبين لها أنه دافئ وغازي. فقد أحست لدى نزولها بمداعبة فقاعات الهواء لبشرتها. دعت أليكس للسباحة معها، وبقي الاثنان في الماء طويلاً، فاستعادا النظافة أخيراً، بعد كل تلك الأيام من الزحف على الأرض والتعرق.

و في أثناء ذلك كان واليماي قد هرس في قرعة مجوفة لب ثمرة ذات بذور سوداء، وخلطها على الفور بعصير أعناب زرقاء براقة. فكانت الحصيلة معجوناً بنفسجياً له قوام حساء العظام الذي شربا منه في مأتم موكاريتا، ولكن طعمه لذيذ ويفوح منه بقوة شذى العسل ورحيق الأزهار. قدمه التشامان إلى الوحوش، ثم شرب هو والصديقان وبوروبا منه، فأخمد ذلك الغذاء المركز جوعهما وأحسا بشيء من النشوة، كما لو أنه يتضمن كحولاً.

استقرا في الليل في إحدى قاعات مدينة الذهب، حيث كان الحر أقل وطأة مما هو عليه في مغارة الليلة السابقة. كانت تنمو بين تشكيلات الصخور المنجمية أزهار أوركيدا غير معروفة في الخارج، بعضها يعبق برائحة نفاذة يكاد يستحيل التنفس قريباً منها. هطل المطر لوقت طويل، ساخناً وكثيفاً كماء الدش، وبلل كل شيء وهو يجري كالنهر بين

شقوق البلور، بدوي طبول لجوج. وعندما توقف الهطل في النهاية، برد الجو فجأة، فاستسلم الصبيان للنوم أخيراً على أرض إلدورادو القاسية، يراودهما إحساس بأن بطنيهما ممتلئان بأزهار عطرة.

المشروب الذي أعده واليماي كانت له الميزة السحرية في اقتيادهما إلى مملكة الأساطير والأحلام الجماعية، حيث يمكن للجميع، آلهة وبشراً، تقاسم الرؤى نفسها. وهكذا وفروا على أنفسهم الكثير من الكلام، والكثير من الشروحات. فقد حلموا جميعهم بأن الراهاكاناريوا محبوس في صندوق خشبي مختوم، وأنه يحاول يائساً التحرر من الصندوق مستعيناً بمنقاره القوي ومخالبه الرهيبة، بينما الآلهة والبشر مقيدين إلى الأشجار، ينتظرون مصيرهم. حلموا بالناهاب يقتتلون فيما بينهم ويقتل أحدهم الآخر، ووجوههم جميعهم مغطاة بأقنعة. رأوا الطائر آكل اللحم البشري يحطم الصندوق ويخرج متأهباً لالتهام كل من يعترض طريقه، متحدياً إياه في صراع حتى الموت. ولم تكن هناك نتيجة نهائية لهذه المبارزة، كما هي الحال عادة في الأحلام، باستثناء حالات نادرة. تعرف ألكسندر كولد على راهاكاناريوا، لأنه رآه في كابوس من قبل، بهيئة طير رخمة يكسر نافذة في بيته، ويحمل أمه بمخالبه المريعة.

وعندما استيقظ الجميع في الصباح، لم يكن عليهم أن يرووا ما رأوه، فقد كانوا جميعهم حاضرين في الحلم نفسه، بما في ذلك القرد الصغير بوروبا. وحين اجتمع مجلس الآلهة لكي يواصل مداولاته، لم تكن ثمة حاجة إلى قضاء ساعات في تكرار الأفكار نفسها، كما في اليوم السابق. فقد يعرفون ما عليهم عمله، كل واحد منهم يعرف دوره في الأحداث الآتية.

- جغوار ونسر سيصارعان راهاكاناريوا. ماذا ستكون مكافأتهما إذا انتصرا عليه؟ - تمكنت واحدة من الكائنات البليدة صياغة العبارة، بعد تلعثم طويل.

فقالت ناديا دون تردد:

- بيوض العش الثلاث.

- وماء الصحة - أضاف أليكس وهو يفكر في أمه.

أشار واليماي المذعور إلى الصبيين بأنهما قد خرقا القاعدة الأساسية للتعامل بالمثل: إذ لا يمكن الأخذ دون العطاء إنه القانون الطبيعي. لقد تجرأا على طلب شيء من الآلهة دون أن يقدما شيئاً بالمقابل.. فقد كان

سؤال الوحش مجرد شكليات محضة، والتصرف الصحيح هو الإجابة بأنهما لا يرغبان في أية مكافأة، وإنهما إنما يفعلان ما سيفعلانه توقيراً للآلهة ورحمة بالبشر. وبالفعل، بدا على الوحوش الحيرة والاستياء حيال رغبات الغريبين. فنهض بعضهم واقفاً ببطء، وبتوعد، وراحوا يزمجرون وهم يرفعون أذرعهم الثخينة مثل فروع شجرة بلوط. ألقى واليماي بنفسه على وجهه أمام المجلس، متلعثماً بشروحات واعتذارات، ولكنه لم يستطع تهدئة الخواطر. فخشي أليكس أن يعمد أحد الوحوش إلى صعقهم برائحة الجسدية، فمد يده إلى وسيلة الخلاص الوحيدة التي خطرت له: ناي جده. وقال مرتجفاً:

- لدي تقدمة إلى الآلهة.

انطلقت ألحان الآلة العذبة بصورة تجريبية في هواء التيبوي الساخن. تأخر الوحوش، الذين استولت عليهم المفاجأة، بضع دقائق قبل الإتيان بأي رد فعل، وعندما توصلوا إلى ذلك كان أليكس قد بدأ يحلق في العزف وأسلم نفسه لمتعة إبداع موسيقى. بدا كما لو أن نايه قد اكتسب قدرات واليماي الخارقة. كانت الأنغام تتعاظم متكاثرة في مسرح مدينة الذهب العجيب، تطفر متحولة إلى إيقاعات غير متناهية، فتهز أزهار الأوركيدا بين تشكيلات البلور العالية. لم يعزف الفتى بمثل هذه الروعة من قبل، ولم يشعر قط كذلك بأن له كل هذه السلطة: إنه قادر على ترويض الوحوش بسحر نايه. أحس كما لو أنه متصل بمنسق أنغام قوي، يرفق اللحن بأوركسترا أوتار، ونفخ، ونقر متكاملة. وبدأت الوحوش التي كانت جامدة في أول الأمر، بالتمايل مثل أشجار ضخمة تحركها الريح، ضربت قوائمها الألفية الأرض، ورن فراغ التيبوي الخصب مثل ناقوس ضخم. عندئذ قفزت ناديا باندفاع إلى وسط نصف دائرة المجلس، بينما بقي بوروبا ساكناً عند قدمي أليكس، وكأنه أدرك أنها لحظة حاسمة.

بدأت ناديا الرقص بطاقة الأرض التي تخترق عظامها النحيلة كنور. لم تكن قد رأت في حياتها رقص باليه، ولكنها كانت قد خزنت الإيقاعات التي سمعتها كثيراً: السمبا البرازيلية، والصلصا والخوروبو الفنزويلية، والموسيقى الأمريكية التي تصل عبر المذياع. وكانت قد رأت زنوجاً، وخلاسيين، وكابوكيليين، وبيضاً يرقصون إلى أن ينهاروا مستنفدي القوى في الكرنفال في ماناوس، وهنوداً يرقصون بوقار في طقوسهم

الاحتفاليـة. ودون أن تـدري مـا الـذي تفعلـه، وبـالغريزة وحـدها، ارتجلـت تقدمتها إلى الآلهة. كانت تحلق، جسدها يتحرك من تلقاء نفسه، بتلقائية، دون أي وعي أو تفكير مسبق من جانبها. كانت تتمايل مثل أشجار النخيل المشوقة، وتطفو مثل زبد الشلالات، وتدور كما الـريح. فقد راحت ناديا تحاكي طيران الببغاوات، وركض الجغوارات، وسباحة الـدلافين، وأزيـز الحشرات، وتموج الحيات.

لقد كانت هناك حياة منذ آلاف وآلاف السنين في فجوة التيبوي، ولكن لم تسـمع فيـه موسيقى قبـل هـذه اللحظـة قـط، ولا حتـى إيقـاع طبـل. وفي المرتين اللتين احتضن فيهما شعب الضباب في كنف المدينـة الأسـطورية، فعل الشعب ذلك بطريقة لا تستثير غضب الآلهة، بصمت كامل، مستخدماً مواهبه في التخفي. لم يكن يراود الوحوش الشك في قدرة البشر على إبداع موسيقى، ولم يكونوا قد رأوا كذلك جسداً يتحرك بالخفة، والانفعال، والظـرف، والسـرعة الـتي تـرقص بهـا ناديـا. والحقيقـة أن تلـك المخلوقـات المتثاقلة لم تتلق قط تقدمة بمثل هـذه الضـخامة. التقطت أدمغتها البطيئة كل حركة، وحفظتها للقرون التالية، وسوف تبقى هدية هـذين الزائـرين معها، كجزء من أسطورتها.

- 15 -

بيوض البلور

مقابل تلقي الوحوش للموسيقى والرقص، منحوا الصديقين ما طلباه. أشاروا إليهما بأنه على ناديا أن تصعد إلى التيبوي، إلى أعلى القمم، حيث العش الذي يضم البيوض الثلاث العجيبة التي ظهرت في رؤياها. أما هو فعليه النزول إلى أعماق الأرض، حيث يوجد ماء الصحة.

- ألا يمكننا الذهاب معاً، أولاً إلى قمة التيبوي ثم بعد ذلك إلى قاع فوهة البركان؟ - قال أليكس ذلك مفكراً في أن المهمتين ستكونان أسهل إذا ما تعاونا معاً.

رفض الوحوش ذلك بتحريك رؤوسهم ببطء وأوضح واليماي بأن كل رحلة إلى مملكة الأرواح يجب أن تكون لشخص واحد بمفرده. وأضاف أن لديهما يوماً واحداً فقط لكي ينجز كل منهما مهمته، لأن عليهما الرجوع عند الغروب إلى العالم الخارجي دون تأخير، فهذا هو اتفاقه مع الآلهة، فإذا لم يرجعا قبل ذلك، فسوف يبقيان محبوسين في التيبوي المقدس، لأنهما لن يجدا أبداً طريق الخروج من المتاهة بمفردهما.

أمضى الصديقان بقية ذلك النهار في التجول في إلدورادو وكل منهما يروي قصة حياته القصيرة للآخر. فكلاهما كان راغباً في معرفة أكثر ما يمكن عن زميله قبل أن ينفصلا. وقد وجدت ناديا صعوبة في تخيل صديقها مع أسرته في كاليفورنيا، لأنها لم تكن قد رأت كمبيوتراً قط، ولم تذهب إلى أية مدرسة، ولا تعرف ما هو الشتاء. وكان الفتى الأمريكي من جهته يحسد الفتاة على حياتها الحرة والصامتة، واتصالها الحميم بالطبيعة. لقد كانت ناديا سانتوس تمتلك رجاحة عقل وحكمة يبدو انه لا يستطيع بلوغها.

تلذذ ألكسندر وناديا أمام تشكيلات الميكا والفلزات المعدنية الأخرى البديعة في المدينة، وأمام الأزهار غير المحتملة التي تنبت في كل مكان،

والحيوانات الفريدة والحشرات التي يأويها ذلك المكان. لاحظا أن التنانين المشابهة لتنين الكهف، التي تمر في الجو أحياناً، وديعة كأنها ببغاوات مروضة. استدعت ناديا واحداً منها، فحط بظرف عند أقدامهما، وتمكنا من لمسه. وجدا جلده ناعماً وبارداً، مثل سمكة، وله نظرة صقر، وأنفاس معطرة بالزهر. استحما في بحيرات المياه الدافئة وأُتخما بالثمار، إنما بتلك التي سمح لهما واليماي بتناولها. لقد كانت هناك ثمار وفطور قاتلة، وأخرى توحي برؤى كابوسية أو تدمر الإرادة، وأخرى تمحو الذاكرة إلى الأبد، مثلما أوضح لهما التشامان. وقد التقيا أثناء تجوالهما هنا وهناك بالوحوش التي كانت تمضي معظم حياتها في سبات. فبعد أن تأكل الأوراق والثمار الضرورية لغذائها، تقضي بقية اليوم في تأمل المشهد الحار المحيط وسدادة الغيوم التي تغلق فوهة التيبوي. وقد علقت ناديا: " يظنون أن السماء بيضاء وبحجم هذه الدائرة ". فرد عليها أليكس بأنهم هم أيضاً لديهم رؤية جزئية للسماء، وأن رواد الفضاء يعرفون أنها ليست زرقاء، وإنما هي غير متناهية العمق ومظلمة. ناما في تلك الليلة متأخرين ومتعبين، جنباً إلى جنب، ولكن دون ملامسة، لأن الحر كان شديداً، ولكنهما تقاسما الحلم نفسه، مثلما تعلما أن يفعلا بواسطة ثمار واليماي السحرية.

عند فجر اليوم التالي سلم التشامان إلى ألكسندر كولد قرعة فارغة، وإلى ناديا سانتوس قرعة ممتلئة بالماء، وسلة ربطتها إلى ظهرها. وحذرهما من أنه مع بدء رحلتيهما، سواء إلى الأعالي أو إلى الأعماق، لا يعود بالإمكان التراجع. سيكون عليهما التغلب على المصاعب أو الموت في المهمة، لأن العودة بيدين خاويتين مستحيل. وسألهما التشامان:

- أأنتما متأكدان من أن هذا هو ما ترغبان في فعله؟

- بالنسبة لي، أجل - قالت ناديا بتصميم.

لم تكن لديها أي فكرة عن فائدة تلك البيوض ولا لماذا هي ذاهبة للبحث عنها، ولكنها لم تشك في رؤياها. لا بد أن تكون البيوض ثمينة جداً وسحرية جداً، وهي مستعدة، في سبيل الحصول عليها، للتغلب على خوفها المتجذر: الدوار من المرتفعات.

- وأنا أيضاً - أضاف أليكس مفكراً في أنه مستعد للذهاب إلى الجحيم في سبيل إنقاذ أمه.

- يمكن أن ترجعا ويمكن ألا ترجعا - ودعهما الساحر دون مبالاة،

لأن الحدود في نظره بين الحياة والموت تكاد لا تكون أكثر من خط من الدخان يمكن لأي نسمة خفيفة أن تمحوه.

انتزعت ناديا قردها بوروبا عن خاصرتها وأوضحت له أنها لا تستطيع أخذه معها إلى حيث هي ذاهبة. تشبث القرد بإحدى ساقي واليماي وهو يئن ويهدد بقبضته، ولكنه لم يحاول العصيان. تعانق الصديقان بقوة وهما يشعران بالخوف والتأثر. ثم انطلق كل منهما في الاتجاه الذي حدده له واليماي.

صعدت ناديا سانتوس على الدرج المنحوت في الصخر نفسه الذي كانت قد نزلت عليه من المتاهة حتى قاعدة التيبوي، عند مجيئها مع واليماي وأليكس. لم يكن الصعود حتى الشرفة شاقاً، بالرغم من شدة ميلان الدرج وخلوه من حاجز يمكن التمسك به، ومن كون الدرجات ضيقة جداً، وغير منتظمة وممسوحة. وبينما هي تصارع الدوار ألقت نظرة سريعة إلى أسفل ورأت المشهد الاستثنائي للوادي الأخضر المائل إلى الزرقة، يكتنفه ضباب خفيف، وفي وسطه مدينة الذهب البديعة. ثم نظرت بعد ذلك إلى أعلى واصطدمت عيناها بالسحب. كانت فوهة التيبوي تبدو أضيق من قاعدته. كيف ستصعد السفوح المحدبة؟ ستحتاج إلى قوائم جدجد. وكم هو ارتفاع التيبوي في الواقع، وكم تخفي الغيوم منه؟ وأين هو عش البيوض بالضبط؟ قررت عدم التفكير في المشاكل وإنما في الحلول. وفكرت في أنها إذا كانت قد استطاعت الصعود عبر الشلال، فمن الأحرى بها أن تفعل هذا، وإن لم تكن مربوطة إلى جغوار بحبل، ووحيدة.

حين بلغت الشرفة أدركت أن الدرج ينتهي هناك، وعليها أن تواصل الصعود من هناك فصاعداً متعلقة بما يمكنها الإمساك به. رتبت وضع السلة على ظهرها، وأغمضت عينيها وبحثت بهدوء في داخلها. كان جغوار قد أوضح لها بأنه هناك، في مركز كيانها، تتركز الطاقة الحيوية والشجاعة. تنفست بكل ما لديها من قوة لكي يملأ الهواء النظيف صدرها ويذرع دروب جسدها، حتى يصل إلى أطراف أصابع قدميها ويديها. كررت تنفسها العميق ثلاث مرات أخرى، وهي تغمض عينيها طوال الوقت، فتراءى لها النسر حيوانها الطوطمي خيل إليها أن ذراعيها يتمددان، يطولان، يتحولان إلى جناحين يكسوهما الريش، وأن ساقيها تتحولان إلى قائمتين تنتهيان بمخالب كأنها الكلابات، وأن منقاراً قاسياً ينمو في وجهها، بينما

عيناها تتباعدان إلى أن تصيرا على جانبي رأسها. أحست أن شعرها الناعم، المموج، يتحول إلى ريش قاس ملتصق بجمجمتها، يمكن لها أن تنفشه بإرادتها، إنه الريش الذي يتضمن معارف النسور: فهو هوائيات استشعار ترصد ما هو موجود في الهواء، بما في ذلك الأشياء غير المرئية. فقد جسدها مرونته، ولكنه اكتسب بالمقابل خفة مطلقة، تستطيع معها أن تنفصل عن الأرض وتطفو محلقة مع النجوم. أحست بامتلاك سلطة هائلة، وبكل قوة النسر في دمائها. وشعرت بأن تلك القوة تصل إلى آخر فتيلة من جسدها ووعيها. إنني نسر، قالت ذلك بصوت عال وفتحت عينيها على الفور.

تشبثت ناديا بشق صغير في الصخر فوق رأسها، ووضعت قدمها في فجوة أخرى عند مستوى خصرها. رفعت جسدها وتوقفت إلى أن وجدت التوازن. رفعت يدها الأخرى وبحثت في الأعلى إلى أن استطاعت التمسك بجذر بارز بينما هي تتلمس بقدمها الأخرى إلى أن وجدت شقاً. كررت الحركة بيدها الأخرى، باحثة عن بروز، وعندما وجدته ارتفعت مرة أخرى قليلاً. وقد ساعدتها النباتات النامية على السفح، فقد كانت هناك جذور، وشجيرات، ونباتات متسلقة. كما رأت هناك خدوشاً عميقة على الصخر وبعض وبعض الجذوع، وفكرت في أنها آثار براثن. لا بد أن الوحوش قد صعدت كذلك بحثاً عن طعام، أو أنها لا تعرف خريطة المتاهة، وعليها بالتالي كلما دخلت إلى التيبوي أو خرجت منه أن تصعد حتى القمة لتنزل من الجانب الآخر. وقدرت أن ذلك يستغرق منها دون شك أياماً، وربما أسابيع، بالنظر إلى بطء أولئك العمالقة الشديد.

أدرك جزء من ذهنها، ما يزال فعالاً، أن فجوة التيبوي ليست على شكل قمع مقلوب، مثلما افترضت بسبب الخداع البصري لدى رؤيته من أسفل، وإنما هو يتسع اتساعاً خفيفاً في الأعلى. وقد كانت فوهة البركان أكثر اتساعاً في الواقع من الوادي الذي في القاعدة. ولم تكن في نهاية المطاف بحاجة إلى قوائم جدجد، وإنما إلى التركيز والجرأة فقط. وهكذا تسلقت متراً فمتراً، طوال ساعات، بتصميم جدير بالتقدير ومهارة مكتسبة للتو. وكانت تلك المهارة تنبع من أكثر الأماكن خفية وسرية، من مكان هادئ في قلبها، حيث تتواجد الخصائص النبيلة لحيوانها الطوطمي. فهي النسر، الطائر الأعلى تحليقاً، إنها ملكة السماء، من تبني عشها في مكان لا تصله إلا الملائكة.

واصلت النسر - البنت صعودها خطوة خطوة. الهواء الساخن والرطب في الوادي تحول إلى نسمات باردة دفعتها إلى أعلى. كانت تتوقف بكثرة منهوكة جداً، مقاومة إغراء النظر إلى أسفل أو حساب المسافة المتبقية في الأعلى، مركزة كل تفكيرها على الحركة التالية وحسب. ألهب حلقها ظمأ رهيب، كانت تشعر بأن فمها ممتلئ بالرمل، ويطغى عليه طعم مر، ولكنها لا تستطيع أن تفلت يدها لتفك عن ظهرها قرعة الماء التي أعطاها إياها واليماي. سأشرب عندما أصل إلى أعلى، دمدمت وهي تفكر في الماء البارد والنظيف يحممها من الداخل. وفكرت لو أن المطر يهطل. ولكن لم تكن تهطل قطرة واحدة من الغيوم. وعندما ظنت أنها لم تعد قادرة على التقدم خطوة واحدة أخرى، أحست بطلسم واليماي السحري المعلق في عنقها، فمنحها ذلك الشجاعة. إنه حاميها، لقد ساعدها على صعود صخور الشلال السوداء والملساء، وجعلها صديقة للهنود، وحماها من الوحوش، وستبقى في مأمن طالما هو معها.

بعد وقت طويل من ذلك، وصل رأسها إلى حيث أول الغيوم الكثيفة التي هي أشبه بكريما الحلوى، وعندئذ أحاط بها بياض حليبي. واصلت التسلق متلمسة طريقها، متشبثة بالصخور والنباتات التي صارت تتناقص كلما صعدت أكثر. لم تلحظ أن يديها تنزفان، وكذلك ركبتيها وقدميها، لأنها لم تكن تفكر إلا في القوة السحرية التي تساندها، إلى أن لمست إحدى يديها فجأة شرخاً عريضاً. وسرعان ما تمكنت من رفع جسدها كله ووجدت نفسها على قمة التيبوي، انطلقت من صدر ناديا سانتوس صرخة نصر مدوية، صرخة سلفية ومتوحشة كأنها الزعيق الرهيب لمئة نسر مجتمعة، وراحت تصطدم بصخور قمم أخرى، ترتد وتتسع إلى أن تلاشت في الأفق.

انتظرت الفتاة دون حراك في القمة إلى أن تلاشت صرختها في آخر شروخ النجد الكبير. وعندئذ هدّأت طبل قلبها، وتمكنت من التنفس بعمق. وما إن أحست بالثبات فوق الصخور حتى مدت يدها إلى قرعة الماء، فشربت كل ما فيها. لم تشعر في حياتها قط برغبة في شيء كرغبتها في الماء. انساب السائل البارد في حنجرتها، منظفاً الرمل والمرارة من فمها، ومرطباً لسانها وشفتيها الجافتين، ومتغلغلاً في جسدها كله كبلسم عجيب، قادر على علاج الغم ومحو الألم. وأدركت أن السعادة تتلخص في حصولنا على

ما انتظرناه طويلاً.

الارتفاع والجهد البهيمي للوصول إلى هناك ولتجاوز مخاوفها، عملت كلها كمخدر أشد قوة من مخدر الهنود في تابيراوا - تيري أو من مشروب واليماي للأحلام الجماعية. أحست من جديد بأنها تطير، ولكنها لم تتحول إلى جسد نسر، بل تحللت من كل ما هو مادي، صارت روحاً وحسب. كانت معلقة في فضاء مجيد. فالعالم صار بعيداً جداً، في الأسفل، في مستوى الأوهام. راحت تطفو هناك لوقت لا يمكن حسابه، وفجأة رأت ثقباً في السماء المشرقة. فاندفعت دون تردد مثل سهم من خلال تلك الفتحة، ودخلت في الفضاء الخاوي والمظلم مثل قبة السماء غير المتناهية في ليلة بلا قمر. وكان ذلك هو الفضاء المطلق لكل ما هو إلهي وللموت، الفضاء الذي تتحلل فيه الروح نفسها. أما هي فكانت الخواء، دون رغبات ودون ذكريات. لم يكن ثمة ما تخشاه. وبقيت هناك خارج الزمن.

ولكن جسد ناديا كان ما يزال على قمة التيبوي يناديها شيئاً فشيئاً، يستدعيها. أعاد الأوكسجين إلى ذهنها معنى الواقع المادي، ومنحها الماء الطاقة اللازمة لتتحرك. وأخيراً قامت روح ناديا بالرحلة معكوسة، عادت لتخترق، مثل سهم، الفتحة التي في الفراغ، ووصلت إلى القبة المجيدة حيث طفت للحظات في البياض الفسيح، ومن هناك انتقلت إلى هيئة النسر. وكان عليها أن تقاوم إغراء الطيران إلى الأبد محمولة على الريح، والعودة ببذل مجهود أخير، إلى جسدها كبنت. وجدت نفسها جالسة على قمة العالم ونظرت فيما حولها.

كانت في أعلى نقطة في النجد، محاطة بصمت الغيوم الفسيح. ومع أنها لم تستطع رؤية ارتفاع أو اتساع المكان الذي وجدت نفسها فيه، فقد قدرت أن الفجوة في وسط التيبوي صغيرة بالمقارنة مع رحابة الجبل الذي يضمها. بدت الأرض مشققة بشروخ عميقة، صخرية في ناحية ومغطاة بنباتات كثيفة في ناحية أخرى. وتوقعت أنه سيمضي وقت طويل قبل أن تتمكن طيور الناهاب الفولاذية من ارتياد ذلك المكان، لأنه من العبث محاولة الهبوط هناك، حتى ولا بطائرة هليوكبتر، كما أن تحرك إنسان على وعورة هذا السطح هو أمر شبه مستحيل. أحست بالوهن، لأنه يمكن لها أن تبحث عن العش طوال حياتها دون أن تجده في تلك الصدوع الصخرية، ولكنها تذكرت بعد ذلك أن واليماي قد أشار لها بالضبط من أين عليها

الصعود. استراحت قليلاً ثم بدأت المسير، صاعدة ونازلة من صخرة إلى صخرة، تدفعها قوة مجهولة، نوع من الحدس الصائب.

لم يكن عليها المضي بعيداً، فعلى مسافة قريبة، في صدع متشكل من صخور كبيرة، وجدت العش، ورأت في وسطه البيوض البلورية الثلاث. كانت أصغر حجماً وأكثر بريقاً مما رأتها عليه في رؤياها، إنها رائعة.

اتخذت ناديا سانتوس ألف احتياط كيلا تنزلق في أحد الشروخ العميقة، حيث يمكن لها أن تهشم كل عظامها، وزحفت حتى العش. أحاطت أصابعها بذلك الكمال البلوري البراق، ولكن ذراعها لم يستطع تحريكه. استغربت الأمر، وأمسكت ببيضة أخرى. فلم تستطع رفعها، وكذلك الثالثة. من المستحيل أن تكون هذه الأشياء، وهي بحجم بيضة توكان، ثقيلة إلى هذا الحد. ما الذي يحدث؟ تفحصت البيوض، وهي تدفعها في كل الاتجاهات، إلى أن تأكدت من أنها ليست ملتصقة بصمغ ولا مثبتة بلولب، بل على العكس، فهي تبدو وكأنها تطفو فوق فراش العيدان والريش الوثير. جلست الصبية فوق إحدى الصخور دون أن تفهم ما الذي يحدث ودون أن تصدق أن هذه المغامرة وهذا الجهد المبذول للوصول إلى هنا هي كلها بلا طائل. لقد امتلكت قوة خارقة لتصعد مثل حرذون على جدران التيبوي الداخلية، وها هي قواها تخونها الآن، بعد أن صارت على القمة أخيراً، فتعجز عن تحريك الكنز الذي سعت إليه ولو ميليمتراً واحداً.

ترددت ناديا سانتوس، وبقيت مشوشة لبعض الوقت دون أن تتخيل حلاً لهذا اللغز. وفجأة خطر لها أن تلك البيوض هي لأحد ما، ربما وضعها الوحوش هناك، ولكنها قد تكون لمخلوق خرافي آخر كذلك، لأحد الطيور أو الزواحف، كالتنانين. وفي هذه الحالة يمكن للأم أن تظهر في أي لحظة، وعندما ستجد دخيلة بالقرب من عشها، ستندفع مهاجمة بغضب مبرر. وقررت أنه يجب عليها ألا تبقى هناك، ولكنها لا تريد التخلي عن البيوض كذلك. فقد قال لها واليماي إنه لا يمكنها العودة بيدين خاويتين... ماذا قال لها التشامان أيضاً؟ يجب عليها أن تعود قبل حلول الليل. وعندئذ تذكرت ما علمها إياه ذلك الساحر الحكيم في اليوم السابق: قانون المعاملة بالمثل. مقابل كل شيء يأخذه أحدنا، عليه أن يقدم شيئاً آخر.

نظرت إلى نفسها بيأس، لم يكن معها شيء تقدمه. إنها لا تملك إلا ما تلبسه من قميص وبنطال قصير، وسلة مثبتة على ظهرها. وبينما هي

تـتفحص جسـمها، انتبهـت لأول مـرة إلى الخـدوش والرضـوض والجـروح المفتوحة التي أحدثها الصخر فيها وهي تصعد الجبل. ربما كان دمها حيث تتركـز الطاقـة الحيويـة الـتي أتاحـت لها الوصـول إلى هنـاك، هـو الشـيء الوحيد الثمين الذي تملكه. اقتربت، مقدمـة جسـدها المتـألم لكـي يقطـر الدم منه على العش. لطخت بضع بقع حمراء الريش الناعم. وعنـدما انحنـت أحست بالطلسم الملتصق بصدرها وأدركت على الفور أنه الثمن الذي عليها أن تدفعه مقابل البيوض. ترددت لدقائق طويلة، فـالتخلي عنـه يعـني التخلـي عن قوى الحماية السحرية التي تنسبها هـي إلى قطعة العظم المنحوتة، هدية التشامان إليها. لن تحصل مطلقاً على شيء سحري مثل تلـك التميمـة، إنهـا أهم في نظرها من البيوض التي لا تستطيع تصور فائدتها. وقـررت أن لا، لا يمكنها التخلي عن الطلسم.

أغمضت ناديا المنهوكة عينيها، بينما كانت الشمس النافـذة مـن خـلال الغيـوم قـد بـدأت تغير لونهـا. رجعـت خـلال لحظـات إلى حلـم الياهواسـكا الهذياني في يوم مأتم موكاريتا، وعادت إلى الشعور بأنهـا النسـر المحلق في السماء البيضاء، وأنهـا معلقـة بـالريح، خفيفـة وقويـة. رأت البيـوض مـن عـل تلمـع في العش، كمـا في تلك الرؤيـا، وداهمهـا اليقين نفسـه الـذي سـيطر عليهـا آنـذاك: هـذه البيـوض تتضـمن الخـلاص لأنـاس الضـباب. ثـم فتحـت عينيها أخيراً وهي تطلق زفرة، نزعت الطلسم من عنقها ووضعته فوق العش. ثـم مـدت يـدها علـى الفـور ولمسـت إحـدى البيـوض، فتحـركـت علـى الفـور وتمكنت من حملها دون مشقة، وكانت البيضتان الأخريـان سـهلتا الحمـل أيضاً. وضـعت البيـوض الثلاثـة بحـذر في سلتها واسـتعدت للنـزول مـن حيـث صعدت. وكان ما يزال هناك ضوء شمس يتسرب من خلال الغيوم، وقـدرت أن النـزول سيكون أسرع وأنها ستصل قبل الغروب، مثلمـا حذرهـا واليمـاي.

- 16 -

ماء الصحة

بينما كانت ناديا سانتوس تصعد إلى قمة التيبوي، كان ألكسندر كولد ينزل عبر ممر ضيق إلى باطن الأرض، إلى عالم مغلق، ساخن، قاتم، ونابض، مثل أسوأ كوابيسه. لو أن لديه مصباحاً يدوياً على الأقل... عليه أن يتقدم متلمساً طريقه، حبواً أحياناً وزحفاً في أحيان أخرى، في غياهب ظلمات مطبقة. كان يمد يده متلمساً الصخر ليقدر اتجاه وعرض النفق، ثم يحرك بعد ذلك جسده، متلوياً إلى الأمام سنتمتراً بعد آخر. وكلما تقدم أكثر يبدو النفق وكأنه يزداد ضيقاً، وفكر في أنه لن يستطيع الدوران إلى الخلف ليخرج. الهواء القليل الذي هناك كان خانقاً ونتناً، كمن هو مدفون في قبر. لم تكن تفيده هناك في شيء مزايا الجغوار الأسود، فهو يحتاج في ذلك المكان إلى حيوان طوطمي آخر، حيوان مثل الخلد، أو الجرذ أو الدودة.

توقف عدة مرات وهو يفكر في الرجوع قبل أن يفوت الأوان، ولكنه كان يواصل التقدم في كل مرة مدفوعاً بذكرى أمه. وفي كل لحظة تمر كان يتضاعف ضيق صدره، والرعب الذي يصير أعمق غوراً. عاد يسمع ضربات قلبه صماء، مثل تلك التي سمعها وهو في النفق مع واليماي. كان عقله المجنون يقلب ما لا حصر له من المخاطر التي تترصده، أسوأها أن يبقى مدفوناً وهو حي في باطن الجبل. كم طويل هو هذا السرداب؟ هل سيصل إلى نهايته أم أنه سيسقط مهزوماً في الطريق؟ وهل سيكفيه الأوكسجين أم أنه سيموت اختناقاً؟

في إحدى اللحظات سقط ألكسندر منبطحاً على الأرض وهو يئن منهوكاً. كانت عضلاته متوترة، والدم يزدحم في صدغيه، كل عصب في جسده يتألم، لم يعد قادراً على المحاكمة العقلانية، فقد كان يشعر بأن رأسه سينفجر بسبب نقص الهواء. لم يشعر قط بمثل هذا الخوف، حتى ولا

في ليلة تلقينه الطويلة بين الهنود. حاول أن يتذكر الانفعالات التي اجتاحته يوم بقي معلقاً بحبل إلى صخرة " القبطان "، ولكن لا مجال للمقارنة. فقد كان يوم ذاك على قمة جبل، بينما هو الآن في باطن الجبل. وهناك كان مع أبيه، أما هنا فهو وحيد تماماً. استسلم لليأس، مرتجفاً مستنفداً، ولوقت بدا أبدياً تغلغلت الظلمات في ذهنه وفقد القدرة على التفكير وهو ينادي الموت دون صوت، لقد كان مهزوماً. حينئذ، بينما كانت روحه تبتعد في الظلام، شق صوت أبيه الطريق عبر سحب الضباب في دماغه ووصل إليه، أولاً في همسة تكاد لا تدرك، ثم بوضوح أكبر. ما الذي قاله له أبوه مرات ومرات وهو يعلمه تسلق الصخور؟ " الهدوء ياألكسندر، ابحث عن المركز في ذاتك، حيث تكمن قوتك. تنفس. الشهيق يشحنك بالطاقة، والزفير يزيح عنك التوتر. لا تفكر، انصع لغريزتك. " وكان هذا ما نصح به هو نفسه ناديا عندما صعدا إلى " عين الدنيا ". كيف نسي كل ذلك؟

استجمع تركيزه في التنفس: استنشاق الطاقة، دون التفكير في نقص الأوكسجين، وزفر الخوف، استرخ، أبعد الأفكار السلبية التي تشلك. يمكنني عمل ذلك، وكررها ثانية: يمكنني عمله... وشيئاً فشيئاً عاد إلى جسده. تراءت له أصابع قدميه وراح يبث فيهما الاسترخاء واحداً فواحداً، ثم في ساقيه، ركبتيه، وركيه، ظهره، ذراعيه حتى أطراف الأصابع، الرقبة، الفك، الرموش. لقد صار بإمكانه التنفس بصورة أفضل، وتوقف عن البكاء. حدد مركز ذاته، مكان أحمر ونابض عند مستوى السرة. استمع إلى نبضات قلبه. أحس بدغدغة في بشرته، ثم بحرارة في أوردته، وأخيراً عادت القوة إلى جسده، وإلى حواسه وذهنه.

أطلق ألكسندر كولد صرخة تفريج عن النفس. وتأخر الصوت لحظات قبل أن يصطدم بشيء ويرتد إلى مسمعيه. وانتبه إلى أن جهاز استشعار الخفافيش يعمل بهذه الطريقة، فيسمح لها بالطيران في الظلام. كرر الصرخة، وانتظر عودة رجعها إليه لتحدد المسافة والاتجاه، وهكذا تمكن من " السماع بالقلب "، مثلما قالت له مرات كثيرة ناديا. لقد اكتشف طريقة التقدم في الظلمة. بقية الرحلة في النفق انقضت في حالة شبيهة بغياب الوعي، كان جسده في أثنائها يتحرك تلقائياً، وكأنه يعرف الطريق. كان يتواصل لبرهة، بين حين وآخر، مع تفكيره المنطقي، ويحدس في ومضة وعي بأن هذا الهواء المحمل بغازات مجهولة يؤثر دون شك على

الذهن. وسيظن فيما بعد بأنه إنما عاش حلماً.

في الوقت الذي بدا له أن ذلك المشهد الكئيب لن ينتهي أبداً، سمع الفتى خرير ماء، وكأنه نهر، وبلغت رئتيه المنهوكتين هبة هواء ساخن. جدد ذلك قواه. اندفع نحو الأمام، وفي أحد منعطفات السرداب أحس بأن عينيه تميزان شيئاً في سواد العتمة. كان ضوءاً خافتاً جداً في أول الأمر، ثم راح يتضح شيئاً فشيئاً. واصل الزحف يحدوه الأمل، ورأى أن الضوء والهواء يتزايدان. وسرعان ما وجد نفسه في مغارة لا بد أنها متصلة بطريقة ما بالخارج، لأنها كانت مضاءة بخفوت. داهمت أنفه رائحة غريبة، ثابتة ولجوجة، تثير في النفس بعض الغثيان، كأنها رائحة خل وأزهار عفنة. وكانت المغارة تتضمن التشكيلات البراقة نفسها التي رآها في المتاهة. وكانت أسطح تلك التشكيلات المتقنة تعمل كمرايا، تعكس وتضاعف الضوء الشحيح الذي ينفذ إلى هناك. وجد نفسه عند ضفة بحيرة صغيرة، يغذيها جدول ماء أبيض، مثل حليب بلا دسم. وقد بدت له تلك البحيرة وذلك الجدول الأبيضين، وهو الآتي من القبر الذي كان فيه، أجمل مشهد يراه في حياته. أيكون هذا هو ينبوع الشباب الدائم؟ كانت الرائحة تدوخه، وفكر في أنه يجب أن يكون هناك غاز ينطلق من الأعماق، ربما يكون غازاً خانقاً يخدر دماغه.

لفت انتباهه صوت هامس ومغناج. واستولت عليه المفاجأة حين لمح شيئاً على الضفة الأخرى للبحيرة الصغيرة، على بعد أمتار قليلة، وعندما تمكنت حدقتاه من التكييف مع ضوء المغارة الشحيح، ميز هيئة إنسانية. لم يستطع رؤيتها جيداً، ولكن الشكل والصوت هما لفتاة. قال لنفسه: مستحيل، لا وجود للحوريات، إنني أجن، لا بد أنه مفعول الغاز، الرائحة. ولكن الفتاة بدت واقعية، شعرها الطويل يتماوج، بشرتها تشع نوراً، حركاتها بشرية، وصوتها مغوٍ. أراد أن يلقي بنفسه إلى الماء الأبيض ليشرب حتى الارتواء، وليغسل عنه التراب الذي يغطيه، ودماء الخدوش في مرفقيه وركبتيه. كان إغراء الاقتراب من المخلوقة الجميلة التي تناديه والاستسلام للمتعة لا يطاق. وكان على وشك أن يفعل عندما لاحظ أن تلك الرؤيا تشبه سيسيليا بارنس، شعرها الكستنائي نفسه، عيناها الزرقاوان نفسيهما، حركاتها المتراخية نفسها. فنبهه جزء ما يزال واعياً من عقله إلى أن هذه الحورية هي من اختلاقات ذهنه، مثلما هي تلك الميدوزات البحرية الهلامية

الشفافة التي تطفو في هواء المغارة الباهت. تذكر ما كان قد سمعه عن أساطير الهنود، القصص التي رواها واليماي عن أصول الكون، حيث يذكر " نهر الحليب " الذي يضم كل بذور الحياة، إنما يضم كذلك التفسخ والموت. وقرر أن لا، ليس هذا هو الماء العجيب الذي سيعيد الصحة إلى أمه، وإنما هي لعبة سمجة من ذهنه لإلهائه عن مهمته. لم يكن لديه وقت يضيعه، فكل دقيقة لها أهميتها. كمم أنفه بقميصه، مناضلاً ضد الرائحة النفاذة التي تشوشه. رأى درباً ضيقاً على طول الضفة التي يقف فيها، ورأى أنه يمتد بعد ذلك بمحاذاة مجرى الجدول إلى أن يغيب عن النظر فهرب عبر ذلك الدرب.

سار ألكسندر كولد على الدرب، مخلفاً وراءه البحيرة ورؤيا الفتاة العجيبة. وفوجئ بأن الإضاءة الخافتة تواصلت، ولكنه لم يعد مضطراً على الأقل لأن يتقدم زاحفاً ومتلمساً طريقه. بدأت الرائحة تخف شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشت تماماً. تقدم بأسرع ما يستطيع، منحنياً، محاولاً عدم ارتطام رأسه بالسقف، ومحافظاً على توازنه على ذلك الممر الضيق، ومفكراً في أنه قد يغطس إلى أسفل، إذاما سقط في النهر. تحسر من ضيق الوقت الذي لا يسمح له بالتحقق من هذا السائل الأبيض الشبيه بالحليب الذي تفوح منه روائح توابل السلطة. كان الدرب الطويل مغطى بطبقة عفن زلق تنغل فيه مليارات الكائنات الدقيقة، واليرقات، والحشرات، والديدان، وضفادع زرقاء كبيرة، جلودها شفافة جداً تسمح برؤية أجهزتها الداخلية وهي تنبض. وكانت ألسنتها الطويلة، كالأفاعي تحاول الوصول إلى ساقيه. أحس أليكس بالشوق إلى جزمته، لأنه وجد نفسه مضطراً إلى ركل تلك الضفادع بقدمه العارية، فكانت أجسادها الطرية والباردة كالهلام تسبب له قرفاً كبيراً. بعد نحو مئتي متر من ذلك، اختفت طبقة العفن والضفادع، وصار الدرب أكثر اتساعاً. أحس بالراحة، واستطاع أن يلقي نظرة على ما حوله، ولاحظ عندئذ لأول مرة أن الجدران ملطخة بألوان بديعة. وعندما تفحصها عن قرب أدرك أنها أحجار كريمة وعروق معادن نفيسة. فتح سكينه متعددة الاستخدامات وكشط الصخر فتبين له أن الأحجار تفلت بشيء من السهولة. ياللغرابة؟ تعرف على بعض الألوان، مثل خضرة الزمرد الكثيفة وحمرة الياقوت النقية. لقد كان محاطاً بكنز خرافي: فهذه هي إلدورادو الحقيقية، محط طمع المغامرين طوال قرون.

كان يكفي أن ينقب الجدران بسكين ليحصد ثروة هائلة. إذا ما ملأ القرعة التي أعطاه إياها واليماي بهذه الأحجار الكريمة، فسوف يرجع إلى كاليفورنيا مليونيراً، وسيتمكن من دفع تكاليف أغلى أساليب العلاج لداء أمه، وشراء بيت جديد لأبويه، وتعليم أختيه. وماذا عنه هو؟ سيشتري سيارة سباق تميت أصدقاءه حسداً وتبهر سيسيليا بارنس. هذه الجواهر هي الحل لحياته: يمكنه التفرغ حينئذ للموسيقى، أو تسلق الجبال، أو أي شيء آخر يريده، دون أن تقلقه الحاجة إلى عمل وراتب...لا! ما هذا الذي يفكر فيه؟ فهذه الأحجار الكريمة ليست له وحده، وإنما يجب أن تكون عوناً للهنود. لأنه يستطيع بهذه الثروة الطائلة امتلاك القوة لتنفيذ المهمة التي كلفته بها إيومي: التفاوض مع الناهاب. وسوف يتحول إلى حامي القبيلة وغاباتها وشلالاتها، وسيتمكن عن طريق قلم جدته وأمواله من تحويل " عين الدنيا " إلى أكبر محمية طبيعية في العالم. بإمكانه خلال ساعات قليلة، أن يملأ القرعة بالجواهر ويبدل مصير شعب الضباب وأسرته نفسها.

بدأ الفتى بالنبش برأس سكينه حول حجر أخضر، مفلتاً بعض الحصوات الدقيقة من الصخر. وتمكن بعد دقائق من إخراج ذلك الحجر، وعندما صار في يده استطاع رؤيته جيداً. لم يكن له بريق الزمرد المصقول، مثلما هو زمرد الخواتم، ولكن له اللون نفسه دون ريب. وكان على وشك أن يضعه في القرعة عندما تذكر الهدف من هذه المهمة إلى باطن الأرض: ملء القرعة بماء الصحة. لا، ليست الجواهر هي التي ستوفر الصحة لأمه، فالشفاء يتطلب شيئاً سحرياً. خبأ الحجر الأخضر في جيب بنطاله وهو يطلق زفرة، وواصل قدماً وهو يشعر بالقلق لأنه أضاع دقائق ثمينة، ولأنه لا يعرف كم عليه أن يسير ليصل إلى الينبوع العجيب.

و فجأة انتهى الدرب قبالة كومة من الأحجار. كان ألكسندر واثقاً من أن هناك طريقة دون شك لمواصلة التقدم، وأنه لا يمكن لرحلته أن تنتهي بهذه الصورة المباغتة. إذا كان واليماي قد أرسله في هذه الرحلة الجهنمية إلى أعماق الجبل، فلا بد أن يكون الينبوع موجوداً، والمسألة تتلخص في العثور عليه وحسب، ولكن يمكن له أن يكون قد اتخذ طريقاً خاطئاً، وأن يكون قد انحرف في أحد تفرعات النفق. ربما كان عليه أن يجتاز بحيرة الحليب، لأن الفتاة لم تكن وسيلة إغراء لإلهائه، وإنما دليلته

للوصول إلى ماء الصحة... بدأت الشكوك تدوي كصرخات عالية في دماغه. رفع يديه إلى صدغيه، محاولاً تهدئة نفسه، كرر التنفس العميق الذي مارسه في النفق، وأصاخ السمع إلى صوت أبيه النائي الذي يوجهه. ودمدم: يجب أن أستقر في مركز ذاتي حيث السكينة والقوة. صمم على عدم تبديد طاقته في التفكير بأخطاء محتملة ارتكبها، وإنما قصر تفكيره على العائق الذي أمامه. لقد طلبت منه أمه في الشتاء الماضي أن ينقل كومة كبيرة من الحطب من الفناء إلى الكراج. وعندما تعلل بأنه لا يمكن حتى لهرقل عمل ذلك، بينت له أمه الطريقة: حطبة واحدة في كل مرة.

بدأ الفتى برفع الأحجار، الحصى أولاً، وبعد ذلك الحجارة متوسطة الحجم التي كانت تفلت بسهولة، وأخيراً الصخور الكبيرة. كان عملاً بطيئاً وشاقاً، ولكنه تمكن بعد بعض الوقت من فتح فجوة. صفعت وجهه دفقة من البخار الساخن، كما لو أنه قد فتح باب فرن، أجبرته على التقهقر. انتظر، دون أن يدري ما هي الخطوة التالية، بينما كان فوران الهواء ذاك يخرج متصاعداً. لم يكن يعرف شيئاً عن المناجم، ولكنه قرأ يوماً أن هناك غازات تنطلق عادة في المناجم، وفكر في أنه إذا كان الأمر كذلك، فإنه محكوم عليه بالموت لا محالة. لاحظ أن التدفق بدأ يخفت بعد دقائق قليلة، كما لو أنه يعمل بالضغط، ثم اختفى أخيراً. انتظر قليلاً ثم أطل برأسه إلى الحفرة.

كانت هناك في الجانب الآخر مغارة في وسطها بئر عميقة، تخرج منها أبخرة وضوء مائل إلى الحمرة. وكانت تسمع فرقعة انفجارات صغيرة، كما لو أن شيئاً كثيفاً يغلي هناك، وينفجر في فقاعات. وخمن، دون أن يكون مضطراً إلى الاقتراب، بأنها دون شك حمم ملتهبة، ربما هي آخر بقايا النشاط في بركان قديم جداً. لقد كان يقف في قلب الفتحة البركانية. فكر في احتمال أن تكون الأبخرة سامة، ولكنه قرر النزول إلى المغارة لأن رائحتها لم تكن خبيثة. أدخل بقية جسده من الفتحة ووجد نفسه يقف على أرض أحجارها ساخنة. غامر بالتقدم خطوة، ثم خطوة

أخرى، مصمماً على استكشاف المكان. لقد كان الحر أسوأ مما هو عليه في حجرة ساونا، وسرعان ما بلله العرق بالكامل، إنما كان هناك ما يكفي من الهواء للتنفس. خلع قميصه وربطه على أنفه وفمه. كانت عيناه تدمعان. وأدرك أن عليه التقدم بأقصى ما يستطيع من الحذر كيلا ينزلق إلى البئر.

كانت المغارة واسعة وذات شكل غير منتظم، يضيئها نور مائل إلى الحمرة ووامض ينبعث من النار المفرقعة في الأسفل. ووجد إلى يمينه قاعة أخرى، استكشفها بالتلمس، واكتشف أنها أشد ظلمة، لأن الضوء الذي ينير الأولى يكاد لا يصل إليها. وتبين له أن الحرارة فيها محتملة أكثر، وأنه ربما يدخل إليها هواء بارد من أحد الشقوق. كان الفتى قد بلغ أقصى حدود مقاومته، مبللاً بالعرق وعطشاً، وموقناً من أن قواه لن تكون كافية للرجوع عبر الطريق الطويل الذي اجتازه. أين هو الينبوع الذي يبحث عنه؟

أحس في تلك اللحظة بنسمة قوية وبخفق مرعب يتردد في أعصابه، كما لو أنه في جوف طبل معدني ضخم. غطى أذنيه بحركة غريزية، ولكن ذلك لم يكن ضجيجاً، بل طاقة لا تحتمل وليس ثمة طريقة للحماية منها. استدار بحثاً عن السبب. وعندئذ رآه، لقد كان خفاشاً عملاقاً، لابد أن طول أجنحته الممدودة يبلغ خمسة أمتار من أحد طرفيها إلى الآخر. أما جسمه الفأري فكان أكبر من حجم كلبه بونتشو، وكان ينفتح في رأسه فم ناتئ مزود بأنياب وحش طويلة. لم يكن لونه أسود، وإنما أبيض بالكامل. إنه خفاش أمهق.

أدرك أليكس المرعوب أن هذا الحيوان، مثله مثل الوحوش، هو النموذج الوحيد من جنسه المتبقي من عصر قديم جداً، العصر الذي رفعت رفعت فيه أول الكائنات البشرية رؤوسها عن الأرض لتنظر مذهولة إلى النجوم، قبل آلاف آلاف السنين. عرف أن عمى الحيوان لن يكون مزية لمصلحته، لأن تلك الترددات هي جهاز استشعاره. فمصاص الدماء صار يعرف بالضبط هيئة الدخيل ومكان وجوده. تكرر الخفق: وكانت تلك هي حركة أجنحته المتأهبة للانقضاض. أيكون هذا هو الراهاكاناريوا الذي ذكره الهنود.. الطائر مصاص الدماء الرهيب؟

انطلق ذهنه محلقاً. كان يعرف أن إمكانيات الهرب شبه معدومة، لأنه

لـن يسـتطيع العـودة إلى القاعـة الأخـرى والانـدفاع راكضـاً في هـذه الأرض الغادرة دون التعرض لخطر السقوط في بئر الحمم. مد يده بصورة غريزية إلى سكينه المثبتة في خصره، على الرغم من معرفته بأنها سلاح مضحك بالمقارنة مع حجم خصمه. اصطدمت أصابعه بالناي المعلق بحزامه، فتناوله دون أن يفكر في الأمر مرتين، ورفعه إلى شفتيه. استطاع أن يهمس باسم جده جوزيف كولد، طالباً منه العون في لحظة الخطر القاتل تلك، ثم بدأ العزف.

رنت الأنغام الأولى بلورية، عليلة، صافية، في ذلك المكان الوبيل. ضم مصاص الدماء الضخم جناحيه، وهو الخفاش المتحسس جداً للأصوات، وبدا كما لو أن حجمه قد تقلص. ربما يكون قد عاش قروناً في وحدة وصمت هذا العالم تحت الأرضي، فكان لتلك النغمات مفعول انفجار في دماغه، وأحس بأن ملايين النشابات الحادة توخزه. أطلق صرخة أخرى بموجة صوته التي لا تدركها مسامع البشر، وإن تكن واضحة الكآبة، ولكن تردداتها اختلطت بالموسيقى فلم يستطع مصاص الدماء المرتبك تفسيرها بجهاز استشعاره.

و بينما أليكس يعزف نايه، كان الخفاش الأبيض يتحرك إلى الخلف، متقهقراً شيئاً فشيئاً، إلى أن توقف دون حراك في أحد الأركان، كأنه دب أبيض مجنح، أنيابه وبراثنه ظاهرة للعيان، ولكنه مشلول. أعجب الفتى مرة أخرى بقدرات هذا الناي الذي رافقه في كل لحظة حرجة في مغامراته. وعندما تراجع الحيوان، رأى أليكس خيط ماء نحيل يسيل من جدار الكهف فعرف عندئذ أنه قد وصل إلى نهاية طريقه: لقد كان يقف قبالة ينبوع الشباب الدائم. لم يكن نبعاً غزيراً يتدفق وسط حديقة، مثلما تقول الأسطورة. بل يكاد لا يكون أكثر من قطرات بائسة تنزلق من الصخر الحي. تقدم أليكس بحذر، اقترب خطوة من مصاص الدماء المريع دون أن يتوقف عن عزف الناي، محاولاً التفكير بقلبه وليس بعقله. كانت تلك هي تجربته الاستثنائية، فهو غير قادر على الوثوق بالعقل أو المنطق، وقد حان وقت استخدام الوسيلة نفسها التي تفيده في تسلق الجبال وإبداع الموسيقى: البديهة. حاول أن يتخيل ما الذي يشعر به الحيوان، وتوصل إلى أنه لا بد أن يكون خائفاً بقدر خوفه هو نفسه. فهو يجد نفسه لأول مرة في مواجهة كائن بشري، كما أنه لم يسمع قط أصواتاً كالصادرة عن الناي، ولا بد

أن الضجة قد شوشت استشعاره، ولهذا كان يبدو كالمنوم. تذكر أليكس أن عليه أخذ الماء في القرعة والعودة قبل الغروب. لقد كان مستحيلاً تقدير ما مضى عليه من ساعات وهو في العالم تحت الأرضي، ولكن الشيء الوحيد الذي يرغب فيه هو الخروج من هناك بأسرع ما يمكن.

و بينما هو يعزف نغمة واحدة فقط بالناي، مستخدماً إحدى يديه، مد اليد الأخرى نحو الينبوع، وهو يكاد يلمس مصاص الدماء، ولكن ما إن سقطت القطرات الأولى داخل القرعة، حتى تضاءل خيط الماء إلى أن انقطع تماماً. أحس أليكس بإحباط هائل، وكان على وشك الانقضاض على الصخر لكماً بقبضتيه. ولكن ما أوقفه عن ذلك هو الحيوان الفظيع المنتصب إلى جانبه مثل حارس.

عندئذ، حين كان على وشك الدوران على عقبيه، تذكر كلمات واليماي عن قانون الطبيعة الحتمي: أن تقدم بقدر ما تأخذ. استعرض ممتلكاته القليلة: البوصلة، السكين العسكرية متعددة الاستعمالات، والناي. يمكنه أن يترك الشيئين الأولين، وهما لا يفيدانه كثيراً على أي حال، ولكنه لا يستطيع التخلي عن نايه السحري، تركة جده الشهير، وأداة سلطته وقوته. فلولا لكان الضياع قد حاق به. وضع البوصلة والسكين على الأرض وانتظر. ولكن لا شيء. لم تنزل قطرة واحدة من الصخرة.

أدرك حينئذ أن ماء الصحة ذاك هو أثمن كنز في العالم بالنسبة إليه، فهو الشيء الوحيد الذي يمكن له أن ينقذ حياة أمه. ولا بد له من أن يقدم مقابله أثمن ما يملكه. وضع الناي على الأرض بينما كانت آخر النغمات ما تزال تتردد بين جدران المغارة. وعلى الفور عاد خيط الماء الواهن إلى التدفق. انتظر لدقائق بدت له أبدية ريثما تمتلئ القرعة، دون أن يرفع بصره عن مصاص الدماء المترصد بجانبه. لقد كان قريباً منه إلى حد يمكنه معه أن يشم رائحة نتانته القبورية، وأن يعد أسنانه، ويشعر بشفقة غير متناهية عليه للعزلة العميقة التي تحيط به، ولكنه لم يسمح لذلك كله بأن يلهيه عن مهمته. وما إن امتلأت القرعة حتى بدأ التقهقر ببطء، كيلا يستثير المسخ. خرج من المغارة، ودخل في الأخرى، حيث تسمع زغردة الحمم المتأججة في باطن الأرض، ثم انسل خارجاً من الفتحة. فكر في إعادة

الأحجار مثلما كانت ليغلق مدخل المغارة، ولكن لم يكن لديه متسع من الوقت، وقدر بأن مصاص الدماء أكبر حجماً من أن يتمكن من الخروج من هذه الفجوة ليلحق به.

قطع طريق الإياب بسرعة أكبر، لأنه صار يعرفه. لم تراوده نفسه بالتقاط أحجار كريمة، وعندما مر ببحيرة الحليب حيث تنتظر سيسيليا بارنس السرابية، كمم أنفه ليحتمي من الغاز العابق الذي يشوش الفهم، ولم يتوقف. أصعب ما واجهه هو العودة لحشر نفسه في النفق الضيق الذي دخل منه، حاملاً القرعة بصورة عمودية كيلا يندلق الماء منها. لقد كانت لها سدادة، قطعة من الجلد مربوطة بحبل، ولكنها لم تكن كتيمة، ولم يكن هو راغباً في فقدان قطرة واحدة من سائل الصحة العجيب. وعلى الرغم من أن السرداب كان ضيقاً ومظلماً، إلا أنه لم يبد له في هذه المرة شديد الرهبة، فقد كان يعرف أنه سيصل في نهايته إلى النور والهواء.

كانت فرشة الغيوم البيضاء التي تكلل التيبوي تتلقى آخر أشعة الشمس، وقد اكتسبت تدرجات من الحمرة، ابتداء من لون الصدأ وحتى اللون الذهبي. وكانت ستة أقمار الضوء قد بدأت تختفي من قبة التيبوي السماوية عند رجوع ناديا سانتوس وألكسندر كولد. وجدا واليماي ينتظر على مدرج مدينة الذهب ن قبالة مجلس الوحوش، يرافقه بوروبا. وما كاد القرد يرى صاحبته حتى ركض، مستعيداً الطمأنينة، ليتعلق بعنقها. كان الشابان منهوكين، تغطي جسديهما الخدوش والقروح، ولكن كلاً منهما يحمل الكنز الذي ذهب للبحث عنه. لم يبد الساحر العجوز ما يشير إلى مفاجأته، فقد استقبلهما بالوقار نفسه الذي ينجز به كل عمل في حياته، وأشار إليهما بأن ساعة الرحيل قد أزفت. لم يكن هناك متسع من الوقت للراحة، إذ يتوجب عليهم اجتياز باطن الجبل في الليل والخروج إلى "عين الدنيا".

- لقد اضطررت إلى التخلي عن طلسمي - قالت ناديا ذلك لصديقها بعزيمة محبطة.

فرد عليها:

- وأنا تخليت عن الناي.

و قالت ناديا:

- يمكنك الحصول على ناي آخر. فأنت من تصنع الموسيقى وليس

الناي.

- وقدرات الطلسم أيضاً موجودة فيك أنت - قال لها مواسياً.

تفحص واليماي البيوض الثلاثة بتمعن، وتشمم الماء في القرعة وأبدى موافقته بوقار شديد. ثم حل بعد ذلك أحد الأجرية الجلدية المعلقة بعصاه كمداوي وسلمه إلى أليكس مع تعليمات بأن يطحن الأوراق ويخلطها بذلك الماء ليداوي أمه. علق الفتى الجراب الصغير في عنقه، بينما عيناه تدمعان. هز واليماي أنبوب الكوارتز فوق رأس أليكس لوقت لا بأس به، ثم نفخ على صدره، وصدغيه، وظهره، ولمس ذراعيه وساقيه بعصاه. وقال له:

- لو لم تكن من الناهاب لجعلتك خليفتي، فأنت ولدت بروح تشامان إنك تتمتع بالقدرة على الإشفاء فاستخدمها.

- هل يعني هذا أنني قادر على إشفاء أمي بهذا الماء وهذه الأوراق؟

- ممكن وغير ممكن...

انتبه أليكس إلى أن أوهامه لا تستند إلى أي أساس منطقي، وأن عليه أن يثق بأساليب العلاج الحديثة في تكساس وليس بقرعة ماء وبعض الأوراق اليابسة التي يقدمها إليه عجوز عار في وسط الأمازون، ولكنه تعلم في هذه الرحلة أن يفتح ذهنه للأسرار المبهمة. هناك قدرات خارقة وأبعاد أخرى للواقع، مثل هذا التيبوي المأهول بكائنات من عصور ما قبل التاريخ. صحيح أنه يمكن تفسير كل شيء عقلانياً، بما في ذلك الوحوش، ولكن أليكس فضل عدم عمل ذلك وأسلم نفسه ببساطة إلى الأمل بمعجزة.

كان مجلس الآلهة قد وافق على اقتراح الصبيين الغريبين والحكيم واليماي. فهم لن يخرجوا لقتل الناهاب، لأنها مهمة غير مجدية، فالغرباء كثيرون مثل النمل، ودائماً سيأتي آخرون منهم. ستبقى الوحوش في جبلها المقدس، حيث هي في مأمن، في الوقت الراهن على الأقل.

ودع أليكس وناديا تلك الكائنات الضخمة بأسى. ففي أحسن الظروف، وإذا سار كل شيء على ما يرام، فإن المدخل المتاهي المؤدي إلى التيبوي لن يكشف، ولن تتمكن طائرات الهليوكبتر كذلك من النزول عليه من الجو. وبشيء من الحظ سينقضي قرن آخر قبل أن يصل الفضول البشري إلى الملجأ الأخير للأزمنة ما قبل التاريخية. أما إذا لم يحدث ذلك، فإنهما يأملان بأن يدافع المجتمع العلمي عن هذه المخلوقات الاستثنائية قبل أن يدمرها جشع المغامرين. ولكنهما لن يعودا على أي حال لرؤية الوحوش.

صعدوا الأدراج المؤدية إلى المتاهة عندما بدأ الليل يخيم ن مستضيئين بشعلة واليماي التي من الراتينج. اجتازوا دون تردد نظام الأنفاق المتشابكة التي يعرفها التشامان جيداً. ولم يصطدموا ولو مرة واحدة بدرب مسدود، كما أنهم لم يضطروا إلى التراجع أو العودة عن طريق مشوا فيه، لأن الساحر يحمل الخريطة منقوشة في ذهنه. تخلى أليكس عن فكرة حفظ وتذكر الالتفافات، لأنه إذا ما استطاع تذكرها، وحتى لو رسمها على الورق، فإنه يفتقر على كل حال إلى نقاط علام، وسيكون من المستحيل تحديد توجهه فيها.

وصلوا إلى الكهف العجيب الذي رأوا فيه التنين الأول، وفتنتهم مرة أخرى ألوان الأحجار الكريمة، والبلور والمعادن التي تتلألأ في الداخل. لقد كانت مغارة علي بابا حقيقية، بكل الكنوز الخرافية التي يمكن لأكثر العقول طموحاً أن تتصورها. عندئذ تذكر أليكس الحجر الأخضر الذي وضعه في جيبه، فأخرجه ليقارنه بتلك الأحجار. ورأى على البريق الباهت في الكهف أن الحجر لم يعد أخضر، وإنما صار لونه مائلاً إلى الصفرة، فأدرك حينئذ أن لون هذه الجواهر ما هي إلا نتاج الضوء، وربما كانت ضئيلة القيمة مثلما هو الميكا في إلدورادو. لقد أحسن صنعاً بعدم الاستجابة لإغراء ملء القرعة بها بدلاً من ملئها بماء الصحة. خبأ الزمردة المزيفة كتذكار: سيقدمها لأمه عندما يرجع.

كان التنين المجنح في ركنه، مثلما رأوه في المرة الأولى، إنما كان برفقته في هذه المرة تنين آخر أصغر حجماً وذو لون مائل إلى الحمرة، ربما تكون أنثاه. ولم يتحركا حيال حضور ثلاثة كائنات بشرية، كما أنهما لم يتحركا عندما حلقت زوجة واليماي الروح لتحيتهما، متطايرة من حولهما مثل حورية دون أجنحة.

لقد خيل لأليكس في هذه المناسبة، مثلما خطر له في رحلته إلى باطن الأرض، بأن طريق العودة أقصر وأسهل، لأنه صار يعرف الطريق ولن يصادف مفاجآت. ولم تكن ثمة مفاجآت بالفعل، وبعد اجتياز المقطع الأخير من الطريق، وجدوا أنفسهم في المغارة التي على بعد أمتار قليلة من المخرج. وهناك طلب منهما واليماي الجلوس، وفتح واحدة من أجربته السرية وأخرج أوراقاً تشبه التبغ. وأوضح لهما بإيجاز أنه عليهما أن يتطهرا لمحو ذكرى ما رأياه. لم يكن أليكس راغباً في نسيان الوحوش ولا رحلته إلى

باطن الأرض، ولم ترغب ناديا في التخلي عما تعلمته، لكن واليماي أكد لهما أنهما سيتذكران كل ذلك، ولن يمحى من ذاكرتيهما سوى الطريق، كيلا يتمكنا من العودة إلى الجبل المقدس.

لف الساحر الأوراق، وألصقها بلعابه، ثم أشعل مثل سيجارة وبدأ التدخين. كان يأخذ النفس ثم ينفخ الدخان بقوة في فم الصبيين، أولاً أليكس وبعد ذلك ناديا. لم تكن بالوسيلة اللطيفة، فالدخان النتن والساخن واللاذع، يتجه مباشرة إلى الجبهة ويكون مفعوله كمن يتنشق فلفلاً مطحوناً. أحسا بوخزة حادة في الرأس، ورغبة لا كابح لها في العطاس وسرعان ما غلبهما الدوار. عادت إلى ذهن أليكس تجربته الأولى في التدخين، عندما عمدت جدته كاتي إلى حبس نفسها معه ليدخنا في السيارة إلى أن أصيب بالمرض. وقد كانت الأعراض في هذه المرة مشابهة، فضلاً عن أن كل شيء كان يدور من حوله.

عندئذ أطفأ واليماي الشعلة. ولم تكن المغارة تتلقى شعاع الضوء الخافت الذي كان ينيرها قبل أيام، عند دخولهم، فكان الظلام كاملاً. أمسك الصديقان كل منهما بيد الآخر، بينما بوروبا يئن مذعوراً، دون أن يفلت خصر صاحبته. وناما غارقين في الظلمات، يهجسان بمسوخ تترصد ويسمعان صرخات مريعة، ولكنهما لم يخافا. فقد استنتجا، بالقليل من الصحو المتبقي لديهما، أن تلك الرؤى المرعبة هي من تأثير الدخان الذي استنشقاه، وأنهما في مأمن على أي حال ما دام الساحر العجوز معهما... استلقيا على الأرض متعانقين، وبعد دقائق قليلة غابا عن الوعي.

لم يستطيعا أن يقدرا كم من الوقت ناما. استيقظا شيئاً فشيئاً، وسرعان ما سمعا صوت واليماي يناديهما باسميهما ويداه تتلمسان للعثور عليهما. لم تكن المغارة عندئذ مظلمة تماماً، فقد كانت هناك عتمة خفيفة تتيح لهما رؤية ما حولهما. أشار التشامان إلى الممر الضيق الذي عليهما الخروج منه إلى الخارج، فتبعاه وهما ينزلان دائخين قليلاً. خرجوا إلى غابة السرخس. وطلع الصباح عليهم وهم في " عين الدنيا".

- 17 -
الطائر آكل اللحم البشري

بدأ المسافرون المسير في اليوم التالي عائدين إلى تابيروا – تيري. ولدى اقترابهم رأوا بريق طائرتي هليوكبتر بين الأشجار، فعرفوا أن حضارة الناهاب قد وصلت أخيراً إلى القرية. قرر واليماي البقاء في الغابة، فقد ظل طوال حياته بعيداً عن الغرباء، ولم يكن هذا هو الوقت المناسب لتغيير عاداته. وكان التشامان، مثل كل شعب الضباب، يمتلك موهبة التحول إلى غير مرئي تقريباً، وقد تجول طوال سنوات حول الناهاب، يقترب من معسكراتهم وقراهم لمراقبتهم، دون أن ينتبه أحد إلى وجوده. لم يكن هناك من يعرفه سوى ناديا سانتوس والأب بالدوميرو، صديقه منذ الزمن الذي عاش فيه الكاهن مع الهنود. لقد رأى الساحر " الطفلة التي بلون العسل " في عدد من رؤاه، وهو مقتنع بأنها مبعوثة من الأرواح. كان يعتبرها من أسرته، ولهذا أذن لها بأن تدعوه باسمه حين يكونان وحيدين، وقد روى لها خرافات وأساطير الهنود، وأهدى إليها طلسمه، وأخذها إلى مدينة الآلهة المقدسة.

أحس أليكس برجفة سعادة حين رأى من بعيد طائرتي الهليوكبتر: فهو لم يكن ضائعاً إلى الأبد في كوكب الوحوش، ويمكنه الرجوع إلى العالم الذي يعرفه. افترض أن الحوامات قد جابت " عين الدنيا " طوال أيام للبحث عنه. ولابد أن جدته قد أثارت ضجة عظيمة عندما اختفى، وأجبرت النقيب آريوستو على تمشيط المنطقة الشاسعة من الجو. ربما رأوا دخان المحرقة المأتمية لجثمان موكاريتا، وهكذا اكتشفوا موقع القرية.

أوضح واليماي للصبيين أنه سينتظر مختبئاً بين الأشجار ليرى ما الذي يحدث في القرية. أراد أليكس أن يقدم إليه تذكاراً مقابل الدواء العجيب الذي سيعيد الصحة إلى أمه، فأهدى إليه سكينه متعددة الاستعمالات. تناول الهندي ذلك الشيء الأحمر، أحس بثقله وشكله الغريب، دون أن

يتخيل ما هي فائدته. فتح أليكس نصال السكين واحداً فواحداً، وملقطها، ومقصها، ونازعة فلين القوارير، ومفك البراغي، على أن تحول ذلك الشيء إلى قنفذ لامع. وعلّم التشامان كيفية استخدام كل جزء منها، وكيفية فتحها وإغلاقها.

شكره واليماي على الهدية ن ولكنه كان قد عاش أكثر من قرن دون أن يعرف المعادن، وهو يشعر، بصراحة، بأنه عجوز بعض الشيء على تعلم حيل الناهاب، ولكنه لم يشأ أن يكون عديم اللياقة، فعلق السكين في عنقه، إلى جانب عقوده التي من أسنان وتمائمه الأخرى. ثم ذكر ناديا بصرخة البومة التي يستخدمانها ليستدعي كل منهما الآخر، فهكذا يبقيان على اتصال. سلمته الفتاة السلة وفيها البيوض البلورية الثلاث، فقد رأت أنها ستكون في مأمن أكبر وهي بحوزة الشيخ. ولم تشأ الظهور أمام الغرباء والبيوض معها، لأنها من حق شعب الضباب. تم الوداع بينهم، وفي أقل من ثانية اختفى واليماي في الطبيعة، مثل حلم.

اقترب أليكس وناديا بحذر من المكان الذي حطت فيه " طيور الضجيج والريح "، مثلما يسميها الهنود. اختبأا بين الأشجار، حيث يمكنهما أن يراقبا دون أن يُريا، مع أنهما كانا بعيدين بحيث لا يمكنهما السماع بوضوح. كانت طيور الضجيج والريح في وسط تابيراوا – تيري، وكانت هناك أيضاً ثلاث خيام، ومظلة كبيرة، وحتى مطبخ يعمل بالبترول. وكانوا قد مدوا سلكاً علقوا عليه هدايا لاجتذاب الهنود: سكاكين، قدور، فؤوس وأدوات أخرى من الفولاذ والألمنيوم، كانت تلمع في الشمس. رأيا عدداً من الجنود المسلحين يقفون متأهبين، ولكنهما لم يريا أثراً للهنود. فقد اختفى أناس الضباب، مثلما يفعلون دائماً حيال الخطر. لقد أفادت هذه الاستراتيجية القبيلة كثيراً، بينما هناك هنود آخرون واجهوا الناهاب، فجرت إبادتهم أو دمجهم. ومن اندمجوا منهم في الحضارة تحولوا إلى متسولين، وفقدوا كرامة المحاربين وأرضهم، وصاروا يعيشون كالفئران. ولهذا السبب لم يسمح الزعيم موكاريتا مطلقاً لشعبه بالاقتراب من الناهاب أو أخذ هداياهم، وكان يؤكد أنه مقابل منجل متشيتي أو قبعة تأخذها القبيلة، ستنسى إلى الأبد أصولها، ولغتها، وآلهتها.

تساءل الصبيان عما يسعى إليه أولئك الجنود. فإذا كانوا يشكلون جزءاً من خطة إبادة هنود " عين الدنيا " فمن الأفضل عدم الاقتراب منهم. كانا

يتذكران كل كلمة من الحديث الذي سمعاه في سانتا ماريا دي لا ليوبيا بين النقيب آريوستو وماورو كاريّاس، وأدركا أن حياتيهما ستكون في خطر إذا ما حاولا التدخل.

بدأ المطر يهطل، مثلما يحدث مرتين أو ثلاث مرات كل يوم، في زخات غير متوقعة، قصيرة وعاصفة، تبلل كل شيء خلال لحظات وتتقطع فجأة، مخلفة العالم منعشاً ونظيفاً. أمضى الصديقان ما يقارب الساعة وهما يراقبان المعسكر من مخبئهما بين الأشجار، عندما رأيا جماعة من ثلاثة أشخاص تصل إلى القرية، لابد أنهم خرجوا لاستكشاف المنطقة المحيطة، وقد رجعوا الآن راكضين، مبللين حتى العظام. وعلى الرغم من بعد المسافة، فقد تعرفا عليهم فوراً: إنهم كاتي كولد، وسيسر سانتوس، والمصور تيموثي بروس. لم يستطع أليكس ونادیا كبح صرخة راحة: لأن هذا يعني أن البروفيسور ليبلانك والدكتورة أومايرا توريس قريبان أيضاً. وبوجود هؤلاء في القرية، لا يمكن للنقيب أريوستو وماورو كاريّاس أن يلجأا إلى استخدام الرصاص لإزاحة الهنود - أو إزاحتهما هما بالذات - من طريقهما.

خرج الشابان من مخبئهما واقتربا بحذر من تابيراوا - تيري، ولكنهما ما إن مشيا قليلاً حتى رآهما الحراس، ووجدا نفسيهما محاصرين على الفور. لم يكن ممكناً مقارنة صرخة السعادة التي أطلقتها كاتي كولد حين رأت حفيدها إلا بتلك التي أطلقها سيسر سانتوس وهو يرى ابنته. ركض الاثنان للقاء الصبيين اللذين تغطي جسديهما الخدوش والكدمات والقذارة، والمستنفدين بملابسهما الممزقة. وكان ألكسندر يبدو فوق ذلك مختلفاً بقصة شعره الهندية التي تكشف منتصف رأسه، حيث يوجد جرح تغطيه قشرة يابسة. رفع سانتوس ابنته ناديا بذراعيه المتينين وضمها إليه بقوة أوشك معها أن يكسر أضلاع بوروبا الذي تضمنه العناق أيضاً. أما كاتي كولد بالمقابل، فقد تمكنت من كبح موجة الحنان والراحة التي اجتاحتها، وما إن صار حفيدها في متناول يدها حتى وجهت صفعة إلى وجهه.

- هذه مقابل الرعب الذي جعلتني أشعر به يا ألكسندر. وإذا اختفيت مرة أخرى فسوف أقتلك - قالت الجدة. وكان كل رد أليكس على ذلك هو معانقتها.

حضـر الآخـرون علـى الفـور: مـاورو كاريّـاس، والنقيـب آريوسـتو، والدكتورة أومايرا توريس، والبروفيسور ليبلانك الذي لا يوصف، وكانت تغطي كل مكان من جسمه لسعات نحل. أما الهندي كاراكاوي، النفور كعادته، فلم تبد عليه المفاجأة حين رأى الصبيين.

- كيف وصلتما إلى هنا؟ المجيء إلى هذا المكان مستحيل دون طائرة هليوكبتر - سألهما النقيب آريوستو.

روى ألـيكس باختصـار مغامرتهمـا مـع شـعب الضـباب، دون أن يقـدم تفاصيل أو توضيحات عن المكان الذي صعدا عبره. ولم يـأت كذلك على ذكـر رحلته مـع ناديـا إلى التيبـوي المقـدس. وقـد افـترض أنـه لا يخـون السـر بذلك، لأن الناهاب صاروا يعلمون بوجود القبيلة. فقد كانت هناك إشارات واضـحة علـى أن الهنـود قـد أخلـوا القريـة قبـل سـاعات قليلـة: لأن درنـات المنـديوكا كانـت تتمصـى في السـلال، والجمـر مـا يـزال دافئـاً في المواقـد الصـغيرة، ولحـم الصـيد الأخـير يغـص بالـذباب في كـوخ العـازبين، وبعـض الحيوانات الداجنة ما زالت تجوب المكان. وكان الجنود قد قتلوا بضربات المتشيتي أفاعي البوا المسالمة، فبدأت أجسادها المبتورة تتعفن تحت الشمس.

سألهما ماورو كاريّاس:

- أين هم الهنود؟

- لقد ذهبوا بعيداً - ردت عليه ناديا.

- لا أظـن أنهـم اسـتطاعوا الابتعـاد كـثيراً ومعهـم النسـاء والأطفـال والشيوخ. لا يمكن لهم الاختفاء دون أن يخلفوا أثراً.

- إنهم غير مرئيين.

فصاح :

- فلنتكلم بجد أيتها الصغيرة.

- أنا أتكلم بجد دائماً.

- وهل ستقولين لي إن هؤلاء الناس يطيرون مثل الساحرات أيضاً؟

فقالت:

- إنهم لا يطيرون، ولكنهم يركضون بسرعة.

- أنت تعرفين التكلم بلغة الهنود، أليس كذلك أيتها الجميلة؟

- اسمي ناديا سانتوس.

- حسن يا ناديا سانتوس، هل تستطيعين التكلم معهم أم لا؟ -

ألح كارياس بنفاذ صبر.

- بلى.

تدخلت الدكتورة أومايرا توريس لتوضح الضرورة الملحة لتلقيح هنود القبيلة. فقد اكتشف وجود القرية، ولا بد أنه سيكون هناك اتصال مع الغرباء خلال وقت قصير. وقالت المرأة الجميلة متوسلة:

- ومثلما تعرفين يا ناديا، يمكن لنا، وإن لم نشأ ذلك، أن ننقل إليهم عدوى أمراض قاتلة. هناك قبائل كاملة هلكت خلال شهرين أو ثلاثة أشهر بسبب إصابة بالرشح. وأخطر الأمراض هي الحصبة. لدي اللقاحات، ويمكنني أن أحصن هؤلاء الهنود المساكين بالمناعة. وهكذا يكونون محميين. هل يمكنك مساعدتي؟

- سأحاول - وعدتها الفتاة.

- كيف تستطيعين التواصل مع القبيلة؟

- لا أعرف بعد، يجب علي أن أفكر في طريقة.

نقل ألكسندر كولد ماء الصحة إلى قارورة ذات سدادة محكمة، ووضعها بحذر في حقيبته. رأته جدته وأرادت أن تعرف ما الذي يفعله.

- هذا الماء لعلاج أمي - قال لها - لقد وجدت ينبوع الشباب الدائم الذي بحث عنه آخرون طوال قرون يا كاتي. أمي سوف تشفى.

و لأول مرة منذ وعي الفتى على الدنيا، بادرت جدته إلى إبداء لفتة حانية نحوه. أحس بذراعيها النحيلتين والعضليين يطوقانه، وبرائحة تبغ الغليون التي تميزها، وشعرها السميك المقصوص بضربات مقص غير منتظمة، وببشرتها الجافة والقاسية مثل جلد حذاء، وسمع صوتها الأجش ينطق باسمه وارتاب في أن جدته ربما تحبه قليلاً في نهاية المطاف. وما كادت كاتي كولد تنتبه إلى ما تفعله، حتى سارعت إلى الانفصال عنه بفظاظة، دافعة إياه نحو المنضدة، حيث كانت ناديا بانتظاره. انقض الصديقان الجائعان والمنهوكان على الفاصولياء، والرز، وخبز المنديوكا، وبعض الأسماك شبه المتفحمة والممتلئة بالحسك. وقد التهمها أليكس بشهية وحشية، أمام عيني كاتي كولد المذهولة، لأنها تعرف كم هو مزعج حفيدها في أمور الطعام.

و بعد الأكل استحم الصديقان مطولاً في النهر. كانا يعرفان أنهم

محاطون بهنود غير مرئيين يتابعون من بين الآجام كل حركة يقوم بها الناهاب. وبينما هما يلعبان في الماء، كانا يشعران بعيون الهنود مسلطة عليهما كما لو أنهم يلمسانهما باليد. وتوصلا إلى أنهم لا يقتربون بسبب وجود من يجهلونهم وطائرات الهليوكبتر التي لمحوها في السماء من قبل، ولكنهم لم يروها عن قرب قط. حاولا الابتعاد قليلاً، معتقدين أن أناس الضباب سيظهرون لهما إذا ما كانا وحيدين، ولكن التحركات كانت كثيرة في القرية ولم يتسن لهما التوغل في الغابة دون أن يلفتا الأنظار. ولحسن الحظ أن الجنود كانوا لا يتجرؤون على الابتعاد خطوة واحدة عن المعسكر، لأن القصص عن الوحش، والطريقة التي مزق بها أحشاء أحد زملائهم كانت ترعبهم. لم يكن هناك من ارتاد من قبل " عين الدنيا " وسمع عن الأرواح والشياطين التي تهيم في تلك المنطقة. ولكن خوف الجنود من الهنود كان أقل، لأن لديهم أسلحتهم النارية، فضلاً عن أن شيئاً من الدماء الهندية يجري في عروقهم.

عند الغروب جلس الجميع، باستثناء الحراس المناوبين في جماعات حول الموقد ليدخنوا ويشربوا. كان الجو كئيباً، فطلب أحدهم بعض الموسيقى لرفع المعنويات. فكان على أليكس أن يعترف بأنه قد أضاع ناي جوزيف كولد الشهير، ولكنه لم يستطع أن يقول أين فقده كيلا يذكر مغامرته في داخل التيبوي. وجهت إليه جدته نظرة قاتلة، ولكنها لم تقل شيئاً، متوجسة بأن حفيدها يخفي أشياء كثيرة. أخرج أحد الجنود هرمونيكا وعزف لحنين شعبيين، ولكن نواياه الطيبة ذهبت أدراج الرياح. فقد كان الخوف يسيطر على الجميع.

أخذت كاتي كولد الصبيين جانباً وروت لهما ما حدث في غيابهما، منذ أن خطفهما الهنود. فعندما انتبهوا إلى أنهما قد اختفيا، بدؤوا البحث عنهما فوراً، فخرجوا إلى الغابة حاملين المصابيح اليدوية، وراحوا ينادون عليهما طوال الليل. وقد أضاف ليبلانك إلى الغم العام هموماً أخرى بتنبؤاته الموفقة: لقد اختطفهما الهنود وهم يأكلونهما بالتأكيد في هذه اللحظات مشويين على السفود. وقد انتهز البروفيسور المناسبة ليطلعهم على الطريقة التي يقطع بها الهنود الكاريبيين أجزاء من لحم أسراهم الأحياء ليلتهموها

أمامهم. وأضاف: صحيح أنهما ليسا في يد الكاريبيين، الذين حضروا وأبيدوا منذ أكثر من مئة سنة، ولكن لا أحد يعرف المدى الذي يمكن أن تصل إليه التأثيرات الثقافية. وكان سيسر سانتوس على وشك الانقضاض باللكمات على الأنثروبولوجي.

و بعد ظهر اليوم التالي ظهرت الهليوكبتر الآتية لإنقاذهم أخيراً. فقد كان الزورق الذي حمل عاثر الحظ جويل غونثالث قد وصل دون مشاكل إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، حيث تولت راهبات المستشفى العناية بالمصاب. وتوصل الدليل الهندي ماتووي إلى الحصول على مساعدة ورافق هو نفسه طائرة الهليوكبتر التي جاء فيها أيضاً النقيب آريوستو. وقد كان حس التوجه لديه استثنائياً، إذ أنه استطاع، دون أن يكون قد ركب طائرة من قبل، تحديد الموقع في امتدادات الأدغال الخضراء، والإشارة بالضبط إلى المكان الذي ينتظر فيه أفراد حملة الانترناشيونال جيوغرافيك. وما كادت الحوامة تحط على الأرض، حتى أجبرت كاتي كولد النقيب على طلب تعزيزات بجهاز الاتصال، من أجل تنظيم عملية بحث منهجية عن الصبيين المختفيين.

و قاطع سيسر سانتوس الكاتبة ليضيف بأنها هددت النقيب أريوستو باللجوء إلى الصحافة، والسفارة الأمريكية، وحتى إلى المخابرات المركزية إذا هو لم يستجب لطلبها، وهكذا جاءت الهليوكبتر الثانية، وفيها مزيد من الجنود ومعهم ماورو كاريّاس. وقد أكدت أنها لا تفكر في الخروج من هناك دون حفيدها، حتى ولو اضطرت إلى أن تجوب منطقة الأمازون كلها مشياً على الأقدام.

- هل صحيح أنك قلت ذلك يا جدتي؟ - سألها أليكس مستمتعاً.

فزمجرت :

- ليس من أجلك يا ألكسندر. وإنما هي مسألة مبدأ.

في تلك الليلة شغلت ناديا سانتوس وكاتي كولد وأومايرا توريس إحدى الخيام، ولودفيك ليبلانك وتيموثي بروس خيمة أخرى، وماورو كاريّاس خيمته الخاصة، أما بقية الرجال فناموا في أراجيحهم بين الأشجار. وزرعوا حراساً في أربع جهات المعسكر واحتفظوا بمصابيح بترول مضاءة. وبالرغم من أن أحداً منهم لم يقل ذلك بصوت عال، إلا أن الجميع عرفوا أنهم

سيستبقون بذلك الوحش بعيداً عنهم. صحيح أن المصابيح تحولهم إلى هدف سهل للهنود، ولكن القبائل لم تكن تشن هجماتها حتى ذلك الحين في الظلام، لأن الهنود يخشون الشياطين الليلية التي تهرب من كوابيس البشر.
غفت ناديا، بنومها الخفيف، بضع ساعات، واستيقظت بعد منتصف الليل على شخير كاتي كولد. وبعد أن تأكدت من أن الدكتورة لا تتحرك كذلك، أمرت بوروبا بأن يبقى في مكانه، وانسلت بصمت إلى خارج الخيمة. كانت قد راقبت أناس الضباب باهتمام بالغ، مصممة على محاكاة قدرتهم في المرور دون لفت الأنظار، وهكذا اكتشفت أن الأمر لا يتمثل في إخفاء الجسد فقط، وإنما كذلك بالإرادة في التحول إلى اللامادية والتواري. لقد كانت بحاجة إلى التركيز من أجل بلوغ الحالة الذهنية للاختفاء، حيث يمكن لها أن تكون على بعد متر عن شخص آخر دون أن تُرى. وكانت تعرف متى تصل إلى هذه الحالة لأن تشعر بجسدها خفيفاً جداً، ثم تبدو كما لو أنها ذابت وامحت تماماً. كانت بحاجة إلى الحفاظ على نيتها دون سهو، ودون أن تسمح لأعصابها بأن تخونها، وهي الطريقة الوحيدة للبقاء مختفية أمام الآخرين. ولدى الخروج من خيمتها، كان عليها أن تنسل على مقربة من الحراس الذين يجوبون المعسكر، ولكنها فعلت ذلك دون أي خوف، محمية بذلك المجال العجيب الذي ولدته من حولها.

ما إن أحست بالأمان في الغابة التي يضيئها القمر بصورة مبهمة، حتى قلدت صوت البومة مرتين ووقفت تنتظر. وبعد هنيهة أحست إلى جوارها بحضور واليماي الصامت. طلبت من الساحر أن يكلم شعب الضباب ليقنعهم بالاقتراب من المعسكر وأخذ اللقاحات الوقائية. وقالت إنه لا يمكنهم الاختباء بين ظلال الأشجار إلى الأبد، وإذا ما حاولوا بناء قرية جديدة فسوف تكتشف " طيور الضجيج والريح " مكانهم. ووعدته بأنها ستتولى إيقاف راهاكاناريوا عند حده، وأن جغوار سيتفاوض مع الناهاب. وأخبرته أن لصديقها جدة متنفذة، ولكنها لم تحاول أن تشرح له قيمة الكتابة والنشر في الصحافة، فقد تصورت أن التشامان لن يفهم ما الذي تعنيه، لأنه يجهل الكتابة ولم ير في حياته قط ورقة مطبوعة. واكتفت بالقول له أن تلك الجدة تتمتع بسحر قوي في عالم الناهاب، وإن كان سحرها ضئيل النفع في " عين الدنيا ".

أما ألكسندر كولد من جهته، فقد نام في أرجوحة في الهواء الطلق،

منفصلاً بعض الشيء عن الآخرين. وكان يأمل في أن يتصل الهنود به خلال الليل، ولكنه استغرق في النوم مثل حجر. رأى في حلمه الجغوار الأسود. كان اللقاء مع حيوانه الطوطمي واضحاً ودقيقاً، حتى أنه لم يكن واثقاً في اليوم التالي مما إذا كان قد حلم أم أن ذلك قد حدث في الواقع. رأى نفسه في الحلم ينهض من أرجوحة نومه ويبتعد بحذر عن المعسكر، دون أن يراه الحراس. ولدى توغله في الغابة، بعيداً عن ضوء الموقد ونور مصابيح البترول، رأى الجغوار الأسود مستلقياً على فرع ثخين من شجرة كستناء ضخمة، كان ذيله يتحرك في الهواء، وعيناه تلمعان في الليل مثل قطعتي زبرجد متلألئتين، تماماً مثلما رآه في رؤياه، حين شرب من شراب واليماي السحري: يمكن لأسنانه وبراثنه أن تمزق تمساحاً، ولعضلاته أن تجري بسرعة الريح، ويمكن له بقوته وشجاعته أن يواجه أي عدو. إنه حيوان سحري، ملك الضواري، ابن الشمس – الأب، أمير الميثولوجيا الأمريكية وتوقف الفتى في الحلم على بعد أمتار قليلة من الجغوار، ومثلما حدث في لقائه الأول في فناء معسكر ماورو كاريّاس، سمع الصوت الكهفي يحييه باسمه: ألكسندر.. ألكسندر... كان الصوت يرن في دماغه مثل صنج نحاسي ضخم، مكرراً اسمه مرة بعد أخرى. ما الذي يعنيه الحلم؟ ما هي الرسالة التي يود الجغوار الأسود إيصالها إليه؟

استيقظ عندما كان الجميع في المعسكر قد نهضوا. حلم الليلة السابقة المعيش سبب له الغم، فقد كان واثقاً من أنه يتضمن رسالة، ولكنه لم يستطع تفسيرها. الكلمة الوحيدة التي قالها الجغوار في ظهوره هي اسمه، ألكسندر. ولا شيء غير ذلك. اقتربت جدته وهي تحمل فنجان قهوة بحليب مكثف، وهو شيء ما كان يقبل تذوقه من قبل، ولكنه يبدو له الآن فطوراً لذيذاً. وفي لحظة اندفاع، روى لها الحلم.

- حامي البشر - قالت جدته.

- ماذا؟

- هذا هو معنى اسمك. ألكسندر هو اسم يوناني يعني الحامي.

- لماذا أطلقوا علي هذا الاسم ياكاتي؟

- بسببي. أبواك كانا يريدان تسميتك جوزيف، مثل جدك، ولكنني أصررت على تسميتك ألكسندر، مثل الاسكندر الأكبر، المحارب العظيم في التاريخ القديم. ألقينا قطعة نقد في الهواء وكسبت أنا. ولهذا

صار هذا هو اسمك - أوضحت له كاتي.

- وكيف خطر لك أنني يجب أن أسمى هكذا؟

- هناك الكثير من الضحايا والقضايا النبيلة التي يجب الدفاع عنها في هذا العالم يا ألكسندر. واسم محارب مشهور يساعد في النضال من أجل العدالة.

- سيخيب أملك بي يا كاتي، فأنا لست بطلاً.

- سوف نرى - ردت علي وهي تقدم له الفنجان.

الإحساس بأن هناك مئات العيون تراقبهم جعل جميع من في المعسكر عصبيين. فخلال السنوات القليلة السابقة تعرض عدد من الموظفين الحكوميين، المبعوثين لمساعدة الهنود، إلى القتل على يد القبائل نفسها التي يريدون حمايتها. في بعض الأحيان يكون اللقاء الأول حميماً، يتبادلون فيه الهدايا والأطعمة، ولكن الهنود يشهرون أسلحتهم فجأة ويهاجمون على حين غرة. الهنود عنيفون ولا يمكن التكهن بنواياهم، قال ذلك النقيب آريوستو الذي كان متفقاً تماماً مع نظريات ليبلانك، ولهذا لا يمكنه تخفيف الحراسة بل ويجب عليهم البقاء متيقظين طوال الوقت. تدخلت ناديا لتقول إن أناس الضباب مختلفون، ولكن أحداً لم يولها اهتماماً.

أوضحت الدكتورة أومايرا توريس أن عملها كطبيبة خلال السنوات العشر الماضية كان يتركز أساساً بين قبائل نشر بينها السلام، وإنها لا تعرف شيئاً عن هؤلاء الهنود الذين تطلق عليهم ناديا اسم أناس الضباب. وإنها تأمل في كل الأحوال أن يحالفها الحظ أكثر من السابق وتتمكن من تلقيحهم قبل أن يصابوا بالعدوى. واعترفت بأن لقاحاتها قد وصلت متأخرة في عدة مناسبات سابقة. فقد كانت تحقن الهنود باللقاح، ولكنهم يمرضون بعد أيام قليلة ويموتون بالمئات.

في تلك الأثناء كان لودفيك ليبلانك قد فقد صبره تماماً. فهو لم يتوصل في مهمته إلى نتيجة، وعليه أن يعود صفر اليدين، دون الحصول على أخبار عن وحش الأمازون الشهير. ماذا سيقول لناشري الانترناشيونال جيوغرافيك؟ أيقول لهم إن جندياً قد لقي مصرعه ممزقاً في ظروف غامضة، وإنهم تعرضوا لرائحة كريهة جداً، وإنه هو نفسه قد تمرغ في براز حيوان غير معروف. إنها وبكل صراحة ليست بالأدلة المقنعة على وجود الوحش. وليس باستطاعته كذلك أن يضيف شيئاً حول هنود المنطقة، لأنه

لم يتمكن حتى من مجرد لمحهم. لقد ضيع وقته بصورة بائسة. وهو لا يتصور كيف سيعود إلى جامعته، حيث يعاملونه كبطل. وكل هذا دون ذكر لسع النحل والمنغصات الأخرى. أما علاقته بالفريق فلم تكن على ما يرام، وعلاقته بكاراكاوي صارت كارثية، فالهندي الذي تعاقد معه كمساعد شخصي توقف عن التهوية له بورقة موز بعد مغادرتهم سانتا ماريا دي لا ليوبيا، وبدلاً من أن يخدمه، راح يحول له حياته إلى مشقات. وقد اتهمه ليبلانك بوضع عقرب حي في حقيبته ودودة ميتة في قهوته، وبأنه أخذه كذلك بسوء نية إلى المكان الذي لسعه فيه النحل. وكان أعضاء البعثة الآخرين يتسامحون مع البروفيسور لأنه شخص متباه ويمكنهم السخرية منه في وجهه دون أن يعتبر نفسه معنياً. فقد كان ليبلانك يأخذ نفسه على محمل الجد إلى حد لا يمكنه أن يتصور أن هناك من لا ينظر إليه على ذلك النحو.

أرسل ماورو كاريّاس جماعات من الجنود للاستطلاع في عدة اتجاهات. فذهب الرجال مستائين ورجعوا سريعاً، دون أن يأتوا بأي أخبار عن القبيلة. كما حلقوا بالحوامة فوق المنطقة، على الرغم من أن كاتي كولد قد نبهتهم إلى أن الضجيج سيرعب الهنود. ونصحتهم الكاتبة بالانتظار بصبر: فالهنود سيعودون عاجلاً أو آجلاً إلى قريتهم. وكانت هي، مثل ليبلانك مهتمة بالوحش أكثر من اهتمامها بالسكان الأصليين، لأنه عليها أن تكتب مقالها. وقد سألت حفيدها:

- هل تعرف شيئاً عن الوحش لم تخبرني به يا ألكسندر؟

- ممكن وغير ممكن... - أجابها الفتى دون أن يتجرأ على النظر إلى وجهها.

- أي نوع من الأجوبة هذا؟

عند منتصف النهار عمّت المعسكر حالة استنفار: فقد ظهرت هيئة بشرية من الغابة، وراحت تقترب بحياء. أومأ إليها ماورو كاريّاس مستدعياً إياها بحركات ودودة، بعد أن أمر الجنود بالتراجع، كيلا يخيفوها. قدم المصور تيموثي بروس الكاميرا الفوتوغرافية إلى كاتي كولد، وتناول هو الكاميرا الفيلمية: فالاتصال الأول مع قبيلة هو مناسبة فريدة. تعرفت ناديا وأليكس على الزائر فوراً، إنها إيومي، زعيمة زعماء تابيراوا - تيري. وقد جاءت وحيدة، عارية، وهرمة بصورة لا تصدق، تغطي جسدها التجعدات

وفمها بلا أسنان، تستند إلى عصا منحنية تستخدمها كعكاز، وتضع على رأسها قبعة الرياش الصفراء المستديرة وقد غطست حتى أذنيها. اقتربت خطوة خطوة، أمام دهشة الناهاب. استدعى ماورو كاريّاس الهنديين كاراكاوي وماتووي ليسألهما إذا ما كانا يعرفان القبيلة التي تنتمي إليها تلك المرأة، ولكن أياً منهما لم يكن يعرف ذلك. فتقدمت ناديا عندئذ قائلة:

- أنا أستطيع التكلم معها.

فقال لها ماورو كاريّاس:

- قولي لها إننا لن نلحق بها الأذى، وإننا أصدقاء لشعبها، فليحضروا لمقابلتنا دون أسلحة، لأن لدينا هدايا كثيرة لها وللآخرين.

ترجمت ناديا ما قاله ترجمة حرة، دون أن تأتي على ذكر الجزء المتعلق بالأسلحة، لأن الفكرة لم تبد لها جيدة وهي ترى كمية الأسلحة التي يحملها الجنود.

- لا نريد هدايا الناهاب، نريدهم أن ينصرفوا من " عين الدنيا ". - أجابت إيومي بحزم.

فأوضحت ناديا للعجوز:

- غير ممكن فهم لن يذهبوا.

- سيقتلهم محاربو قبيلتي إذن.

- سيأتي آخرون، أكثر عدداً بكثير، وسيموت جميع المحاربين.

- محاربونا أقوياء، وهؤلاء الناهاب لا يحملون أقواساً ولا سهاماً، وهم ثقيلو الحركة، بليدون، رؤوسهم طرية، وهم يخافون كذلك كالأطفال.

فتوسلت إليها ناديا:

- الحرب ليست الحل يا زعيمة الزعماء. علينا أن نتفاوض.

- أية شياطين تقولها هذه العجوز؟ - سأل كاريّاس فاقداً الصبر لأن الفتاة لم تترجم له شيئاً.

فاختلقت ناديا:

- تقول إن شعبها لم يأكل منذ عدة أيام وهم في جوع شديد.

- قولي لها إننا سنقدم لهم كل ما يحتاجون إليه من طعام.

- إنهم خائفون من الأسلحة - أضافت ناديا ذلك، على الرغم من أن الهنود لم يروا من قبل مسدساً أو بندقية، وهم لا يعرفون شيئاً عن قدراتها

القاتلة.

أصدر ماورو كاريّاس أمراً إلى الرجال بترك أسلحتهم جانباً كعلامة حسن نية، ولكن ليبلانك تدخل بهلع ليذكّرهم بأن من عادة الهنود الغدر. وبناء على ذلك، تركوا البنادق الرشاشة، ولكنهم استبقوا المسدسات في أحزمتهم. تلقت إيومي قصعة لحم وأرز من يدي الدكتورة أومايرا توريس ومضت مبتعدة من حيث جاءت. حاول النقيب آريوستو اللحاق بها ولكنها اختفت خلال أقل من دقيقة وسط الخضرة.

أمضوا بقية النهار يرصدون الغابة الكثيفة دون أن يروا أحداً، وكانوا يتحملون في أثناء ذلك تحذيرات ليبلانك، الذي ينتظر مجيء جيش من أكلة لحوم البشر للانقضاض عليهم. فالبروفيسور المسلح حتى الأسنان والمحاط بجنود، بقي يرتجف بعد زيارة تلك الجدة العارية التي تضع قبعة من الريش الصفر. انقضت الساعات دون حوادث، باستثناء لحظة توتر وقعت عندما فاجأت الدكتورة أومايرا توريس كاراكاوي وهو يدس يديه في علبة لقاحاتها. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك. وقد تدخل ماورو كاريّاس ليحذر الهندي من أنه إذا ما رآه يقترب ثانية من الأدوية، فإن النقيب آريوستو سوف يعتقله فوراً.

في المساء، عندما صارت تراودهم الشكوك في إمكانية عودة العجوز، تجسدت أمام المعسكر قبيلة أناس الضباب بكاملها. في البدء رأوا النساء والأطفال، غير محسوسين، باهتين، مبهمين. تأخروا بضع ثوان في رؤية الرجال، وكانوا في الحقيقة قد وصلوا قبلاً ووقفوا في نصف دائرة. لقد انبثقوا من العدم، صامتين، متكبرين، يقودهم تاهاما، وقد طلوا أجسادهم للحرب بأحمر شجرة الأونوتو، وسواد الفحم، وبياض الكلس، وخضرة النبات، وتزينوا بالريش، وبعقود الأسنان والمخالب والبذور، يحملون كل أسلحتهم بأيديهم. كانوا في وسط المعسكر، ولكنهم يتكيفون تماماً مع الوسط المحيط بهم بحيث تتطلب رؤيتهم بوضوح تدقيق النظر. كانوا خفيفين، أثيرين، يبدون وكأنهم مرسومين في المشهد، إنما لم يكن هناك من شك كذلك في أنهم قساة وشديدو البأس.

مضت دقائق طويلة وكل فريق منهما يتفحص الآخر بصمت، الهنود الشفافون في جانب، وفي الجانب الآخر الغرباء المرتبكون. وأخيراً استيقظ ماورو كاريّاس من المفاجأة وبدأ العمل بتوجيه التعليمات للجنود لكي

يقدموا الطعام ويهيئوا الهدايا. رأى أليكس ناديا، والأسى يملأ قلبيهما، النساء والأطفال يتلقون تلك الهدايا التافهة التي يريدون اجتذابهم بها. لقد كانا يعرفان أنه على هذا النحو، بهذه الهدايا البريئة، تبدأ نهاية القبائل. بقي تاهاما ومحاربوه واقفين، في حالة تأهب، دون أن يفلتوا أسلحتهم. أخطر ما لديهم هي الهراوات الغليظة التي يمكنهم المهاجمة بها في ثانية واحدة، أما التسديد بسهم فيتأخر أكثر، وهذا يتيح الوقت للجنود لإطلاق النار.

- اشرحي لهم عن اللقاحات يا حلوة - أمر ماورو كاريّاس الفتاة.

فردت عليه:

- ناديا، اسمي ناديا سانتوس.

- هذا من أجل خيرهم يا ناديا - أضافت الدكتورة - أضافت الدكتورة أومايرا توريس – إنهم يخافون وخز الإبرة ولكن ما تسببه من ألم أقل من لسعة بعوضة. ربما يرغب الرجال في أن يكونوا البادئين، ليكونوا قدوة للنساء والأطفال...

- ولماذا لا تكون حضرتك المثل والقدوة؟ - توجهت ناديا بالسؤال إلى ماورو كاريّاس.

تلاشت الابتسامة المتقنة، الحاضرة دوماً، من وجه رجل الأعمال البرونزي، حيال تحدي الفتاة، وظهر ملمح رعب في عينيه لبرهة عابرة. وقد فكر أليكس الذي كان يراقب المشهد في أنه رد فعل مبالغ فيه. إنه يعرف أن هناك أناس يخافون الحقن، ولكن وجه كارياس بدا كما لو أنه قد رأى دراكولا.

ترجمت ناديا ما قيل، وبعد نقاش طويل، تردد فيه اسم راهاكاناريوا مرات عديدة، وافقت إيومي على التفكير في الأمر والتشاور بشأنه مع القبيلة. وبينما هم في وسط هذا الحديث عن اللقاحات، دمدمت إيومي فجأة بأمر لم يفهمه الغرباء، فتلاشى أناس الضباب على الفور بالسرعة التي ظهروا بها. انسحبوا إلى الغابة كالظلال، دون أن يُسمع وقع خطوة واحدة، أو صوت كلمة واحدة، أو بكاء طفل واحد. وطوال الليل تناوب جنود آريوستو على الحراسة، منتظرين هجوماً في أي لحظة.

استيقظت ناديا في منتصف الليل حين أحست أن الدكتورة أومايرا توريس غادرت الخيمة. توقعت أنها ذاهبة لقضاء حاجة بين الشجيرات،

ولكن هاجساً راودها فقررت اللحاق بها. كانت كاتي كولد تشخر في نومها العميق الذي يميزها، ولم تعلم بتحركات زميلتيها. تقدمت ناديا بصمت قط، مستفيدة من موهبة الاختفاء التي تعلمتها حديثاً. اختبأت وراء بعض أوراق السرخس، ورأت شبح الدكتورة على ضوء القمر الخافت. بعد دقيقة اقترب شبح آخر، وحيال مفاجأة ناديا، أمسك ذلك الشخص الدكتورة من خصرها وقبلها، فقالت له :

- إنني خائفة.

- لا تخافي يا حبي. كل شيء سيجري على ما يرام. خلال يومين سننتهي ونتمكن من العودة إلى الحضارة. أنت تعرفين أنني بحاجة إليك...

- هل تحبني حقاً؟

- أحبك بالطبع. إنني أعبدك، سأسعدك، وستحصلين على ما ترغبين فيه.

رجعت ناديا متسللة إلى الخيمة، استلقت على حصيرتها وتظاهرت بالنوم.

الرجل الذي كان مع الدكتورة أومايرا توريس هو ماورو كاريّاس.

رجع أناس الضباب في الصباح. النساء كن يحملن سلالاً من الثمار وتابيراً ضخماً ميتاً، رداً على الهدايا التي تلقينها في اليوم السابق. بدا سلوك المحاربين أكثر تهاوناً، ومع أنهم لم يفلتوا هراواتهم، إلا أنهم أبدوا فضول النساء والأطفال نفسه. كانوا ينظرون من بعيد، ودون أن يقتربوا، إلى طيور الضجيج والريح الضخمة، ويلمسون ملابس وأسلحة الناهاب، ويقلبون ممتلكاتهم، ويدخلون إلى الخيام ويتخذون أوضاعاً مختلفة أمام الكاميرات، ويضعون حول أعناقهم عقود البلاستيك ويجربون مناجل المتشيتي والسكاكين بانبهار.

قدرت الدكتورة توريس أن الوقت ملائم لبدء عملها. فطلبت من ناديا أن توضح للهنود مرة أخرى الحاجة الملحة لحمايتهم من الأوبئة، ولكن هؤلاء لم يكونوا مقتنعين. والسبب الوحيد الذي جعل النقيب آريوستو يمتنع عن إجبارهم على الانصياع بقوة الرصاص هو وجود كاتي كولد وتيموثي بروس، لا يمكنه اللجوء إلى القوة البهيمية أمام الصحافة، عليه الحفاظ على المظاهر. ولم يكن أمامه من مخرج سوى أن ينتظر بصبر نتائج النقاش بين ناديا سانتوس والقبيلة. ولم يخطر ببال الضابط أنه ليس من اللياقة في شيء قتلهم بالرصاص للحيلولة دون موتهم من الحصبة.

ذكرت ناديا الهنود بأن إيومي عينتها زعيماً لتهدئة الراهاكاناريوا الذي يعاقب البشر عادة بأوبئة رهيبة ولهذا عليهم أن يطيعوها. وتتوعت لأن تكون أول من يتلقى وخزة اللقاح، ولكن ذلك بدا مهيناً لتاهاما ومحاربيه. فقالوا أخيراً إنهم سيكونون أول من يتلقى اللقاح. فترجمت قرار أناس الضباب وهي تطلق زفرة رضى.

طلبت الدكتورة أومايرا توريس وضع منضدة في الظل ووضعت عليها حقنها وزجاجاتها، بينما كان ماورو كارياس يحاول تنظيم القبيلة في رتل، ليضمن بذلك عدم بقاء أحد منهم دون لقاح.

و في أثناء ذلك اقتادت ناديا أليكس جانباً لتخبره بما شهدته في الليلة السابقة. لم يحسن أي منهما تفسير ذلك المشهد، ولكنهما شعرا بصورة مبهمة بأنهما وقعا ضحية خيانة. فكيف يمكن لأومايرا توريس الرقيقة أن تقيم علاقة مع ماورو كاريّاس، الرجل الذي يحمل قلبه في حقيبة يد؟ واستنتجا أن ماورو كارياس قد غرر دون شك بالدكتورة الطيبة، ألا يقال إنه يلاقي نجاحاً كبيراً مع النساء؟ ناديا وأليكس لم يجدا أي نوع من الجاذبية في ذلك الرجل، ولكنهما توقعا بأنه يمكن للباقته وأمواله أن تخدع آخرين. لا بد أن الخبر سيكون له وقع القنبلة على المعجبين بالدكتورة: سيسر سانتوس، وتيموثي بروس، وحتى البروفيسور لودفيك ليبلانك.

- هذا وضع لا يروقني أبداً. - قال أليكس.

فسخرت منه ناديا:

- هل تشعر بالغيرة أنت أيضاً؟

- لا! - صاح بسخط، ثم أضاف: - ولكنني أشعر بشيء هنا في صدري، شيء كأنه ثقل رهيب.

- السبب هو الرؤيا التي رأيناها معاً في مدينة الذهب، ألا تتذكر؟ عندما شربنا مشروب واليماي للأحلام الجماعية، ورأينا جميعنا الحلم نفسه، بمن في ذلك الوحوش.

- صحيح. ذلك الحلم يشبه حلماً آخر رأيته قبل بدء هذه الرحلة: طائر رخمة هائل اختطف أمي وحملها محلقاً. وقد فسرته عندئذ على أنه الداء الذي يهدد حياتها، فكرت في أن الطائر يمثل الموت. وفي التيبوي حلمنا بأن الراهاكاناريوا يحطم الصندوق الذي هو حبيس فيه، وأن الهنود مقيدون

إلى الأشجار، هل تتذكرين؟

- أجل، وحلمنا بأن الناهاب يضعون أقنعة. ما هو تفسير الأقنعة يا جفوار؟

- سرّ، كذب، خيانة.

- وما هو برأيك سبب اهتمام ماورو كاريّاس الكبير في تلقيح الهنود؟

بقي السؤال معلقاً في الهواء مثل سهم توقف في أوج انطلاقه. تبادل الصديقان النظرات مرعوبين. لقد أدركا في لحظة إشراق حقيقية المصيدة الرهيبة التي وقعوا فيها جميعهم: فراهاكاناريوا هو الوباء. والموت الذي يهدد القبيلة ليس طائراً خرافياً، وإنما هو أكثر تحديداً ومباشرة. ركضا إلى وسط القرية، حيث كانت الدكتورة أومايرا توريس توجه إبرة حقنتها إلى ذراع تاهاما. ودون أن يفكر اليكس في الأمر، ألقى بنفسه مثل نيزك على المحارب طارحاً إياه على ظهره فوق الأرض. نهض تاهاما قافزاً ورفع الهراوة ليسحق بها الفتى كصرصار، ولكن صرخة مدوية أطلقتها ناديا أوقفت ذلك السلاح في الهواء.

- لا! لا! الراهاكاناريوا موجود هناك - صرخت ناديا بذلك وهي تشير إلى عبوات اللقاح.

ظن سيسر سانتوس أن ابنته قد أصيبت بمس من الجنون، فحاول تثبيتها، ولكنها تخلصت من بين ذراعيه وركضت لتنضم إلى اليكس وهي تصرخ وتلوح بيديها ضد ماورو كاريّاس الذي اعترض طريقها. وحاولت أن تشرح للهنود بأقصى سرعة أنها قد أخطأت، وأن اللقاحات لن تنقذهم، بل على العكس، ستقتلهم، لأن راهاكاناريوا في الحقنة.

ـ 18 ـ

بقع من الدماء

لم تفقد الدكتورة أومايرا توريس هدوء أعصابها. قالت إن كل ذلك ما هو إلا تهيؤات من الطفلين، وإن الحر قد شوش دماغيهما، وأمرت النقيب آريوستو بأن يأخذهما بعيداً. واستعدت في الحال لمواصلة مهمتها التي قوطعت، بالرغم من أن مزاج القبيلة كان قد تبدل تماماً في أثناء ذلك. وفي تلك اللحظة، حين كان النقيب آريوستو مستعداً لفرض النظام بالرصاص، وبينما الجنود يمسكون بناديا وأليكس، تقدم كاراكاوي الذي لم يكن قد نطق طوال الرحلة بأكثر من نصف دزينة من الكلمات، وصاح:

- لحظة واحدة!

و أمام حيرة الجميع، أعلن ذلك الرجل الذي لم يتفوه بأكثر من نصف دزينة من الكلمات خلال الرحلة، أنه موظف في دائرة حماية السكان الأصليين، وأوضح بالتفصيل أن مهمته تتمثل في التقصي عن سبب وفاة هنود الأمازون بصورة جماعية، وخصوصاً أولئك الذين يعيشون قريباً من مكامن الذهب والماس. كان يشك منذ بعض الوقت بماورو كاريّاس، الرجل الذي استفاد أكثر من سواه من استغلال المنطقة.

- صادر اللقاحات أيها النقيب آريوستو! - قال كاراكاوي آمراً، ثم أضاف: - سأتولى فحصها في المختبر. وإذا كنت مصيباً فإن هذه العبوات لا تتضمن لقاحات، وإنما جرعات من فيروس الحصبة.

و كان جواب النقيب الوحيد على ذلك هو توجيهه سلاحه وإطلاق النار على صدر كاراكاوي. فهوى الموظف الحكومي ميتاً على الفور. دفع ماورو كارياس الدكتورة أومايرا توريس جانباً، وأخرج مسدسه، وفي اللحظة التي ركض فيها سيسر سانتوس لتغطية المرأة بجسده، أفرغ كارياس مسدسه على عبوات اللقاحات المصفوفة على المنضدة، فهشمها فتاتاً، واندلق السائل على الأرض.

تسارعت الأحداث بعنف لم يستطع معه أحد فيما بعد رواية ما جرى بدقة، فقد كانت لكل واحد روايته المختلفة. ولكن تصوير تيموثي بروس الفيلمي سجل جزءاً من الوقائع، وبقي الجزء الآخر محفوظاً في آلة التصوير التي تحملها كاتي كولد.

حين رأى الهنود العبوات المهشمة، ظنوا أن راهاكاناريوا قد هرب من حبسه، وأنه سيعود إلى اتخاذ هيئة الطائر آكل اللحم البشري ليلتهمهم. فأطلق تاهاما صرخة يقشعر لها البدن، وقبل أن يتمكن أحد من منعه، وجه بهراوته ضربة مهيبة إلى رأس ماورو كارياس الذي هوى مثل كيس على الأرض. استدار النقيب آريوستو بسلاحه نحو تاهاما، لكن أليكس انقض على ساقيه، وقفزت ناديا وبوروبا على وجهه، فضاعت رصاصات النقيب في الفضاء، مما منح تاهاما الوقت للتراجع، يحميه محاربوه الذين شهروا أقواسهم.

خلال الثواني القليلة التي احتاج إليها الجنود لينظموا أنفسهم ويخرجوا مسدساتهم، كانت القبيلة قد تفرقت. هربت النساء والأطفال مثل السناجب، واختفوا في الخضرة الكثيفة، وتمكن الرجال من إطلاق عدة سهام قبل أن يهربوا كذلك. فراح الجنود يطلقون النار عشوائياً ودون تمييز، بينما كان أليكس ما يزال يتصارع مع آريوستو على الأرض، تساعده ناديا وبوروبا. وجه النقيب ضربة بعقب مسدسه على فك الصبي أطارت صوابه، ثم أبعد عنه ناديا والقرد بالصفعات. هرعت كاتي كولد لنجدة حفيدها، وسحبته بعيداً عن مركز إطلاق النار. ولم يعد هناك من يسمع أصوات آريوستو الآمرة، وسط ذلك الصراخ والاضطراب.

لطخت الدماء القرية خلال تلك الدقائق القصيرة: فقد سقط ثلاثة جنود جرحى بالسهام، وقُتل عدد من الهنود، إضافة إلى جثة كاركاوي وجسد ماورو كارياس الخامد. لقد سقطت إحدى النساء الهنديات مصابة بالرصاص وبقي الطفل الذي كانت تحمله بين ذراعيها مطروحاً على الأرض على بعد خطوات منها. عندئذ أقدم لودفيك ليبلانك على رد فعل غير متوقع، وهو الذي بقي منذ ظهور القبيلة على مسافة حذرة، متمترساً وراء شجرة. لقد تصرف حتى ذلك الحين وكأنه حزمة أعصاب، ولكنه عندما رأى الطفل معرضاً للعنف، استخرج جرأة من مكان ما، واجتاز ميدان المعركة راكضاً وحمل ذلك المخلوق المسكين بين ذراعيه. كان طفلاً لا

يزيد عمره عن بضعة شهور، ملطخاً بدم أمه، ويبكي صارخاً بيأس. بقي ليبلانك هناك، وسط الفوضى، محتضناً الطفل إلى صدره، ومرتجفاً من الغضب والارتباك. لقد انقلبت أسوأ كوابيسه إلى نقيضها: فالمتوحشون ليسوا الهنود، وإنما من هم معه. وأخيراً اقترب من كاتي كولد التي كانت تحاول مسح فم حفيدها الدامي بقليل من الماء، وقدم إليها الطفل الرضيع قائلاً:

- هيا يا كولد، أنت امرأة، وستعرفين ما عليك عمله بهذا الوليد.

والكاتبة التي فوجئت، تلقت الطفل مثبتة إياه بذراعيها الممدودين، كما لو أنه مزهرية. فهي لم تحمل طفلاً منذ سنوات طويلة، ولم تدر ما يمكنها أن تفعل به.

في أثناء ذلك كانت ناديا قد تمكنت من الوقوف، وراحت تتأمل الميدان المزروع بالأجساد. اقتربت من الهنود، محاولة التعرف عليهم، ولكن أباها أجبرها على التراجع وهو يحتضنها، منادياً إياها باسمها، ومدمدماً بكلمات مطمئنة. تمكنت ناديا من التأكد من أن إيومي وتاهاما ليسا بين الجثث، وفكرت في أنه ما زال لدى شعب الضباب على الأقل اثنين من زعمائهم، لأن الاثنين الآخرين، نسر وجغوار، خيبا ظنهم.

- قفوا جميعكم إلى جانب هذه الشجرة - قال النقيب آريوستو آمراً أعضاء البعثة. كان الضابط شاحباً، والسلاح يرتعش في يده. فقد ساءت الأمور جداً.

انصاعت كاتي كولد، وتيموثي بروس، والبروفيسور ليبلانك والصبيان للأمر. كان أحد أسنان أليكس قد كُسر، وامتلأ فمه دماً، وهو ما يزال مشوشاً من الضربة بعقب المسدس على فكه. بدت ناديا في حالة الصدمة، في صدرها صرخة حبيسة، وعيناها مثبتتان على الهنود الميتين والجنود الذين يئنون على الأرض. أما الدكتورة أومايرا توريس فكانت غائبة عن كل ما يحيط بها ومستحمة بالدموع، تسند رأس ماورو كارياس على ساقيها. تقبل وجهه طالبة منه ألا يموت، وألا يتركها، بينما ثيابها مبللة بالدم. وكانت تردد مرة بعد أخرى كما في ترتيلة:

- كنا سنتزوج..

- الدكتورة متواطئة مع ماورو كارياس. لقد كان يعنيها هي عندما قال إن شخصاً يثق به سيسافر مع الحملة، هل تتذكرين؟ وكنا نحن نتهم

كاراكاوي! - همس أليكس لناديا، ولكنها كانت غارقة في الرعب، وغير قادرة على سماعه.

أدرك الفتى أن خطة رجل الأعمال لإبادة الهنود بجائحة حصبة تتطلب مشاركة الدكتورة توريس. فمنذ عدة سنوات والسكان الأصليون يموتون بالجملة ضحايا هذا المرض أو غيره من الأمراض، على الرغم من جهود السلطات لحمايتهم. فما إن ينتشر وباء حتى لا يعود بالإمكان عمل شيء، لأن الهنود يفتقدون المناعة، فقد عاشوا معزولين لآلاف السنين، ولا يمكن لجهاز مناعتهم المكتسبة أن يقاوم فيروسات البيض، ويمكن لإصابة بسيطة بالرشح أن تودي بحياتهم خلال أيام قليلة، فما بالك بأمراض أخرى أخطر شأناً. وكان الأطباء الذين يدرسون المشكلة لا يفهمون سبب عدم توصل أي إجراء احتياطي إلى النتائج المنشودة. ولم يكن هناك من يتصور أن أومايرا توريس، المكلفة بتلقيح الهنود، هي من تحقنهم بالموت، حتى يتمكن عشيقها من الاستيلاء على أراضيهم.

كانت المرأة قد أجهزت على عدة قبائل دون أن تثير الشكوك، مثلما كانت تنوي أن تفعل بشعب الضباب. ما الذي وعدها به كارياس لكي تقترف مثل تلك الجرائم الكبيرة؟ ربما لم تفعل ذلك من أجل المال، وإنما حباً بالرجل فقط. ولكن سواء أفعلت ذلك بدافع الحب أم الطمع، فإن النتيجة هي نفسها: مقتل مئات من الرجال والنساء والأطفال. ولولا أن ناديا سانتوس قد رأت أومايرا توريس وماورو كارياس يتبادلان القبلات، لما اكتُشفت مخططات هذين الشخصين. وقد تم إحباط الخطة بفضل تدخل كاراكاوي في الوقت المناسب، رغم أن هذا الأخير قد دفع حياته ثمناً لذلك.

لقد بدأ ألكسندر كولد يفهم الآن الدور الذي خصصه ماورو كارياس لأعضاء بعثة الانترناشيونال جيوغرافيك. فبعد أسبوعين من تلقيح الهنود بفيروس الحصبة، سينتشر الوباء في القبيلة ويمتد إلى قرى أخرى بسرعة كبيرة. عندئذ سيشهد البروفيسور لودفيك ليبلانك أمام الصحافة العالمية بأنه كان حاضراً عندما جرى اللقاء الأول مع شعب الضباب. وليس بالإمكان اتهام أحد: فقد اتخذت الاحتياطات اللازمة لحماية القرية. وسيجد الأنثروبولوجي دعماً في تحقيق كاتي كولد الصحفي وصور تيموثي بروس، ويتمكن من التدليل على أن جميع أفراد القبيلة قد لقحوا

بالمصل الواقي. وهكذا سيكون الوباء أمام أعين العالم نكبة لا سبيل إلى تجنبها، ولن تراود أحداً أية شكوك أخرى، ويضمن ماورو كارياس بذلك أنه لن يُفتح تحقيق حكومي. إنه منهج في الإبادة فعال ونظيف، لا يترك أثراً من الدم، مثلما يفعل الرصاص والقنابل التي استخدمت لسنوات ضد السكان الأصليين من أجل تطهير أراضي الأمازون وفتح الطريق أمام الباحثين عن الذهب والمهربين والمستوطنين والمغامرين.

حين سمع النقيب آريوستو اتهامات كاراكاوي، فقد رشده وقتله في لحظة اندفاع ليحمي كارياس، ويحمي نفسه كذلك. كان يتصرف بالضمانة التي يوفرها له زيه العسكري. ففي هذه المنطقة النائية وغير المأهولة تقريباً، حيث لا تصل ذراع القانون الطويلة، لن يجادله أحد في ما يقوله، مما يمنحه صلاحيات وسلطات خطيرة. لقد كان رجلاً فظاً وبلا وازع من ضمير، أمضى سنوات في المواقع الحدودية، وكان معتاداً على العنف. وكما لو أن سلاحه الذي على خصره ووضعه الرسمي لم يكونا كافيين، فقد راح يعتمد كذلك على حماية ماورو كارياس. وكان رجل الأعمال بدوره يتمتع بعلاقات مع أعلى الدوائر الحكومية، وينتمي إلى الطبقة المهيمنة، ويملك الكثير من الأموال والشهرة، ولم يكن هناك من يحاسبه. وقد كانت الشراكة بين آريوستو وكارياس مفيدة لكليهما. فالنقيب يقدر أنه سيتمكن خلال أقل من سنتين من خلع زيه العسكري والذهاب للعيش في ميامي، متحولاً إلى مليونير، ولكن ماورو كارياس يرقد الآن على الأرض ورأسه محطم، ولن يكون قادراً على حمايته. هذا يعني أنها نهاية وضعه كشخص فوق العقاب. عليه أن يبرر أمام الحكومة قتله لكاراكاوي وهؤلاء الهنود المطروحين في وسط المعسكر.

استنتجت كاتي كولد، وهي ما تزال تحمل الطفل الرضيع بين ذراعيها، بأن حياتها وحياة بقية أفراد البعثة، بمن في ذلك حفيدها وناديا، عرضة للخطر، لأن آريوستو سيحول بكل الوسائل دون انتشار خبر الأحداث في تابيراوا - تيري. فالمسألة لن تحل ببساطة برش البنزين على أجساد الضحايا وإشعال النار فيها واعتبار أصحابها مفقودين. فرصاصة النقيب ستنقلب ضده: ووجود بعثة الانترناشيونال جيوغرافيك لم تعد فرصة مواتية، وإنما تحولت إلى مشكلة خطيرة. لا بد له من التخلص من الشهود، ولكن عليه أن يفعل ذلك بحرص شديد، لأنه لا يستطيع إعدامهم

بالرصاص دون أن يورط نفسه في مشكلة. ومن سوء حظ الأجانب أنهم موجودون بعيداً جداً عن الحضارة، حيث يسهل على النقيب إخفاء آثارهم.

كانت كاتي كولد واثقة من أنه إذا أراد الضابط قتلهم، فلن يحرك الجنود إصبعاً واحداً لمنعه، كما أنهم لن يتجرؤوا على الوشاية برئيسهم. والغابة ستبتلع الأدلة على الجرائم. لا يمكنهم البقاء مكتوفي الأيدي بانتظار رصاصة الرحمة، لا بد لهم من عمل شيء. لم يعد لديها ما تفقده، والوضع لا يمكن أن يكون أسوأ مما هو عليه. فآريوستو شخص عديم الرحمة، كما أنه صار عصبياً، ويمكن له أن يوصلهم إلى المصير نفسه الذي أوصل كاراكاوي إليه. لم تكن ثمة خطة لدى كاتي، ولكنها فكرت في أن أول ما يجب عمله هو إحداث ارتباك في صفوف العدو.

- أظن أن الأمر المستعجل الآن أيها النقيب هو إرسال هؤلاء الرجال المصابين إلى مستشفى - اقترحت ذلك وهي تشير إلى كارياس والجنود الجرحى.

- اخرسي أيتها العجوز - نبح العسكري في الرد عليها.

و مع ذلك فقد بدأ آريوستو بعد دقائق من ذلك بإعداد العدة لنقل ماورو كارياس والجنود الثلاثة إلى إحدى طائرتي الهليوكبتر. وأمر أومايرا توريس بأن تحاول انتزاع السهام من أجساد الجرحى قبل نقلهم إلى الحوامة، ولكن الدكتورة تجاهلته تماماً: لم تكن لها عينان إلا لرؤية عشيقها المحتضر. فانهمكت كاتي كولد وسيسر سانتوس بمهمة ارتجال أضمدة من الخرق للحيلولة دون استمرار نزف الجنود عاثري الحظ.

بينما كان العسكريون ينفذون عملية نقل الجرحى إلى الهليوكبتر ويحاولون دون جدوى الاتصال لا سلكياً بسانتا ماريا دي لا ليوبيا، أوضحت كاتي للبروفيسور ليبلانك، بصوت منخفض، مخاوفها من الوضع الذي هم فيه. وكان الأنثروبولوجي قد توصل كذلك إلى النتائج نفسها: فهم معرضون للخطر على يد آريوستو أكثر من تعرضهم لخطر الهنود والوحش.

همست كاتي :

- يمكننا الهرب إلى الغابة...

و فاجأها الرجل لأول مرة برد فعل عقلاني. لقد كانت كاتي معتادة على نوبات البروفيسور العصبية وكلامه الفظ، إلى حد أنها تخلت له عن

السلطة بصورة شبه آلية عندما رآته هادئاً ورزيناً. فقد رد عليها ليبلانك بحزم:

- سيكون ذلك جنوناً. فالطريقة الوحيدة للخروج من هنا هي طائرة الهليوكبتر. والمفتاح إلى ذلك هو آريوستو. ولحسن الحظ أنه جاهل ومغرور، وهذا أمر لمصلحتنا. يجب علينا أن نتظاهر بأننا لا نرتاب به وأن نقنعه بالحيلة والمكر.

- كيف؟ - سألته الكاتبة وهي لا تصدق ما تسمعه.

فقال ليبلانك :

- بالسيطرة عليه. إنه خائف، فلنقدم له فرصة للنجاة بجلده والظهور فوق ذلك بمظهر البطل.

- ولا بأي حال! صرخت كاتي.

- لا تكوني حمقاء يا كولد. هذا ما سنعرضه عليه، ولكنه لا يعني أننا سننفذه. فعندما نصير في مأمن خارج هذه البلاد، سيكون لودفيك ليبلانك أول من يُشهّر بالفظائع التي تُقترف ضد هؤلاء الهنود المساكين.

فغمغمت كاتي كولد :

- أرى أن رأيك في الهنود قد تبدل قليلاً.

لم يتنازل البروفيسور في الرد. انتصب بكل قامته المختزلة، ورتب وضع قميصه الملطخ بالوحل والدم، وتوجه إلى النقيب آريوستو.

- كيف سنرجع إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا يا عزيزي النقيب؟ لن تتسع لنا جميعاً الهليوكبتر الثانية - قال وهو يشير إلى الجنود وإلى أفراد الفريق الذين يقفون بجانب الشجرة.

فزمجر آريوستو :

- لا تدس أنفك في هذا الأمر! أنا من يصدر الأوامر هنا!

- بالطبع ومما يطمئن نفوسنا أن حضرتك هو المسؤول هنا أيها النقيب، لولا ذلك لكنا في وضع صعب جداً - علق ليبلانك بنعومة فأولاه آريوستو، المذهول، سمعه. بينما تابع البروفيسور: - لولا بطولتك لكنا هلكنا جميعنا على يد الهنود.

عدّ آريوستو الذي اطمأن بعض الشيء، الناس المتبقين، ورأى أن ليبلانك على حق، فقرر أن يرسل نصف جماعة الجنود في الرحلة الأولى. أبقى ذلك لديه خمسة من رجاله بالإضافة إلى أفراد البعثة، ولكن هؤلاء لم يكونوا

يمثلون أي خطر لكونهم غير مسلحين. بدأت الحوامة التحليق مثيرة سحابة من الغبار الأحمر لدى ارتفاعها عن الأرض. ثم ارتفعت فوق القبة الغابية الخضراء، واختفت عن الأنظار في السماء.

تابعت ناديا سانتوس كل تلك الأحداث وهي تحتضن أباها وبوروبا. كانت نادمة لأنها تخلت عن طلسم واليماي في عش البيوض البلورية، لأنها تشعر بالضياع دون حماية تلك التميمة. وفجأة راحت تصرخ بصوت بومة. ارتبك سيسر سانتوس وظن أن ابنته المسكينة قد تعرضت لانفعالات شديدة وأُصيبت بنوبة عصبية. فالمعركة التي دارت في القرية كانت عنيفة جداً، وأنين الجنود الجرحى ودماء ماورو كارياس هي مشاهد يقشعر لها البدن، كما أن جثث الهنود ما تزال حيث سقطوا، دون أن يحاول أحد رفعها. واستنتج الدليل أن ناديا قد أصيبت باضطراب عصبي بسبب وحشية الأحداث، لم يكن هناك تفسير آخر لصرخات الصغيرة تلك. أما ألكسندر كولد بالمقابل، فقد وجد نفسه مضطراً إلى مواراة ابتسامة فخر حين سمع صديقته: فناديا تريد اللجوء إلى آخر خشبة خلاص محتملة.

- سلمني أشرطة الفيلم! - طلب النقيب آريوستو ذلك من تيموثي بروس.

كان ذلك يعادل في نظر المصور تسليم حياته. فهو متعصب في ما يتعلق بمسودات أفلامه، لم يفرط بواحد منها قط، بل هو يحتفظ بها جميعها مصنفة ومرتبة في الاستوديو الذي يملكه في لندن.

وتدخل ليبلانك:

- أظنك تحسن صنعاً باتخاذ الاحتياطات لكي لا تضيع هذه المسودات أيها النقيب آريوستو. إنها الدليل على ما جرى هنا، وكيف أن ذلك الهندي هاجم السيد كارياس، وكيف سقط جنودك الشجعان بالسهام، وكيف وجدت أنت نفسك مضطراً إلى إطلاق النار على كاراكاوي.

- هذا الرجل تدخل فيما لا يعنيه - صاح النقيب.

فقال ليبلانك بمكر:

- بالطبع! إنه مجنون. أراد منع الدكتورة توريس من القيام بواجبها. واتهاماته كانت جنونية! يؤسفني أن عبوات اللقاح قد تحطمت في فوضى القتال. فنحن لن نعرف أبداً ما الذي كانت تحتويه ولا نستطيع أن نثبت أكاذيب كاراكاوي.

أظهر آريوستو تكشيرة كان بالإمكان اعتبارها ابتسامة في ظروف أخرى. ثم وضع المسدس في حزامه، وأجّل مسألة مسودات الأفلام وتوقف لأول مرة عن الرد صارخاً. وغمغم بينه وبين نفسه بأنه ربما كان هؤلاء الأجانب لا يرتابون في شيء، فهم أكثر بلاهة بكثير مما كان يظنه.

كانت كاتي كولد تتابع الحوار بين الأنثروبولوجي والعسكري مشدوهة. لم تكن تتصور أن يكون بمقدور ليبلانك إظهار كل برودة الأعصاب تلك.

- اصمتي يا ناديا، أرجوك - قال سيسر سانتوس متوسلاً عندما كررت ناديا صرخة البومة للمرة العاشرة.

- أعتقد أننا سنقضي الليل هنا. هل ترغب في أن نحضر شيئاً للعشاء أيها النقيب؟ - عرض ليبلانك خدماته بلطف.

أذن لهم العسكري بإعداد الطعام والتجول في المخيم ن ولكنه أمرهم بالبقاء ضمن دائرة قطرها ثلاثين متراً، حيث يمكنه رؤيتهم. أمر الجنود بأن يرفعوا جثث الهنود الميتين ويجمعوها في مكان واحد، وسيكون بإمكانهم في اليوم التالي دفنها أو حرقها. وفكر في أن ساعات الليل القادمة ستمنحه وقتاً لاتخاذ قرار بشأن الأجانب. يمكن لسانتوس وابنته أن يختفيا من الوجود دون أن يسأل أحد عنهما، ولكن لا بد من توخي الحذر مع الآخرين. فلودفيك ليبلانك شخصية مشهورة، والعجوز والفتى أمريكيان. وهو يعرف من خلال تجربته، أنه عندما يحدث شيء لأمريكي، يكون هناك تحقيق على الدوام، فهؤلاء الغرينغيون يظنون أنهم أسياد العالم.

على الرغم من أن البروفيسور ليبلانك هو صاحب الفكرة، إلا أن سيسر سانتوس وتيموثي بروس هما من أعد العشاء، لأن الأنثروبولوجي لم يكن قادراً على سلق بيضة. واعتذرت كاتي كولد قائلة إنها لا تتقن طهو شيء باستثناء كرات اللحم، ومواد هذا الصنف من الطعام غير متوفرة هناك، أضف إلى ذلك أنها كانت مشغولة جداً في تغذية الرضيع بملاعق صغيرة من مزيج ماء وحليب مكثف. وفي أثناء ذلك جلست ناديا تراقب الدغل، مرددة بين حين وآخر صوت البومة. وبإيماءة خفية منها، أفلت بوروبا من ذراعيها وركض باتجاه الغابة حيث اختفى عن النظر. بعد نصف ساعة من ذلك تذكر النقيب أشرطة الفيلم وأجبر تيموثي بروس على تسليمه إياها

بالحجة التي قدمها إليه ليبلانك: ستكون بأمان أكبر وهي بحوزتك.. ولم تجد حجج الصحفي الإنكليزي نفعاً، ولا حتى محاولته رشوة الضابط الذي أصر على موقفه.

تناولوا الطعام بالتناوب، بينما كان الجنود يحرسون، ثم أرسل آريوستو أفراد الحملة للنوم في الخيمتين، حيث سيكونون محميين أكثر، كما قال، في حالة وقوع هجوم، بالرغم من أن السبب الحقيقي هو التمكن من السيطرة عليهم بصورة أفضل. احتلت ناديا وكاتي كولد، ومعهما الطفل الرضيع، إحدى الخيمتين، وشغل لودفيك ليبلانك وسيسر سانتوس وتيموثي بروس الخيمة الأخرى. ولم ينس النقيب كيف نطحه أليكس، وأحس تجاهه بحقد أعمى. فبسبب هذين الصبيين، ولا سيما الفتى الأمريكي اللعين، يجدج نفسه الآن في ورطة، وماورو كارياس مهشم الدماغ، بينما تمكن الهنود من الهرب، وتعرضت خططه في الثراء والعيش في ميامي إلى أخطار جدية. لقد كان اليكس يمثل خطراً عليه، ولا بد من معاقبته. قرر فصله عن الآخرين، وأمر بتقييده إلى شجرة في أحد أطراف المخيم، بعيداً عن مصابيح البترول. احتجت كاتي كولد بغضب على المعاملة التي يتلقاها حفيدها، ولكن النقيب أجبرها على الصمت. فهمست ناديا :

- ربما يكون هذا أفضل يا كاتي. فجغوار ذكي، وسيجد طريقة للهرب دون شك.

فردت الكاتبة وهي ترتعش من الغيظ:

- آريوستو يفكر في قتله في الليل، إنني متأكدة من ذلك.

- لقد ذهب بوروبا بحثاً عن مساعدة - قالت ناديا.

فزفرت كاتي :

- هل تظنين أن هذا القرد سينقذنا؟

- بوروبا قرد حاد الذكاء.

- أنت مصابة في عقلك أيتها الصغيرة - صاحت بها الجدة.

مرت عدة ساعات دون أن ينام أحد في المعسكر، باستثناء الرضيع الذي استنفده البكاء. كانت كاتي كولد قد وسدته فوق حزمة من الملابس، متسائلة عما ستفعله بهذا المخلوق عاثر الحظ: فآخر شيء ترغب فيه في حياتها هو تكفل طفل يتيم. بقيت الكاتبة متيقظة، لاقتناعها بأن آريوستو

قد يقدم في أي لحظة على قتل حفيدها، ثم يتبع ذلك بقتل الآخرين، أو ربما يفعل العكس، يبدأ بهم ثم ينتقم بعد ذلك من أليكس بميتة بطيئة ورهيبة. فالرجل خطير جداً. وكان تيموثي بروس وسيسر سانتوس يلصقان آذانهما بقماش الخيمة ن محاولين رصد تحركات الجنود في الخارج. أما البروفيسور ليبلانك بالمقابل، فقد خرج من الخيمة بحجة قضاء حاجته وبقي يتحدث إلى النقيب آريوستو. كان الأنثروبولوجي مقتنعاً بأن كل ساعة تمضي تضاعف من المخاطر المحيطة بهم، وأنه من المناسب محاولة لإلهاء النقيب. ولهذا دعاه إلى لعب جولة بالورق، وشرب زجاجة فودكا أعطته إياها كاتي كولد.

- لا تحاول أن تسكرني يا بروفيسور - حذره آريوستو، ولكنه ملأ كأسه.

فرد ليبلانك:

- كيف تخطر لك مثل هذه الفكرة أيها النقيب! فكأس من الفودكا لن يؤثر على رجل مثلك. الليل طويل، ويمكن لنا أن نتسلى قليلاً.

- 19 -

الحماية

مثلما يحدث عادة في النجد، انخفضت درجة الحرارة فجأة عند غياب الشمس. فكان الجنود المعتادين على حر الأراضي المنخفضة يرتجفون في ملابسهم التي ما تزال مبللة بمطر المساء. لم ينم أي واحد منهم، فقد كان عليهم، بأمر من النقيب، أن يتولوا جميعهم الحراسة حول المخيم. كانوا متيقظين، يتشبث كل واحد منهم بسلاحه بكلتا يديه. لم يعودوا يخشون أرواح الغابة أو ظهور الوحش وحسب، وإنما كذلك الهنود الذين يمكن لهم أن يرجعوا في أي لحظة للثأر لقتلاهم. صحيح أنهم يتفوقون عليهم بأسلحتهم النارية، ولكن أولئك الهنود يعرفون الأرض جيداً ويملكون تلك القدرة المذهلة بالظهور من العدم، مثل أرواح هائمة. ولولا أجساد قتلاهم المكومة إلى جوار الشجرة، لظنوا أنهم ليسوا بشراً وأنه لا يمكن للرصاص أن يلحق بهم الأذى. كان الجنود ينتظرون الصباح بفارغ الصبر لكي يطيروا من هناك بأسرع ما يمكن، فالوقت في الظلام يمضي ببطء شديد وأصوات الغابة المحيطة تصبح مرعبة.

كانت كاتي كولد، الجالسة متقاطعة الساقين إلى جانب الرضيع النائم في خيمة النساء، تفكر في طريقة تساعد بها حفيدها، وفي كيفية الخروج حية من " عين الدنيا ". كان يتسرب من خلال قماش الخيمة شيء من الضوء المنبعث من الموقد، وقد استطاعت الكاتبة أن ترى شبح ناديا الملتف بسترة أبيها، عندما همست الفتاة قائلة:

- سأخرج الآن...

- لا يمكنك الخروج!

- لن يراني أحد، يمكنني أن أصير غير مرئية.

أمسكت كاتي كولد البنت من ذراعيها، واثقة من أنها تهذي.

- اسمعيني يا ناديا.... لست غير مرئية. ولا أحد غير مرئي، هذه أوهام.

لا تستطيعين الخروج من هنا.

- بلى، أستطيع. لا تحدثي ضجة يا سيدة كولد. اعتني بالطفل إلى أن أعود وبعد ذلك سنسلمه إلى القبيلة - همست ناديا، وكان هناك يقين وهدوء في صوتها لم تتجرأ كاتي معهما على أن توقفها.

اتخذت ناديا سانتوس أولاً الحالة الذهنية للاختفاء، مثلما تعلمت من الهنود، واختُزلت إلى العدم، إلى مجرد روح شفافة. ثم فتحت بصمت سحاب الخيمة وانسلت خارجاً في كنف الظلال. مرت بتكتم ابن عرس على بعد أمتار قليلة من المنضدة التي يلعب عليها البروفيسور ليبلانك الورق مع النقيب آريوستو، ومرت من أمام الحراس الذين يجوبون المعسكر، ومرت قبالة الشجرة التي قُيد إليها أليكس دون أن يراها أحد. ابتعدت الفتاة عن دائرة الضوء المتذبذب المنبعث من المصابيح والموقد ثم اختفت بين الأشجار. وسرعان ما قطعت صرخةُ بومة نقيق الضفادع.

كان أليكس مثله مثل الجنود، يرتجف من البرد. فقد تخدرت ساقاه، وتورمت يداه من الأربطة التي تشد على معصميه. وكان فكه يؤلمه، يمكنه أن يشعر بالجلد متوتراً مشدوداً، لا بد أن هناك كدمة كبيرة. وكان يتحسس بلسانه سنه المكسورة، ويشعر بتورم اللثة في الموضع الذي تلقى فيه ضربة عقب مسدس النقيب. كان يحاول عدم التفكير في ساعات الظلام الطويلة المتبقية أمامه أو في احتمال اغتياله. لماذا فصله آريوستو عن الآخرين؟ ما الذي يخطط لفعله به؟ أراد أن يتحول إلى جغوار أسود، أن يمتلك قوة وشراسة ورشاقة الحيوان الهري العظيم، أن يتحول إلى عضلات وبراثن وأنياب وحسب لكي يواجه آريوستو. فكر في قارورة ماء الصحة التي تنتظر في حقيبته، وفي أنه يجب أن يخرج حياً من "عين الدنيا" ليوصلها إلى أمه. كانت ذكرى أسرته غائمة، مثل صورة فوتوغرافية ملتقطة خارج البؤرة، حيث يكاد وجه أمه لا يظهر إلا كبقعة شاحبة.

كان رأسه قد بدأ يترنح من النعاس وقد تغلب عليه الإنهاك، عندما أحس فجأة بيدين صغيرتين تلمسانه. انتصب مفزعاً. واستطاع أن يميز في الظلام بوروبا يتعلق بعنقه، معانقاً إياه وهو يئن ببطء في أذنه. "بوروبا، بوروبا"، غمغم الفتى متأثراً وقد فاضت عيناه بالدموع. لقد كان مجرد قرد بحجم سنجاب، ولكن حضوره أيقظ فيه موجة من الأمل. ترك الحيوان يداعبه، وهو يشعر براحة عميقة. وعندئذ انتبه على وجود حضور آخر

بجانبه، حضور غير مرئي وصامت، حضور متوار في ظلال الشجرة. ظن في أول الأمر أنها ناديا، ولكنه سرعان ما انتبه إلى أنه واليماي. كان الشيخ الضئيل منحنياً إلى جواره، يمكن لأليكس أن يشم رائحته الدخانية، ولكنه لا يراه مهما حاول إمعان نظره. وضع التشامان إحدى يديه على صدر أليكس، كما لو أنه يبحث عن نبض قلبه. بث ثقل ودفء تلك اليد الصديقة الشجاعة في الفتى، فأحس بالاطمئنان، توقف عن الارتعاش وتمكن من التفكير بوضوح. دمدم: السكين، السكين. وسمع صوت انفتاح الأداة المعدنية، ثم حد السكين الصغيرة وهو يمر على قيوده. لم يتحرك. كان الظلام قاتماً، ولم يكن واليماي قد استخدم سكيناً من قبل، ويمكن له أن يجرح رسغيه، ولكن العجوز استطاع قطع الأربطة في لحظة ثم أمسكه من ذراعه ليقوده إلى الغابة.

و في المعسكر، كان النقيب آريوستو قد انتهى من لعب الورق، ولم يكن قد تبقى أي قطرة في زجاجة الفودكا. لم تخطر لذهن لودفيك ليبلانك طريقة أخرى لإلهاء النقيب، لا سيما وأن هناك وقتاً طويلاً قبل بزوغ الفجر. لم يكن الكحول قد شوش الضابط العسكري، مثلما كان ليبلانك يأمل، فهو يتمتع في الحقيقة بأحشاء فولاذية. اقترح عليه أن يستخدما جهاز الإرسال ليريا إذا ما كان بالإمكان الاتصال بثكنة سانتا ماريا دي لا ليوبيا. عالجا الجهاز لوقت لا بأس به، وسط أزيز ثابت يصم الآذان، ولكن الاتصال بالمقسم بدا مستحيلاً. لقد كان آريوستو قلقاً فليس من الملائم له التغيب عن الثكنة، عليه أن يرجع بأسرع ما يمكن، فهو بحاجة إلى مراقبة رواية الجنود للأحداث في تابيراوا - تيري. ما الذي سيقوله رجاله هناك؟ كان عليه أن يرسل تقريراً إلى قيادته في الجيش ويواجه الصحافة قبل أن تنتشر التقولات. لقد غادرت أومايرا توريس وهي تتلعثم بدمدمات حول فيروس الحصبة. فإذا ما بدأت التكلم، فإنها ستورطه. وغمغم النقيب: يا لها من امرأة بلهاء!

أمر آريوستو الأنثروبولوجي بالرجوع إلى خيمته، ثم قام بجولة على المعسكر ليتأكد من أن رجاله يقومون بالحراسة كما يجب، وتوجه بعد ذلك إلى الشجرة التي قيد إليها الفتى الأمريكي، ليتسلى قليلاً به. في تلك اللحظة بالضبط صفعته الرائحة كهراوة. فطرحته الصدمة أرضاً على ظهره. أراد مد يده إلى حزامه لسحب سلاحه، ولكنه لم يستطع التحرك.

أحس بالغثيان، وبقلبه يتمزق في صدره، ثم لا شيء. غرق في غيبوبة اللاوعي. لم يتمكن من رؤية الوحش المنتصب على بعد ثلاث خطوات منه وهو يوجه إليه نتانة غدته المهلكة.

غمرت نتانة الوحش الخانقة بقية أرجاء المخيم، فطرحت الجنود أولاً، وبعد ذلك من كانوا محتمين وراء قماش الخيام. وخلال أقل من دقيقتين لم يبق هناك من يقف على قدميه. ساد قرية تابيراوا - تيري والغابة المحيطة سكون مرعب استمر أكثر من ساعتين، فحتى الطيور والحيوانات هربت مفزعة من الرائحة النتنة. تراجع الوحشان اللذان شنا الهجوم في وقت واحد ببطئهما المعهود، ولكن رائحتهما استمرت شطراً طويلاً من الليل. لم يدر أحد في المعسكر بما حدث خلال تلك الساعات، لأنهم لم يستردوا الوعي حتى صباح اليوم التالي. ولكنهم رأوا آثار الأقدام فيما بعد وتوصلوا إلى بعض الاستنتاجات.

سار أليكس وبوروبا يمتطي كتفيه، مقتفياً خطى واليماي، تحت الظلال، ومتوغلاً في الخضرة إلى أن اختفت تماماً أضواء المعسكر المتذبذبة. كان التشامان يتقدم كما لو أنه في وضح النهار، ربما كان يمشي في إثر زوجته الملاك التي لا يستطيع أليكس رؤيتها. التفا حول الأشجار لوقت لا بأس به، وأخيراً وجد العجوز المكان الذي ترك فيه ناديا تنتظره. فقد تواصلت ناديا سانتوس مع التشامان بواسطة صرخة البومة التي أطلقتها طوال ما بعد الظهر والليل، إلى أن تمكنت من الخروج من المعسكر لتلتقي به. تعانق الصديقان الفتيان، بينما تعلق بوروبا بصاحبته وهو يطلق صيحات الابتهاج.

أكد لهما واليماي ما كانا يعرفانه: فالقبيلة تراقب المعسكر، ولكن الهنود تعلموا الخوف من سحر الناهاب ولم يعودوا يجرؤون على مواجهتهم. لقد كان المحاربون قريبون جداً إلى حد سمعوا معه بكاء الرضيع، مثلما كانوا يسمعون نداء القتلى الذين لم يتلقوا الطقوس الجنائزية اللائقة. وقال واليماي إن أرواح الرجال والنساء المقتولين مازالت ملتصقة بأجسادهم، فهي لا تستطيع الانفصال عنها دون إقامة الطقوس المناسبة والثأر لهم. أوضح له أليكس أن الأمل الوحيد للهنود هو في شن الهجوم ليلاً، لأن الناهاب يستطيعون في النهار استخدام طائر الضجيج والريح لتفتيش "عين الدنيا" حتى العثور عليهم.

- إذا ما هاجمتم الآن، فسوف يموت بعضكم، أما إذا انتظرتم حتى النهار، فالقبيلة كلها ستُباد - قال أليكس ذلك، ثم أضاف إنه مستعد لقيادتهم والقتال معهم، فمن أجل هذا جرى تلقينه الرجولة: فهو محارب أيضاً.

فرد عليه واليماي:

- زعيم الحرب هو تاهاما. وزعيم التفاوض مع الناهاب، أنت.

- لقد فات وقت التفاوض. آريوستو قاتل مجرم.

فأصر الساحر :

- أنت قلت إن بعض الناهاب أشرار وإن آخرين منهم أصدقاء. أين هم الأصدقاء؟

- جدتي وبعض الرجال في المعسكر هم من الأصدقاء. والنقيب آريوستو وجنوده هم الأعداء. لا يمكننا التفاوض معهم.

- على جدتك وأصدقائها أن يتفاوضوا مع الناهاب الأعداء.

- الأصدقاء لا يملكون أسلحة.

- لا يملكون سحراً؟

- لا يملكون الكثير من السحر في "عين الدنيا". ولكن هناك أصدقاء يملكون الكثير من السحر بعيداً عن هنا، في المدن، في أنحاء أخرى من العالم - أوضح ألكسندر كولد وهو محبط من محدودية اللغة.

فقال الشيخ:

- عليك أن تذهب إلى حيث أولئك الأصدقاء إذن.

- كيف؟ إننا محتجزون هنا!

لم يجب واليماي على مزيد من الأسئلة. وبقي مقرفصاً ينظر إلى الليل، ترافقه زوجته، التي اتخذت هيئة أشد شفافية، بحيث لم يعد بإمكان أي من الصبيين رؤيتها. أمضى أليكس وناديا الساعات دون نوم، متلاصقين، يحاولان بث الدفء في جسديهما بصورة متبادلة، دون أن يتكلما، لأن ما يمكن أن يقال قليل جداً. كانا يفكران بالمصير الذي ينتظر كاتي كولد وسيسر سانتوس وأعضاء الفريق الآخرين، يفكران بأناس الضباب، المحكومين بالهلاك، يفكران بالوحوش التي عاشت مئات السنين، وبمدينة الذهب، يفكران بماء الصحة وبيوض البلور. ما الذي سيؤول إليه مصيرهما وهما محتجزان في الغابة؟

و فجأة بلغهما دفق رائحة رهيبة، يخفف منها بعد المسافة، ولكنها معروفة لهما تماماً. نهضا واقفين، ولكن واليماي لم يتحرك، كما لو أنه كان ينتظرها. وهتفت ناديا :

- إنها الوحوش؟

- هذا ممكن وغير ممكن - علق بذلك التشامان دون تأثر.

تباطأ ما تبقى من الليل. وقبيل الفجر ازدادت حدة البرد، وراحت أسنان الصديقين، المتكورين على نفسيهما مع بوروبا، تصطك، بينما بقي الساحر العجوز ثابتاً في مكانه، منتظراً، وبصره تائه في الظلال. ومع أول تباشير الفجر استيقظت القرود والطيور، عندئذ أعطى واليماي إشارة الانطلاق في المسير. تبعاه بين الأشجار لبعض الوقت، على أن وصلا، حين صار ضوء الشمس يخترق الخضرة المتشابكة، إلى المعسكر. كانت المصابيح والموقد مطفأة، ولم يكن هناك ما يشير إلى وجود حياة، بينما الرائحة ما تزال تعبق في الجو، كما لو أن مئة ظربان قد أطلقت رائحتها في المكان في اللحظة نفسها. كمم الصبيان أنفيهما بأيديهما ودخلا مع واليماي إلى محيط ما كان إلى ما قبل وقت قصير قرية تابيراوا - تيري الوادعة. كانت الخيام، والمنضدة، والفرن، كلها موزعة على الأرض، وكانت بقايا طعام منثورة في كل مكان، ولكن لم يكن هناك أي قرد أو طائر ينبش بين الفضلات والقمامة، لأنها لا تتجرأ على تحدي نتانة الوحوش المرعبة. حتى بوروبا نفسه بقي بعيداً، يصرخ ويقفز على بعد عدة أمتار. أبدى واليماي حيال الرائحة عدم المبالاة نفسها التي أبداها في الليلة السابقة حيال البرد. ولم يجد الشابان الفتيان بداً من اللحاق به.

لم يكن هناك أحد، ولا أي أثر لأعضاء الحملة، ولا للجنود أو النقيب آريوستو، كما لم تكن أجساد الهنود القتلى موجودة. أما أسلحة الجنود، والأمتعة، وحتى كاميرات تيموثي بروس، فكانت جميعها هناك، ورأيا كذلك بقعة كبيرة من الدم القاتم على الأرض، بالقرب من الشجرة التي كان أليكس مقيداً إليها. بدا الشيخ واليماي راضياً، بعد جولة تفتيش قصيرة ثم بدأ الانسحاب من المكان. لحق به الصبيان دون توجيه أسئلة، وكانا دائخين من الرائحة، يكادان لا يستطيعان مواصلة الوقوف. وكلما

ابتعدا أكثر، امتلأت رئتاهما بهواء الصباح العليل، واستعادا النشاط، ولكنهما بقيا يشعران بالغثيان. انضم إليهم بوروبا بعد قليل، وتوغلت الجماعة الصغيرة في الغابة.

قبل ذلك بعدة أيام، حين رأى أهالي قرية تابيراوا - تيري طيور الضجيج والريح تحوم في السماء، هربوا من قريتهم، مخلفين ممتلكاتهم القليلة وحيواناتهم الداجنة، لأنها تعرقل قدرتهم على الاختفاء. تنقلوا متسترين بالخضرة حتى مكان آمن، وأقاموا هناك بيوتاً مؤقتة في أعالي الأشجار، وقد مرت دوريات الجنود التي كان يرسلها آريوستو قريباً جداً منهم دون أن تراهم، بينما كان محاربو تاهاما، المموهين في الطبيعة، يرصدون بالمقابل كل تحركات الغرباء. تجادلت إيومي مطولاً حول الناهاب وضرورة التقرب منهم، مثلما نصحهم جغوار ونسر، وكان رأي إيومي أن شعبها لا يستطيع الاختباء إلى الأبد على الأشجار مثل القرود: فقد حان الوقت لزيارة الناهاب وتقبل هداياهم ولقاحاتهم، لا مفر من ذلك. أما تاهاما فكان يرى أنه من الأفضل لهم أن يموتوا وهم يقاتلون. ولكن إيومي هي زعيمة الزعماء، ورأيها هو الذي انتصر في النهاية. وقررت أن تكون هي نفسها أول من يقترب، ولهذا حضرت وحيدة إلى المعسكر، مزينة بقبعة الريش الأصفر الضخمة لكي تثبت للغرباء من هو صاحب السلطة. وقد طمأنها وجود جغوار ونسر اللذين رجعا لتوهما من الجبل المقدس. فهما صديقان ويمكنهما أن يترجما ما يقال، وهكذا لن تجد تلك الكائنات المسكينة التي ترتدي خرقاً نتنة نفسها ضائعة أمامها. استقبلها الناهاب استقبالاً جيداً، وقد كانوا متأثرين دون ريب بمظهرها المهيب وعدد تجعدات جسدها الكبير، فهي دليل على عمرها المديد ومعارفها المكتسبة. وعلى الرغم من الطعام الذي قدموه إليها، فقد وجدت المرأة العجوز نفسها مضطرة إلى مطالبتهم بمغادرة " عين الدنيا "، لأنهم يسببون المضايقات، وكانت تلك هي كلمتها الأخيرة، ولم تكن مستعدة للتفاوض في ذلك الأمر. انسحبت بوقار حاملة قصعة اللحم والرز، وواثقة من أنها قد أخافت الناهاب بوزن كبريائها الهائل.

و نظراً للنجاح الذي حققته زيارة إيومي، اعتمرت قلوب بقية أفراد القبيلة بالشجاعة وحذو حذوها. وهكذا رجعوا إلى المكان الذي كانت فيه

قريتهم، والذي تدوسه الآن أقدام الغرباء الذين يبدو واضحاً أنهم لا يعرفون أدنى قواعد الحذر واللياقة: عدم إمكانية الدخول إلى قرية هندية دون دعوة مسبقة. وهناك رأى الهنود الطائرين الكبيرين اللامعين، والخيام، والناهاب الغريبين الذين سمعوا عنهم قصصاً مرعبة. هؤلاء الأجانب ذوو الأساليب المتكلفة يستحقون بضع ضربات جيدة بالهراوى على رؤوسهم، ولكن يتوجب على الهنود، حسب أوامر إيومي أن يتسلحوا بالصبر معهم. تقبل الهنود طعام الغرباء وهداياهم كي لا يغضبوهم، ثم انصرفوا بعد ذلك للصيد وجمع العسل والثمار كي يردوا الهدايا، مثلما هي العادة.

وفي اليوم التالي، عندما كانت إيومي متأكدة من أن جغوار ونسر ما يزالان هناك، سمحت للقبيلة بالذهاب مجدداً إلى الناهاب وتلقي اللقاحات. ولم تستطع هي نفسها ولا أي شخص آخر تفسير ما حدث حينذاك. لم يعرفوا ما الذي دفع الولدين الغريبين، اللذين طالما ألحا على ضرورة اللقاحات، إلى القفز فجأة للحيلولة دون تحقيق ذلك. سمعوا دوياً مجهولاً، أشبه بدوي رعد قصير. ورأوا أن راهاكاناريوا قد أُفلت حين تهشمت العبوات، وانقض على الهنود بهيئته غير المرئية، فسقطوا ميتين دون أن تمسهم السهام أو الهراوى. وفي خضم المعركة، هرب الأخرون كيفما استطاعوا، في هرج ومرج واضطراب. فهم لم يعودوا يعرفون من هم الأصدقاء ومن هم الأعداء.

و أخيراً حضر واليماي ليقدم لهم بعض التفسيرات. قال إن الصغيرين نسر وجغوار هما صديقان ويجب مساعدتهما، أما الآخرون جميعهم فيمكن أن يكونوا أعداء. وقال إن راهاكاناريوا يمضي طليقاً ويمكن له أن يتخذ أي هيئة يشاء: ولا بد من اللجوء إلى رقى وابتهالات قوية جداً لإعادته إلى مملكة الأرواح. وقال إنهم بحاجة إلى اللجوء إلى الآلهة. وإن " البليدين " العملاقين اللذين لم يرجعا إلى التيبوي المقدس وما زالا يتجولان في "عين الدنيا"، استُدعيا واقتيدا خلال الليل إلى القرية المدمرة. لم يقترب أولئك الآلهة قط من مساكن الهنود بمبادرة منهم، لم يفعلوا ذلك خلال آلاف وآلاف السنين. فكان لا بد لواليماي من أن يقنعهم بأن تلك القرية لم تعد لشعب الضباب، لأن الناهاب دنسوها بأعمال القتل التي اقترفوها على أرضها. ولا بد من إعادة بناء تابيراوا - تيري في مكان آخر من "عين الدنيا"، بعيداً عن مكانها الحالي، حيث يمكن لأنفس البشر وأرواح

الأسلاف أن تشعر بالراحة، وحيث لا يلوث الشر الأراضي المشرفة. فتولى الوحشان إطلاق الرائحة على معسكر الناهاب، وشلا الأصدقاء والأعداء منهم على السواء.

وكان على محاربي تاهاما أن ينتظروا لساعات عديدة إلى أن تخف الرائحة ويتمكنوا من الاقتراب. التقطوا أولاً جثامين الهنود وأخذوها ليعدوا لها مأتماً لائقاً، ثم رجعوا بعد ذلك بحثاً عن الآخرين، وأخذوهم سحلاً، بما في ذلك جثة النقيب آريوستو الممزقة ببراثن أحد الإلهين العظيمة.

بدأ الناهاب يستيقظون واحداً بعد الآخر. فوجدوا أنفسهم في مكان أجرد من الغابة، مطروحين أرضاً ومشوشي الوعي، لا يتذكرون حتى أسماءهم. وأقل من ذلك الطريقة التي وصلوا بها إلى هناك. وكانت كاتي كولد هي أول من أتت برد فعل. لم تكن لديها فكرة عن المكان الذي هي فيه ولا عما حدث للمخيم، ولطائرة الهليوكبتر، والنقيب، ولحفيدها قبل ذلك كله. تذكرت الطفل الرضيع، وبحثت عنه فيما حولها، ولكنها لم تعثر عليه. هزت الآخرين الذين راحوا ينتعشون شيئاً فشيئاً. كانوا جميعهم يشعرون بآلام فظيعة في الرأس والمفاصل، ويتقيؤون، ويسعلون، ويبكون، ويحسون كما لو أنهم قد تعرضوا للضرب، دون أن تبدو على أي منهم آثار التعرض للعنف.

آخر من فتح عينيه هو البروفيسور ليبلانك، الذي أثرت فيه تلك التجربة كثيراً، فلم يستطع النهوض والوقوف على قدميه. فكرت كاتي كولد في أن فنجاناً من القهوة ورشفة من الفودكا سيكونان مناسبين للجميع، ولكنها لم تجد شيئاً تلقيه في فمها. كانت رائحة الوحش ما تزال تعبق من ملابسهم، من شعرهم، ومن بشرتهم، فكان عليهم أن يتجرجروا إلى جدول قريب ويغطسوا لوقت طويل في الماء. وقد شعر الجنود الخمسة المتبقون بالضياع من دون أسلحتهم ونقيبهم، فانصاعوا لسيسر سانتوس دون أن ينبسوا ببنت شفة عندما تولى هذا الأخير القيادة. أما تيموثي بروس المتضايق لأنه كان على مقربة شديدة من الوحش ولم يستطع تصويره، فكان يريد العودة إلى المخيم بحثاً عن كاميراته، ولكنه لم يعرف في أي اتجاه عليه أن يسير، ولم يكن هناك من هو مستعد لمرافقته. نادراً ما كان الإنكليزي بارد الطبع الذي رافق كاتي كولد إلى حروب، وكوارث، ومغامرات كثيرة، يتخلى عن مزاجه الممل، ولكنه توصل في الأحداث

الأخيرة إلى إظهار تعكر مزاجه. ولم تكن كاتي كولد تفكر إلا في حفيدها، وسيسر سانتوس بابنته. أين هما الصغيران؟

تفحص الدليل المكان بتمعن شديد ووجد أغصاناً مكسورة، ورياشاً، وبذوراً، وآثاراً أخرى من شعب الضباب. فتوصل إلى أن الهنود هم الذين حملوهم إلى ذلك المكان، فأنقذوا حياتهم، ولولا ذلك لماتوا مختنقين من الرائحة، أو ممزقين على يد الوحش. ولم يستطع أن يفهم، إذا كان الأمر كذلك، لماذا لم ينتهز الهنود الفرصة لقتلهم، كي يثأروا لقتلاهم. لو كان البروفيسور ليبلانك في ظروف تسمح له بالتفكير، لاضطر إلى مراجعة ثانية لنظريته حول وحشية تلك القبائل، ولكن الأنثروبولوجي المسكين كان يئن وهو مطروح على بطنه على الأرض، شبه ميت من الغثيان والصداع.

الجميع كانوا واثقين من أن أناس الضباب سيعودون. وكان ذلك هو ما حدث بالضبط، فقد ظهرت القبيلة كلها فجأة من الدغل. فمقدرتهم على التحرك بصمت مطلق والتجسد خلال ثوان، أتاح لهم الإحاطة بالغرباء قبل أن يتمكن هؤلاء من الانتباه إليهم. كان الجنود المسؤولين عن مقتل الهنود يرتجفون كالأطفال. تقدم تاهاما منهم وصوب إليهم نظرة حادة، ولكنه لم يلمسهم، ربما فكر في أن أولئك الديدان لا يستحقون ضربات محكمة من هراوة محارب نبيل مثله.

تقدمت إيومي خطوة إلى الأمام وألقت خطبة طويلة بلغتها، لم يفهم منها أحد شيئاً ثم أمسكت كاتي كولد من قميصها وراحت تصرخ بشيء على بعد سنتمترات من وجهها. فكان الشيء الوحيد الذي خطر للكاتبة فعله هو إمساك العجوز ذات قبعة الريش الأصفر من كتفيها والصراخ بها بدورها بالإنكليزية. وبقيت كلتاهما على تلك الحال لبعض الوقت، تطلقان شتائم غير مفهومة، إلى أن تعبت إيومي، فاستدارت ومضت لتجلس تحت إحدى الأشجار. ثم جلس الهنود الآخرون أيضاً، وراحوا يتحدثون فيما بينهم، ويأكلون ثماراً، وجوزاً، وفطوراً يجدونها بين الجذور ويتناقلونها من يد إلى يد، بينما بقي تاهاما وعدد من محاربيه يحرسون متيقظين، ولكن دون الاعتداء على أحد. رأت كاتي كولد الطفل الرضيع الذي اعتنت به بين ذراعي فتاة شابة، فأحست بالسعادة لأنه نجا من رائحة الوحش القاتلة وعاد إلى حضن معشره.

وبعد انتصاف النهار ظهر واليماي والصبيان. ركضت كاتي كولد وسيسر سانتوس للقائهما ومعانقتهما بارتياح، لأنهما كانا يظنان أنهما لن يرياهما أبداً. صار التواصل أكثر سهولة بوجود ناديا، فقد استطاعت أن تترجم، وتوصلوا بذلك إلى بعض النقاط. عرف الغرباء أن الهنود لم يربطوا بعد بين موت زملائهم وأسلحة الجنود النارية، لأنهم لم يروا تلك الأسلحة من قبل. والشيء الوحيد الذي يرغبون فيه هو إعادة بناء قريتهم في موقع آخر، وأكل رماد موتاهم، واستعادة السلام الذي كانوا ينعمون به طوال الوقت. وكانوا يريدون إعادة راهاكاناريوا إلى مكانه بين الشياطين وطرد الناهاب من "عين الدنيا".

تناول الكلمة البروفيسور ليبلانك الذي كان قد استعاد وعيه بصورة أفضل، وإن كان ما يزال مشوشاً بالتكدر. وكان قد فقد القبعة النمساوية ذات الريش، وتفوح منه رائحة الوساخة والنتانة، مثل الآخرين جميعهم، بسبب تغلغل رائحة الوحوش في ملابسهم. وقامت ناديا بالترجمة، ملطفة عباراته، حتى لا يظن الهنود أن جميع الناهاب متعجرفون مثل الرجل الصغير.

- يمكنكم الاطمئنان. فأنا أعدكم بأن أتولى شخصياً حماية شعب الضباب. فالعالم بأسره يصغي عندما يتكلم لودفيك ليبلانك - أكد ذلك البروفيسور. وأضاف أنه سينشر انطباعاته حول ما رآه، ولن يقتصر على مقاله لمجلة إنترناشيونال جيوغرافيك، وإنما سيؤلف كتاباً آخر. وأكد أنه سيتم بفضله، اعتبار " عين الدنيا " محمية للسكان الأصليين، تحمى من كل أشكال الاستثمار والاستغلال. وسترون من هو لودفيك ليبلانك!

لم يفهم أناس الضباب شيئاً من تلك الخطبة المسهبة، ولكن ناديا أوجزت كل ذلك بالقول إن هذا الشخص هو ناهاب صديق. وأضافت كاتي كولد بأنها ستساعد، هي وتيموثي بروس، ليبلانك في مساعيه، فانضمت بذلك إلى مرتبة الناهاب الأصدقاء. وأخيراً، وبعد مفاوضات طويلة لمعرفة من هم الأصدقاء ومن هم الأعداء، وافق الهنود على مرافقتهم في اليوم التالي إلى حيث طائرة الهليوكبتر. وهم يأملون في أن تكون نتانة الوحوش قد خفت حتى ذلك الحين في تابيراوا - تيري.

أما إيومي، العملية دائماً، فأصدرت الأمر للمحاربين بالخروج للصيد،

بينما انهمكت النساء في إعداد النار وبعض أراجيح النوم لقضاء الليل.

- أكرر السؤال الذي سألتك إياه من قبل يا ألكسندر، ما الذي تعرفه عن الوحش؟ - قالت كاتي كولد لحفيدها.

- إنه ليس وحشاً واحداً ياكاتي، وإنما يوجد عدد منها. تبدو مثل "البليد" العملاق. إنها حيوانات قديمة جداً، ربما من العصر الحجري، أو قبله.

- وهل رأيتها؟

فأوضح أليكس:

- لو لم أرها لما استطعت وصفها، ألا ترين ذلك؟ لقد رأيت أحد عشر منها، ولكنني أظن أن هناك واحداً أو اثنين منها يجوبان هذه الأنحاء. يبدو أنها حيوانات ذات استقلاب بطيء جداً، تعيش لسنوات طويلة، ربما تصل إلى قرون. وهي تفهم، وتمتلك ذاكرة جيدة، ولن تصدقي إذا قلت لك إنها تتكلم.

فصرخت الجدة:

- أنت تسخر مني.

- ما أقوله صحيح. يمكننا القول إنها ليست فصيحة جداً، ولكنها تتكلم لغة شعب الضباب نفسها.

بادر ألكسندر كولد إلى إخبارها بأنه مقابل الحماية التي يوفرها الهنود، تتولى تلك الكائنات حفظ تاريخهم. وأضاف الفتى:

- لقد قلت لي يوماً إن الهنود لا يحتاجون إلى الكتابة لأنهم يتمتعون بذاكرة جيدة. وتلك الكائنات هي الذاكرة الحية للقبيلة.

- أين رأيتها يا ألكسندر؟

- لا يمكنني قول ذلك، إنه سر.

فغامرت الجدة بالقول:

- أظن أنها تعيش في المكان نفسه الذي وجدت فيه ماء الصحة...

- هذا ممكن وغير ممكن - رد الصبي بتهكم.

- إنني بحاجة إلى رؤية تلك الوحوش وتصويرها يا ألكسندر.

- لماذا؟ من أجل مقال في المجلة؟ سيكون في ذلك نهاية تلك الكائنات المسكينة يا كاتي، سوف يأتون لاصطيادها وحبسها في حدائق الحيوان أو دراستها في المختبرات.

- يجب علي أن أكتب شيئاً، فمن أجل هذا تعاقدوا معي...

- اكتبي أن الوحوش هي أسطورة، مجرد شعوذة وخرافة. وأنا أؤكد لك أن أحداً لن يستطيع رؤيتها في العالم، لوقت طويل. سوف ينسونها. من الأفضل أن تكتبي عن شعب الضباب، هذا الشعب الذي لم يتبدل منذ آلاف السنين، ويمكن له أن يختفي من الوجود في أي لحظة. واذكري أنهم كانوا يريدون حقنهم بفيروس الحصبة، مثلما فعلوا بقبائل أخرى. يمكن لك بذلك أن تجعليهم مشهورين، وأن تنقذيهم بالتالي من الإبادة يا كاتي. يمكن لك أن تتحولي إلى حامية شعب الضباب، وأن تتوصلي بشيء من الحنكة إلى جعل ليبلانك حليفاً لك. يمكن لقلمك أن يأتي ببعض العدالة إلى هذه الأنحاء، يمكنك أن تشهري ببعض الأشرار من أمثال كارياس وآريوستو، ومناقشة دور العسكريين وإيصال أومايرا توريس إلى المحاكم. يجب عليك أن تفعلي شيئاً، وإلا فإن أوغاداً آخرين سيبدؤون باقتراف جرائم في هذه الأنحاء ويفلتون من العقاب كالعادة.

- أرى أنك قد كبرت كثيراً خلال هذه الأسابيع يا ألكسندر - قالت كاتي كولد بإعجاب.

-هل يمكنك أن تناديني جغوار يا جدتي؟

- مثل ماركة السيارات؟

- أجل.

فردت:

- كل شخص وذوقه. يمكنني تسميتك مثلما تشاء إذا ما توقفت عن مناداتي "جدة".

- حسن يا كاتي.

حسن يا جغوار.

في تلك اليلة تناول الناهاب مع الهنود عشاءً متواضعاً، هو قرد مشوي. فمنذ مجيء طيور الضجيج والريح إلى تابيراوا - تيري فقدت القبيلة بستانها، وموزها، وحقل زراعة المنديوكا، ولأنه لم يعد بإمكان الهنود إشعال النار، كيلا يجتذبوا أعداءهم، فقد أمضوا عدة أيام في الجوع. وبينما كانت كاتي كولد تحاول تبادل المعلومات مع إيومي ونساء القبيلة الأخريات، راح البروفيسور ليبلانك يستجوب تاهاما بافتتان حول عاداتهم وفنون الحرب لديهم. وأحست ناديا التي تقوم بالترجمة بأن تاهاما يتمتع

بحس سخرية خبيث، وأنه كان يروي للبروفيسور مجموعة من التخيلات الوهمية. فقد قال له، من بين ما قاله، إنه الزوج الثالث لإيومي وإنه لم ينجب أبناء قط، مما قوض نظرية ليبلانك عن التفوق الجيني " للفحل ألفا". وسوف تكون حكايات تاهاما تلك هي أساس كتاب شهير آخر للبروفيسور ليبلانك سيصدر بعد وقت قصير.

في اليوم التالي اقتاد أناس الضباب، وفي طليعتهم إيومي وواليماي وفي المؤخرة تاهاما ومحاربوه، الناهاب عائدين بهم إلى تابيراوا - تيري. وعلى بعد مئة متر من القرية، رأوا جسد النقيب آريوستو الذي وضعه الهنود بين غصني شجرة ثخينين، لتتغذى عليه الطيور والضواري، مثلما يفعلون بتلك الكائنات غير الجديرة بطقوس مأتمية. كان ممزقاً ببراثن الوحش إلى حد لم تتحمل معه معدات الجنود عملية إنزاله وإعادته إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا. فقرروا العودة فيما بعد لجمع عظامه ودفنها على الطريقة المسيحية. وقد غمغمت كاتي:

- لقد حقق الوحش العدالة.

أمر سيسر سانتوس كلاً من تيموثي بروس وألكسندر كولد بمصادرة أسلحة الجنود كلها، وكانت منثورة في المعسكر، للحيلولة دون انفجار العنف مجدداً إذا ما فقد أحدهم أعصابه. مع أن حدوث ذلك لم يكن محتملاً، لأن رائحة الوحوش التي ما زالت تفوح، جعلتهم جميعهم متوعكين ووديعين. طلب سانتوس نقل الأمتعة إلى الهليوكبتر، باستثناء الخيام التي دفنت هناك، بعد أن قدر أنه من المستحيل تنظيفها من الرائحة الكريهة. واستعاد تيموثي بروس، من بين الخيام المقوضة، كاميراته وعدداً من أشرطة أفلامه، ولكن تلك التي صادرها النقيب آريوستو كانت تالفة، لأن العسكري عرضها للضوء. ومن جهته، وجد أليكس حقيبته وفي داخلها زجاجة ماء الصحة سليمة لم تمس.

و سرعان ما تهيأ أفراد الحملة للعودة إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا. لم يكن لديهم طيار، لأن من قاد الهليوكبتر في المجيء هو النقيب آريوستو، أما الطيار الآخر فقد رجع مع الطائرة الأولى. لم يكن سانتوس قد قاد من قبل هذا النوع من الطائرات، ولكنه بدا واثقاً من أنه إذا كان قادراً على الطيران بطائرته الخربة، فإنه سيتمكن دون شك من عمل ذلك بتلك الهليوكبتر.

حانت لحظة وداع أناس الضباب. وقد فعلوا ذلك بتبادل الهدايا، مثلما هي عادة الهنود. فقدم البعض أحزمتهم، ومناجل المتشيتي، والسكاكين، وأدوات المطبخ، بينما قدم الآخرون ريشاً، وبذوراً وأزهار أوركيدا وعقود أسنان. وقدم أليكس بوصلته إلى تاهاما الذي علقها في عنقه كزينة، وأهدى هذا الأخير إلى الفتى الأمريكي حزمة من السهام المسمومة بسم الكوراري وقصبة سيرياتانا طولها ثلاثة أمتار، وجدوا صعوبة في نقلها في الحيز الضيق في طائرة الهليوكبتر. وعادت إيومي إلى الإمساك بقميص كاتي كولد لكي تصرخ لها بخطبة بأعلى صوتها، وردت عليها الكاتبة بالانفعال نفسه بالإنكليزية. وفي اللحظة الأخيرة، عندما تهيأ الناهاب للصعود إلى طائر الضجيج والريح، قدم واليماي إلى ناديا سلة صغيرة.

- 20 -
الفراق

كانت رحلة العودة إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا كابوساً، فقد تأخر سيسر سانتوس أكثر من ساعة في السيطرة على أجهزة التحكم وتثبيت استقرار الهليوكبتر. وخلال هذه الساعة الأولى لم يكن هناك من يؤمن بأنه سيصل حياً إلى الحضارة، وحتى كاتي كولد التي تتمتع بدم بارد كسمكة بحار عميقة، ودعت حفيدها بالشد بقوة على يده قائلة:

- الوداع يا جغوار. أخشى أننا لن نصل إلى ما هو أبعد من هذا. ويؤسفني أن تكون حياتك قصيرة إلى هذا الحد.

كان الجنود يرددون الصلوات بصوت عال ويشربون الخمر لتهدئة أعصابهم، بينما تيموثي بروس يبدي استياءه برفع حاجبه الأيسر، وهي حركة يقوم بها عندما يكون على وشك الانفجار. الشخصان الوحيدان اللذان كانا هادئين هما ناديا التي تخلصت من رهاب المرتفعات، وهي تثق بثبات يد أبيها، والبروفيسور ليبلانك الذي داخ إلى حد فقد معه الوعي والإحساس بالخطر.

بعد ساعات من ذلك، وبعد هبوط لا يقل إثارة عن الإقلاع، تمكن أعضاء الحملة من الاستقرار أخيراً في فندق سانتا ماريا دي لا ليوبيا البائس. وهم سيذهبون في اليوم التالي إلى ماناوس، حيث سيركب كل منهم الطائرة للعودة إلى بلاده. ولكنهم سيذهبون إلى ماناوس في السفينة عبر النهر الأسود، مثلما جاؤوا، لأن طائرة سيسر سانتوس رفضت الإقلاع عن الأرض، على الرغم من المحرك الجديد. وسيذهب معهم جويل غونثالث، مساعد المصور تيموثي بروس، بعد أن استعاد عافيته إلى حد لا بأس به. وكانت راهبتا المستشفى قد ارتجلتا له جبيرة من الجبس، تثبته من عنقه حتى وركيه، وقد تنبأتا بأن أضلاعه ستشفى دون عقابيل، ولكن عاثر

الحظ قد لا يشفى أبداً من كوابيسه. فقد كان يحلم كل ليلة بأن أفعى أنكندة تعانقه.

وأكدت الراهبتان كذلك أن الجنود الثلاثة الجرحى سيستعيدون عافيتهم، لأن السهام التي أصابتهم لم تكن، لحسن حظهم، مسمومة. أما مستقبل ماورو كارياس فيبدو قاتماً، فقد أثرت ضربة هراوة تاهاما على دماغه، وهو سيقضي بقية حياته، في أفضل الحالات، مشلولاً على مقعد متحرك، عقله غائم في السحاب، ويتغذى بسيروم في الوريد. وقالتا إنه نقل بطائرته الخاصة إلى كاركاس مع أومايرا توريس التي لا تفارقه للحظة واحدة. لم تكن تلك المرأة تعرف أن آريوستو قد مات ولم يعد قادراً على حمايتها، ولم يخطر ببالها كذلك أنه ما أن يروي الأجانب ما حدث بشأن اللقاحات المزيفة حتى تقتاد لمواجهة العدالة. كانت أعصابها محطمة، تردد مرة بعد أخرى إن الذنب ذنبها، وإن الرب قد عاقبها هي وماورو كارياس بسبب فيروس الحصبة. ولم يكن هناك من يفهم تصريحاتها الغريبة، ولكن الأب بالدوميرو الذي ذهب لتقديم مساعدة روحية للمحتضر، أولى اهتماماً لكلماتها وسجل ملاحظة عنها. فقد كان الكاهن مثله مثل كاراكاوي، يشك منذ وقت طويل بأن لدى ماورو كارياس خطة لاستثمار أراضي الهنود، ولكنه لم يتوصل إلى اكتشاف مضمون تلك الخطة. وقد وفر له هذر الدكتورة الظاهري مفاتيح اكتشاف السر.

خلال الفترة التي كان فيها النقيب آريوستو على رأس الحامية العسكرية، قام رجل الأعمال بما يحلو له في المنطقة. ولم تكن لدى المبشر الديني سلطات تتيح له فضح أعمال الرجلين، على الرغم من أنه أخبر الكنيسة، طوال سنوات، بما لديه من شكوك. ولكن تحذيراته قوبلت بالتجاهل، لعدم توفر الأدلة، ولأنهم يعتبرونه شبه مجنون، فقد تولى ماورو كارياس نشر الأقاويل عن أن الكاهن صار يهذي منذ أن اختطفه الهنود. ولم يتورع الأب بالدوميرو حتى عن السفر إلى الفاتيكان لفضح الممارسات التعسفية ضد السكان الأصليين، ولكن رؤساء الكنسيين ذكّروه بأن مهمته هي حمل كلمة يسوع إلى الأمازون، وليس التدخل في السياسة. فرجع الرجل مهزوماً، وكان يتساءل كيف يريدون إنقاذ الأرواح للسماء

دون أن ينقذوا أولاً الحيوات على الأرض. كما أنه لم يكن من جهة أخرى، مقتنعاً بتمسيح الهنود الذين لديهم وسائلهم الروحية الخاصة. فقد عاشوا آلاف السنين بانسجام مع الطبيعة، مثلما عاش آدم وحواء في الجنة. وكان الأب بالدوميرو يفكر ما هي الحاجة لتلقينهم فكرة الخطيئة؟

و حين علم المبشر بأن فريق الانترناشيونال جيوغرافيك قد رجع إلى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، وأن النقيب آريوستو قد مات بطريقة غامضة، ذهب إلى الفندق. كانت رايات الجنود حول ما حدث في النجد متناقضة، بعضهم يلقون المسؤولية على الهنود، وآخرون على الوحش، ولم يخل الأمر ممن يشير بإصبع الاتهام إلى أفراد الحملة. ولكن بغياب آريوستو من اللوحة، توفرت أخيراً فرصة ضئيلة لتحقيق العدالة. فعما قريب سيكون هناك ضابط عسكري آخر على رأس الحامية، ولا وجود لأي ضمانة بأن يكون أكثر نزاهة من آريوستو، إذ يمكن له أن يغرق كذلك في الرشوة والجريمة، مثلما يحدث غالباً في الأمازون.

سلم الأب بالدوميرو المعلومات التي جمعها إلى البروفيسور ليبلانك وكاتي كولد. إن فكرة تورط ماورو كارياس في نشر الأوبئة بالتواطؤ مع الدكتورة أومايرا توريس وبحماية الضابط العسكري، هي جريمة مرعبة لا يمكن لأحد أن يصدقها دون أدلة. وقد قالت الكاتبة:

- إن خبر قتلهم الجماعي للهنود بهذه الطريقة سيهز العالم. من المؤسف أننا لا نستطيع إثبات ذلك.

- بل أظن أننا نستطيع - رد عليها سيسر سانتوس وهو يخرج من جيب سترته إحدى عبوات اللقاح المزعومة.

و أوضح لهم أن كاراكاوي تمكن من استلال تلك العبوة من أمتعة الدكتورة قبل أن يغتاله آريوستو بوقت قصير. فقالت كاتي كولد:

- لقد فاجأه ألكسندر ونادِيا مرة وهو يعبث بعلب اللقاحات، وبالرغم من أنه هددهما إذا ما وشيا به، إلا أن الصغيرين أخبراني بالواقعة. كنا نظن أن كاراكاوي جاء مبعوثاً من كارياس، ولم نفكر مطلقاً في أنه موظف حكومي.

فأوضح سيسر سانتوس الأمر:

- أنا كنت أعرف أن سيسر سانتوس يعمل لمصلحة دائرة حماية السكان الأصليين ولهذا اقترحت على البروفيسور ليبلانك أن يتعاقد معه كمساعد شخصي له. وبهذه الطريقة أمكن له مرافقة الحملة دون أن يثير الشكوك.

- هذا يعني أنك استخدمتني وسيلة يا سانتوس - قال ذلك البروفيسور.

- أنت كنت ترغب في شخص يهوّي لك بورقة موز، وكاراكاوي كان راغباً في الذهاب مع الحملة. لم يخرج أحد خاسراً يا بروفيسور - قال الدليل ذلك مبتسماً، ثم أضاف قائلاً إن كاراكاوي كان يحقق منذ شهور عديدة في وضع ماورو كاريّاس، ولديه ملف ضخم حول صفقات ذلك الرجل الغائمة، ولاسيما الطريقة التي يستثمر بها أراضي الهنود. ومن المؤكد أنه كان يشك في العلاقة بين ماورو كاريّاس والدكتورة أومايرا توريس، ولهذا قرر مراقبة المرأة. وتابع سانتوس قائلاً:

- لقد كان كاراكاوي صديقاً لي، ولكنه رجل متكتم لا يتكلم أكثر مما هو ضروري. لم يخبرني قط بأنه يشتبه بأومايرا. أظن أنه كان يبحث عن تفسير لموت الهنود الجماعي، ولهذا استولى على إحدى عبوات اللقاحات وسلمني إياها لأخبئها في مكان آمن.

فقالت كاتي كولد وهي تنظر إلى العبوة الزجاجية الشفافة :

- يمكننا بهذه العبوة أن نثبت الطريقة المشؤومة التي كانت تنتشر بها الأوبئة.

- وأنا أيضاً لدي شيء لك يا كاتي - قال تيموثي بروس مبتسماً وهو يعرض أشرطة أفلام في راحة يده.

- ما هذا؟ - سألته الكاتبة مذهولة.

فأوضح تيموثي بروس:

- إنها صور آريوستو وهو يقتل كاراكاوي برصاصة عن قرب، وماورو كارياس وهو يحطم العبوات، وصور إطلاق النار على الهنود. بفضل البروفيسور ليبلانك الذي شغل النقيب مدة نصف ساعة، توفر لي الوقت لاستبدال الأفلام قبل أن يُتلفها. لقد سلمته أشرطة أفلام الجزء الأول من الرحلة وأنقذت هذه.

و كان رد فعل كاتي كولد غير متوقع منها: فقد قفزت متعلقة بعنق سانتوس وبروس وطبعت قبلة على خد كل واحد منهما. وصرخت بسعادة:

- بوركتم أيها الشبان!

- إذا كانت هذه تحتوي الفيروس مثلما نظن، فإن ماورو كارياس وتلك المرأة قد اقترفا إبادة بشرية وسيكون عليهما أن يدفعا الثمن... - دمدم الأب بالدوميرو، وهو يحمل العبوة بإصبعين ويمد ذراعه، كما لو أنه يخشى أن يطفر السم إلى وجهه.

و كان هو من اقترح تشكيل مؤسسة مكرسة لحماية "عين الدنيا"، وشعب الضباب بصورة خاصة. وأوضح بحماسة أنه واثق من إمكانية التوصل إلى ذلك بفضل بلاغة قلم كاتي كولد وسمعة لودفيك ليبلانك الدولية. صحيح أنهم بحاجة إلى التمويل، ولكنهم سيتعاونون جميعاً للتوصل إلى طريقة للحصول على المال اللازم: سنلجأ إلى الكنيسة، وإلى الأحزاب السياسية، وإلى الهيئات الدولية، وإلى الحكومات، لن نترك باباً إلا ونطرقه إلى أن نحصل على الأرصدة اللازمة. لا بد من إنقاذ القبائل، قال المبشر الديني ذلك بتصميم، وأبدى الآخرون موافقتهم. ثم عرضت كاتي كولد:

- ستكون حضرتك رئيس المؤسسة أيها البروفيسور.

- أنا؟ سأل ليبلانك متفاجئاً ومفتوناً بسذاجة.

- ومن يمكنه عمل ذلك خيراً منك؟ فعندما يتكلم لودفيك ليبلانك، العالم بأسره يصغي... - قالت كاتي كولد، مقلدة نبرة الأنثروبولوجي المفخمة، فانفجر الجميع في الضحك، باستثناء ليبلانك طبعاً.

كان ألكسندر كولد وناديا سانتوس جالسين في مرسى سانتا ماريا دي لا ليوبيا، المكان الذي شهد قبل أسابيع محادثتهما الأولى وبداية صداقتهما. وكما في تلك المرة، كان الليل قد خيم يرافقه نقيق الضفادع وصراخ القردة، ولكن القمر لم يكن يضيئهما في هذه المرة. كانت القبة السماوية مظلمة وموشومة بالنجوم. لم ير ألكسندر من قبل مثل تلك السماء ولم يكن يتصور وجود كل تلك الأعداد من النجوم. كان الصبيان يشعران بأن حياة طويلة قد مرّت منذ أن تعارفا، فقد كبر كلاهما وتبدّلا خلال تلك الأسابيع القليلة. بقيا صامتين ينظران إلى السماء لبعض الوقت، ويفكران في أنهما سيفترقان قريباً جداً. إلى أن تذكرت ناديا السلة التي

جاءت بها لصديقها، وهي السلة نفسها التي قدمها إليها واليماي عندما ودّعها. تناولها أليكس بتوقير، وفتحها: وفي داخلها كانت تتلألأ بيوض الجبل المقدس الثلاث.

- احتفظ بها يا جغوار. إنها ثمينة جداً، فهي أكبر ماسات في العالم - قالت له ناديا هامسة.

- هل هي من الماس؟ - سأل أليكس مذعوراً، دون أن يتجرأ على لمسها.

- أجل، إنها ملك شعب الضباب. يمكن لهذه البيوض، حسب الرؤيا التي رأيتها، أن تنقذ الهنود والغابة التي عاشوا فيها منذ الأزل.

- ولماذا تعطينني إياها؟

- لأنك عُينت زعيماً للتفاوض مع الناهاب. وستفيدك هذه الماسات في المقايضة.

- آي، ناديا! لستُ سوى صبي في الخامسة عشرة، ليست لدي أية سلطة في العالم، لا يمكنني التفاوض مع أحد، فما بالك بتحمل مسؤولية مثل هذه الثروة.

- عندما تصل إلى بلادك، أعطها لجدتك. فهي ستعرف بكل تأكيد ما عليها أن تفعله بها. جدتك تبدو سيدة واسعة السلطة، وهي قادرة على مساعدة الهنود - أكدت الفتاة.

فسألها:

- إنها تبدو كقطع بلور. كيف تعرفين أنها ألماس؟

- لقد أريتها لأبي، فتعرف عليها من النظرة الأولى. ولكن يجب ألا يعرف أحد آخر بأمرها إلى أن تصبح في مكان آمن، وإلا فإنها ستُسرق، مفهوم يا جغوار؟

- مفهوم. هل رآها البروفيسور ليبلانك؟

فأكدت:

- لا، لم يرها أحد سواك أنت، وأبي وأنا. إذا ما علم البروفيسور بوجودها فسوف يخرج راكضاً ليخبر بذلك نصف العالم.

- أبوك رجل نزيه جداً، لو كان شخصاً آخر لاحتفظ بالماسات لنفسه.

- هل كنت أنت ستفعل ذلك؟

- لا!

- فردت عليه ناديا:

- وأبي أيضاً لا يفعل. لقد رفض لمسها، قال إنها تجلب سوء الطالع، لأن الناس يقتتلون من أجل هذه الأحجار.

- وكيف سأدخلها من الجمارك في الولايات المتحدة؟ - سأل الفتى وهو يروز البيوض البديعة.

- في أحد جيوبك. وإذا ما رآها أحدهم: إنها مشغولات حرفية للسياح من الأمازون. لن يشك أحد بوجود الماس بهذا الحجم، ولاسيما مع صبي نصف رأسه حليق - قالت ناديا ذلك ضاحكة وهي تمر بأصابعها على قمة رأسه الجرداء.

بقيا صامتين طويلاً ينظران إلى الماء عند أقدامهما، وإلى الخضرة المظلمة التي تحيط بهما، وكانا حزينين لأنهما سيفترقان بعد ساعات قليلة ويفكران في أنه لن يحدث لهما في حياتهما مثل المغامرة التي عاشاها معاً. ما الذي يمكن مقارنته بالوحوش، بمدينة الذهب، برحلة ألكسندر إلى باطن الأرض، وصعود ناديا إلى عش البيوض العجيبة؟

و علق ألكسندر:

- لقد كلفوا جدتي بكتابة تحقيق صحفي آخر لمجلة انترناشيونال جيوغرافيك. وهي ستذهب إلى مملكة التنين الذهبي.

- للاسم وقع مشوق كوقع " عين الدنيا ". وأين هذه المملكة؟

- في جبال الهمالايا. أتمنى الذهاب معها، ولكن....

كان الفتى يدرك أن ذلك شبه مستحيل. فعليه العودة إلى حياته الطبيعية. لقد تغيب عدة أسابيع، وقد حان الوقت للعودة إلى دروسه وإلا فإنه سيضيع سنته الدراسية. وهو يريد أيضاً رؤية أسرته، ومعانقة كلبه بونتشو. ولا بد له قبل أي شيء آخر من أن يسلّم ماء الصحة ونباتات واليماي إلى أمه، كان واثقاً من أن هذا الدواء، مضافاً إلى العلاج الكيماوي، سيشفيها. ومع ذلك، فإن فراق ناديا هو أكثر ما يؤلمه، إنه يتمنى ألا تشرق الشمس أبداً، وأن يبقى إلى الأبد تحت النجوم برفقة صديقته. فليس هناك في العالم من يعرفه، ومن كان قريباً إلى قلبه أكثر من هذه الطفلة التي بلون العسل، والتي وجدها بأعجوبة في أقصى العالم. ما الذي ستصير إليه في المستقبل؟ ستكبر حكيمة وبرية، بعيداً جداً عنه. فتنهد أليكس:

- هل سأراك ثانية؟

- أجل، بالطبع! - قالت وهي تعانق بوروبا، بسعادة مصطنعة، كيلا ينتبه إلى دموعها.

- سنتبادل الرسائل، أليس كذلك؟

- البريد في هذه المناطق ليس جيداً

- لا أهمية لذلك، فحتى لو تأخرت الرسائل، سوف أكتب إليك. فأهم ما في هذه الرحلة في نظري هو أننا تعارفنا، لن أنساك أبداً، مطلقاً، وستبقين على الدوام صديقتي المفضلة - قال أليكس كولد معاهداً بصوت كسير.

فردت عليه:

- وأنت ستكون صديقي المفضل، طالما يمكننا أن نرى بعضنا بالقلب.

- إلى اللقاء يا نسر...

- إلى اللقاء يا جغوار...